

نبيل مرعى



خرابشات واقعية

الأخضر لآه يوسف

اَلْخَزْرَآءُ يُوْسُفُ

خبربشات واقعية

كتاب : أحزان يوسف - خريشات واقعية

المؤلف : نبيل مرعى

تصميم الغلاف والتنسيق : المؤلف

رقم الإيداع :

الترقيم الدولى :

الناشر : دار الأمة العربية للنشر والتوزيع

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

الطبعة الأولى

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

كافة الحقوق محفوظة

تنبيه

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يسمح
بإعادة نشر أو إصدار هذا الكتاب ، أو أى
جزء منه أو تقليده أو تخزينه فى نطاق إعادة
المعلومات ، أو نقله بأى شكل من الأشكال
دون إذن مسبق موقع من المؤلف

الناشر

مؤسسة الأمة للنشر والتوزيع

هواتف : ٣٥٧١٢٢٣ - ٠٤٨ - ٠٠٢

المبيعات : تحويل داخلى ١٣

الفاكس : تحويل داخلى ١٤

إدارة النشر : ٠٢٠١١٤٢٠٢٢١٧٤

مؤسسة الأمة العربية
للنشر والتوزيع

أَخْبَرَنَا أَبُو سَيْفٍ

غَرِيبَاتٍ وَاقْعِيَّةٍ

تَأْلِيفُ وَرَسْمُ

نَيْلِ مَرْعَى

إهداء

أكثر ما أتعبنى فى هذا الكتاب ..
أنه لم يفض ملئ رأسى ! ..
فبها قدر ملئه عشرات المرات !! ..
فإنه سيظل ما نحكى ..
مستوحى .. نتفا مما حدث ..
فالواقع أكثر وقعا .. وتفصيلا وتأثيرا ..
لذا ...
إلى كل الشخصيات التى ورد ذكرها ..
كنتم جزء مهم فى حكايا رحلتى ..
أحملكم فى مخازن ذاكرتى .. ولا أتفضل ..
فأنا مدين لكم بالكثير ..
سطورا علمتنى كيف تكون الحياه .. ومنحتنى مناعة الأيام ..
فما بهم الناس .. مايقوله عموم الناس ..
لا ما يدعيه صفوتهم ..
وليس بوزركم .. أنى لم أجد ما أفرغ فيه خبرتى ..

السير



السِرُّ

منذ فترة قرأت كتاب السر .. للكاتبه روندا بايرن ، وتقريبا كنت آخر فرد على وجه الأرض يقرأ الكتاب ، بعدما إستهلكته أدمغة القراء والباحثين ، وغدا لأكثرهم كـ " الخبز البايت " ، ولقد جاءنى فى أمس فترات حياتى حاجة لبارقة أمل إنبهرت بالكتاب بشدة ، فما أن ترمق عينك عباراته المنقوشة على غلافه حتى يصدمك ، ويثير داخلك غرائز الإستكشاف ..

" ظلت تتناقله الأجيال ، وكان محط الأنظار ، وتم حجبه وفقدانه وسرقته وبيعه بمبالغ طائلة من المال ، هذا السر الذى يبلغ من العمر قرونا ، إستوعبه بعض من أعظم الشخصيات فى التاريخ :- أفلاطون ، جاليليو ، بيتهوفن ، إديسون ، كارنيجى ، أينشتاين .. إلى جانب الكثير من المخترعين ، ورجال الدين والعلماء ، والمفكرين العظام ، والأن تم كشف " السر " أمام العالم كله ، عندما تعلم " السر " .. ستعرف كيف يمكنك أن تحظى بأى شىء تريد .. وأن تقوم بأى شىء تريد ، وستعرف من أنت حقا .. وستعرف الروعة الحقيقية التى بانتظارك " .

كان لتلك العبارات شديد الأثر فى نفسى ، مما دفعنى حيثنا ، أن أفض ملء هذا الكنز الدفين ، وأستكشف صفحاته المتراسة بين دفتيه ..

وما إن طويت الصفحات الأولى ، حتى قرأت مقولة لـ د " دينيس ويتلى " .. عالم نفس ومدرب في مجال الإمكانيات العقلية عن السر .. " فيما مضى ، أراد القادة والزعماء الذين كانوا مطلعين على السر الإحتفاظ بالقوة وعدم مقاسمتها مع الآخرين ، وحرصوا على إخفاء السر عن الناس ، كان الناس يذهبون للعمل يؤدون وظائفهم ثم يعودون للمنزل ، كانوا يدورون في دوائر مغلقة دون طاقة ، لأن السر كان قاصرا على قلة قليلة " ..

ويقول " مايكل بيرنارد بيكويث " .. عالم روحاني ومؤسس مركز أجاى العالمى الروحاني .. " لقد شاهدت الكثير من المعجزات تحدث في حياة الناس ، معجزات مالية ، معجزات الشفاء البدني والشفاء العقلي ، ومعالجة العلاقات الإنسانية " وبعد المضي في القراءة لعدة صفحات أخرى .. نبأ لي أن الكتاب يتناول " قانون الجذب " ، وكنت على دراية ببعض مفاده من كتاب قد إطلعت عليه سابقا للدكتور " إبراهيم الفقى " .. تحت عنوان " قوة التفكير " ..

و " قانون الجذب " بإيجاز شديد أحد قوانين العقل الباطن التي تفوق الـ " ٢٦٤ قانون " ، والذي ينص على أن " الشبيه يجذب إليه شبيهه " ، بمعنى أن كل ما تفكر به وتتمناه بصدق ينجذب إليك تلقائيا ، دون نصب أو معاناه .. هكذا بكل سهولة ويسر ، بل ويجذب إليك كل الأفكار المشابهة ، والتي تدعمك وتحقق لك أكثر مما كنت تتمنى

فمثلا إذا كنت تحلم أن تمتلك سيارة .. مهما كان مدى ثراءها ، فقط فكر ، وأمعن تركيزك بها ليل نهار ، وإعتقد بصدق أنك تستحقها ، بل وتخيل أنها بين يديك بالفعل .. وستحصل عليها في غضون ساعات أو أيام قليلة ، ويسرد الكتاب عشرات من القصص التي جنى أصحابها ما يتمنون .. بمجرد التفكير فيه والإيمان به ..

الثروة ، السيارات الفارهة ، المنازل المثالية ، شركاء الحياة ، الوظائف المرموقة .. كل هذه الأشياء وغيرها الكثير أصبح من اليوم رهن إشارتك ، فقط إبدأ ، فأنت أقوى مغناطيس في الكون ، يمكنك إرسال إشارة مغناطيسية جبارة ، تنتشر عبر الأثير في صورة ذبذبات لتجذب إليك ما كل ما تربو إليه ، لتحويله صاغرا أسفل قدميك ..

ففى علم الميتافيزيا .. يؤكد المتخصصين دوما على أن العقل مثل المغناطيس ، عندما يرى صاحبه يحقق أهدافه ولو بالتخيل يجذب إليه كل الأشخاص والمواقف والآليات التي تساعد على تحقيق هذا الهدف ..

إشحن طاقتك وكأنك أكبر محطة بث بشرية ، وإضبط ترددك على تردد أى شئى تتمناه " أى كان هو " ، فالكون كله يعمل بقانون الجذب ، وليس إدعاء أن نقول أنه أعظم القوانين في الكون ، جبل ليخدمك أنت وحدك ..

فقط فكر ..

وأقم تركيزك على أفكارك ..

لاحظها ، وإنّبه لها جيدا ..
إجعلها غاية في الوضوح ..
وإجعل فكرتك هي المهيمنة ..
وإستنعم بمزيد من قوتك التخيلية ، وإستدعاء الصور من الذاكرة ..
قل كل صباح .. الحمد لله ..
أحب نفسي كثيرا وأقدرها ..
أنا أملك ثروة تفوق كل توقعاتي .. وأنا جدير بها ..
أنا متزوج من زوجة الأحلام .. وأعيش معها قصة حب حاملة
أمتلك منزلا مثل قصور الجنة ..
تأتينى كل صباح كل المفاجآت السارة ..
قل إننى متكامل ، تام ، قوى ، قادر ، محب ، منسجم ، وسعيد
قل كل ما تتمناه ويموج فى خلدك بصيغة المضارع ، وكن إيجابيا فى
صوغ أمنياتك ، دون تشكك فى إمكانية تحقق الأمر ، وإن حدث
وأصابتك الريبة ، فإنقل أفكارك على الفور إلى النتيجة النهائية لما
تنشده ، أعمل أفكارك لتأخذ أقصى مداها ، لا تبترها ، وسر معها
للكمال والتمام ، وإياك وأن تتسرب إلى عمقك فكرة محبطة ، وإعلم
أنه لا يوجد إنسان تعيس ، ولكن توجد أفكار تسبب الشعور
بالتعاسة .. الأمر كله يرجع إليك ، كل ما سيصدر من أعماقك ..
سيصير واقعا ، سواء أرضيت أم أبيت ..
يقول " جون أسارف " .. مؤلف ومحاضر عالمي .. " تتمثل مهمتنا



نیل مرعی

كبشر في التشبث بالأفكار التي تدور حول ما ننشده ونبتغيه " .. " إنك تصبح ما تفكر فيه أغلب الوقت ، ولكنك كذلك تجذب ما تفكر فيه أغلب الوقت " ..

وعليك أن تتصيد الوقت المناسب الذى تصل فيه أفكارك إلى أوج نشاطها ، فبعض الأنشطة تحفز الأفكار وتضاعف من قوتها ، فيمكنك مثلا الوصول إلى أعلى مستويات التفكير أثناء الإستحمام بنسبة ٣٩ ٪ ، وأقلها أثناء النوم بنسبة ١ ٪ ، وتزايد قوة الأفكار تدريجيا حسب النشاط الذى تقوم به ، وهى لا ترتبط بمدى قوة المجهود ، ففي أثناء النوم تصبح نسبتها ٣ ٪ ، وأثناء القيادة ٥ ٪ ، وأثناء غسيل الملابس ٧ ٪ ، وأثناء القيام بأعمال البستان ٩ ٪ ، وأثناء شرب القهوة ١٠ ٪ ، وأثناء القراءة والركض تحقق نفس النسبة ١٤ ٪ ..

كما يقول " بوب بروكتور " .. مؤلف وأحد المعلمين العظام للسر .. " إذا رأيت ما تطمح إليه بعين خيالك ، فلسوف تمسك به بين يديك " .. ويقول أيضا " تخيل نفسك تعيش فى ثراء ، وسوف تجذب الثراء ، إن هذا الأمر يؤتى ثماره فى كل حين ، ومع كل شخص " .. حياتك إنعكاس لأفكارك الرائعة والسيئة ، لذلك من اليسير أن لا تفكر إلا فى الأشياء الرائعة ، لأن الأفكار تصبح وقائع .. وأورد الكتاب أن نسبة ١ ٪ فقط من البشر ، يجنون ما يقارب من ٩٦ ٪ من إجمالى المال الموجود فى العالم ، بتطبيقهم لقانون الجذب "

بقصد أو بدون قصد " ، فالعقل الباطن كالطفل يصدق كل ما تقول أو تفكر به ، بصرف النظر عن ماهيته وطبيعته ، فهو لا يستطيع التفرقة بين كل ما هو حقيقى والأشياء الأخرى الغير حقيقية ، وهؤلاء البشر لا يفكرون إلا فى الثراء والرخاء ، ولا يسمحون لأية أفكار مناقضة أو محبطة أن تتسلل إلى عقولهم ، لذا لا يجذبون إلا الثراء والرخاء ..

.....

كان من الصعب أن ترد إلى مسامعى كل تلك الخبرات والمعلومات المبهرة دونما أن أتأثر ، وكان يكفينى حديث رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم " تفاءلوا بالخير .. تجدوه " ، حتى أوقن بأن قانون الجذب حقيقة وليس بوهم ، وأن ثمة سرا فى الأمر بالفعل ..

هناك أشخاص يلتقيهم الحظ مرة ..

وهناك من يقابلهم مرات ومرات ..

وهناك من لا يقابلهم مهما فعلوا ..

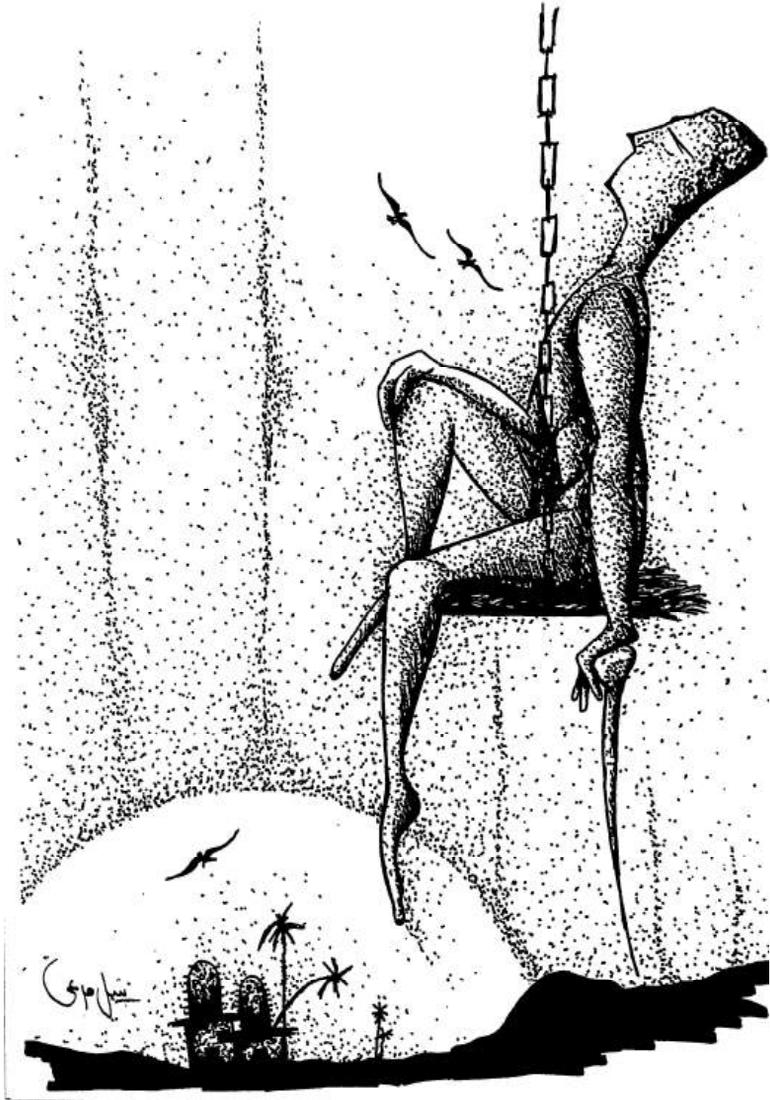
بل وهناك من يقابلوه بالصدفة ..

وهناك من يقابلوه ويقابلهم فى آن ..

وثمة من يقابلوا ذات الحظ ، الذى تكبدوا المشقة فى السعى إليه

وآخرون قابلوا حظا آخر ، غير ذاك الذى قطعوا الطريق إليه ..

وهناك من تساقطت الحظوظ فوق رؤوسهم ، دون سعى أو نصب ..



رغم كل الصياغات السابقة حول ملاقاتة الحظ ، ورغم إيراد لفظة " صدفة " ، إلا أنه في واقع الأمر ، ليست هناك ما يمكن أن ندعوه بالـ " الصدفة القدرية " على الإطلاق ، وإنما أحدهم قصد أمراً ففعله ، وأخر فعل دون إدراك ووعى .. والإثنان أتتهم نتيجة ذات الفعل ، سواء كانت سعيدة أم بائسة ، فالكون والأقدار لا يخضعان للصدف ، إنما هو فعل ورد فعل .. وهذا ما وجدته يلتقى مع ما قدمته " روندا بايرن " في " السر " ..

وعلى الفور .. بدأت أمج كل الأفكار السيئة من خلدي ، بل وأشحن عقلي بكل ما أحلم به وأتمناه .. الثروة ، المنزل ، الزواج ، المكانة الإجتماعية ، طباعة كتيبي المتعثرة في دور النشر إلى آخره .. ظل يتنازعني سيل من الأفكار .. التي إجتاحت عقلي دون إستئذان ، وظللت لعدة شهور .. أتمنى ، وأحلم ، وأشرد بمخيلتي إلى أقصى نطاق إستوعبه عقلي ، وكنت شديد الطمع ، لم أقنع بمنزل .. بل أردت قصراً ، ولم يرضى غرورى سيارة .. فطمحت إلى أسطولا .. مادام الأمر بهذا اليسر .. فلماذا لا أطلق العنان لأحلامي العظام أن تحلق ..

رأيتني وقد نلت جائزة نوبل مرات ومرات ، وحزت أرفع الأوسمة في العالم ، والقراء يتهافتون على كتيبي ويتظرون كل إصدار جديد ، ولقد تجاوزت مبيعاتي كل الأرقام القياسية المتعارف عليها ، وهل هناك ماهو أروع وأبدع من تلك الأفكار ، لأعمل فيها عقلي ..

الأفكار المجنونة دوما .. هي التي طارت وطارَت .. حلقت ووصلت ، وكانت سببا في تطور البشر ، وهدايتهم في بعض الأحيان ، أما الأفكار العاقلة .. ظلت محفوفة بالمنطق العقلاني ومقاييس الواقع الآني ، ظلت لصيقة الأرض الآمنة .. فلم تتحرك قلامة ظفر ، لم تتغير ولم تغير ، ماتت محط مولدها ..

كنت أشعر ولأوقات كثيرة أن الطمع تحول إلى بلاهة وحمق .. فجبنت ، وخشيت صدمة الأحلام المستحيلة ، وعدت أدراجي أقول .. " حتى الأحلام تحتاج إلى بعض التعقل والحكمة ، فليس منطقيا أن أرانى أتنفس فوق سطح القمر دوننا أنابيب أكسجين " ، خلق الواقع بحدود وسقوف ، قلت لنفسي مرارا " كن عاقلا .. ولا يشطح عقلك فوق نواميس الحياة " ..

فتنازلت ، وبدلا من كنوز قارون .. رأيت أن أرصدتى في البنوك قد تهاوت إلى " مائة مليون دولار .. فقط !! " ، ولقد حذوت نهج إحدى التجارب التي أوردتها الكاتبة حول " جاك كانفيلد " .. الذى قال يوما " أريد أن أجنى مائة ألف دولار سنويا " ، ولم يكن لديه أية وسيلة أو إمكانية لتحقيق ذاك الحلم ، فقال " سأجاهر بذلك .. سأصدق الأمر .. سأصرف كما لو أنه حقيقة .. وأترك الأمر للخالق " ، وهكذا فعل ، كتب بالفعل فاتورة بقيمة المبلغ ، وبعد ما يعدو الشهر والنصف واتته فكرة حول كتاب قد ألفه سابقا .. تمنى لو إستطاع أن يبيع منه ٤٠٠ ألف نسخة بربع دولار فقط للنسخة

الواحدة ، وأنها ستجنى في مجملها المائة ألف دولار ، وقد حدث أن جنى ما يقارب الثلاثة وتسعون ألف دولار من مبيعات كتابه .. فقال لزوجته " إذا أتى هذا بنتيجة مع مائة ألف دولار .. فماذا عن المليون ؟ " ..

ويذكر أنه بعد فترة .. قد وقع له ناشره شيكا ، رسم وجها باسمها صغيرا في توقيعه ، لانه كان أول شيك يكتبه بمبلغ مليون دولار ألهمت تلك القصة فريق عمل " السر " .. لصنع شيك على بياض ، يكون متاحا للقراء ويمكن تحميله مجانا من موقع " السر " ، وهو من بنك الكون ، يمكن لكل قارئ أن يكتب فيه إسمه والمبلغ الذى يريده ، وأن يضعه فى مكان بارز بحيث يمكن رؤيته يوميا ..

والغريب فى الأمر .. أن الموقع تلقى مئات القصص لأشخاص جنوا مبالغ هائلة من المال بإستخدام شيك " السر " .. فقلت فى نفسى .. " ولماذا أفعل ؟ " ..

قمت بتحميل الشيك من الموقع ، وكتبت فيه إسمى .. ومبلغ مائة مليون دولار ، وعلقته على " ضلفة " دولابى الصغير بغرفة نومى ، وأول ما تبادر إلى ذهنى .. إذا ما جئيت المال أنى سأبتاع سيارة أعجبتنى .. " كنت قد رأيت صورتها فى إحدى المجلات " ..

فإنشرح صدرى و إنتظرت تحقق المعجزة ..

و إنتظرت ..

وانتظرت ..

مرت مايقرب من الستة أشهر دون جديد ..
فقلت فى نفسى " لماذا لا يصيب الأمر ؟ .. ربما لأن عىنى لا تلحظ ما
كتب بالشىك كل صباح .. فالخط كان صغيرا للغاية " ، فأزلت
الورقة من موضعا ، وكبرتها لثلاث أضعاف حجمها .. وعدت
أنتظر ..
وأنظر ..
وطال إنتظارى ..

إلا أنى ذات ليلة .. شردت بعقلى أفكر فى الأمر عن كذب ، فتحطم
كل ما قرأت فى الكتاب من أفكار ومعتقدات وشطح به
عقلى .. على عتبات الدين ، فلقد ملكنى تخبط وإرتباك عنيفين ،
ووجدت تعارضا مخيفا بين ما أوردته الكاتبه ، وبين نصوص القرآن
والسنة ..

يقول الله تعالى { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } صدق الله العظيم .. أى أن الأمر ليس دواما
رهن إشارتى ، فثمة إرادة ربانية تسبقها ، فتلكم السيارة الفارهة التى
تمنيتها ، لن تطال يداى مقودها ، مهما ركزت أفكارى بها ، إلا إن شاء
الله ، فلسنا فى زمن المعجزات ، وقد تغدو أحلامى مستحيلا إذا ما
عارضت الرغبة الربانية ..

ويقول سبحانه أيضا { وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى
أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } .. قد تكون



الأفكار محبطة للغاية ، وإنما أريد من ورائها خيرا ، والعكس صحيح ولكن بفيئة أخرى لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم " تفاءلوا بالخير تجدوه " .. إنبلج لى شيئا مبهما ، كل ما نتمناه خيرا يتحقق ، ولكن قد يكون خيرا وأريد من وراءه شرا حسب الآية السابقة !! ،

إذن فثمة لغزا في الأمر! ، لا بد وأن للمعادلة طرف آخر .. وتفسير آخر ..

وبتفحص بسيط ، وجدت أن الصورة كانت ناقصة .. فلا ثمة رغدا بالمجان .. دون نصب ، وأيضا لا تمنى ودعاء دون إجابة ، فذاك في ذاك ..

يقول الله تعالى {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ} ، وفي آن أيضا .. يقول سبحانه وتعالى {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} صدق الله العظيم ..

وتلك هي المعادلة الكاملة ، لم تخطئ الكاتبة إذ قالت ركز تفكيرك .. وتمنى بصدق ، وسينجذب إليك ما تنشده ، ولكنها أصابت نصف الحقيقة ، فالجانب الروحاني هو الخطوة الأولى ، وهو ما أوردته في كتابها على إستحياء ، إذ قالت تمنى من الكون ما شئت ، وإطلب من الله أن يسخره لخدمتك ، وأمن بقدرتك ، وأزد شعورك بالحب والسعادة والإمتنان ، وأحسن نيتك ، وكن جوادا إلى آخره .. ثم تلق ما تمنيته ولا تأبه بالوقت ..

لقد أخطأت المرمى ، إذ حثت قراءها على الطلب من الكون وكأنه المصدر ، وإستحت توصياتها عندما ذكرت الله ، بل وإختزلت دوره سبحانه وتعالى في تسخير هذا الكون لطاعتنا ، لقد أبدلت الأوضاع ، وأقامت الكون وسيطا بين القارئ وربه ، وتجاهلت أن الله هو

المصدر ، ولا ثمة وسيطا بيننا وبينه ، إذ لا يجب دعاء الكون بل خالق الكون ..

ثمة سر بحق ، ولكنه يبدأ من جانب الله إلى كل شيء ، توطيد العلاقة به سبحانه أولا ، ثم الطلب والإستجداء بصدق ، ومحاكاة نهج الأطفال في الدعاء ، علينا أن نطرق الباب مرة وإثنان وثلاثة .. وإن إقتضى الأمر أن نطرقه يوميا ومرارا ، لا نطرق سوى باب الله ، وحتما سينجذب إليك ما تشده ، وتلك أصل الحكاية ..

بيد أنه وكعادة بنى آدم .. متعجلا ، يتأزف الأشياء قبل ميقاتها ، ويسئى تقديرها ، ويضعف ويجبن أمام مغرباتها ، تهاوت سقوف الأحلام الجميلة " سهلة المنال " فوق رأسى ، فتهاويت بدورى معها ، إنطرحت بعنف من البرزخيات الحاملة اليسيرة ، إلى أرض الحقيقة ، والواقع السخيفة ..

وتعجبت من تلك العادة الحمقاء ، كيف نتمنى أشياء دون نصب ، دون شقاء لتحقيقها والوصول إليها ، وبالا العجب !! .. كلنا يريد الدنيا بكنوزها على طبق من ذهب .. دون مقابل

ظلمت أفكر فى الأمر ، يراودنى مرارا ، أقول " ما بال هؤلاء الذين حققوا تلك الثروات الهائلة ؟ .. أكانوا جميعا بحق خالصين فى الإيوان بالله ؟ " ..

كان الأمر عنيدا وملحا ، يحتاج جأشى ، ويمينى بما هو صعب المنال ، وخاصة كلما داهمتنى الدنيا بكرورها ، وكدخان الخدر يتسرب إلى

عقلي وأوردته ، كسرب جمال يركض فى رعونة دون رادع ، لتوقفه
لجم الحقيقة عنوة .. فيذعن صاغرا خزيانا .

وذات مرة ، شردت فى الأمر طويلا ، وكانت تمر أمامى آنذاك ..
جنازة ، كانت لأحد الأثرياء المشهورين فى بلدتنا ، طوى الرجل
سنى عمره .. فحاز فى رحلته كل ما يتمناه أى إنسان وأكثر مما يتمنى
، ثروة ، وعقارات ، وسيارات ، وأراضى ، ولما إنتقطع نسله إثر حادثة
مروعة " .. ماتت فيها زوجته وأولاده وبعضا من أقاربه " ، أوصى
بأن توزع أمواله على الجمعيات الخيرية بعد مماته ..
واليوم ، إنتهت رحلته .. بجيوب خاوية !! ..

لم يجنى شيئا مما حاز سوى دعوات الفقراء والمحتاجين ؟ .. " وذاك
بيت القصيد " ..

بماذا أفاده ماله ؟! .. أشفع له عند عزرائيل ؟! ..

هل تأخرت ساعته دقيقة واحدة ؟ ..

إنه الميقات المحتوم ، والحقيقة المطلقة ..

وقضاء الله الذى لا راد له ..

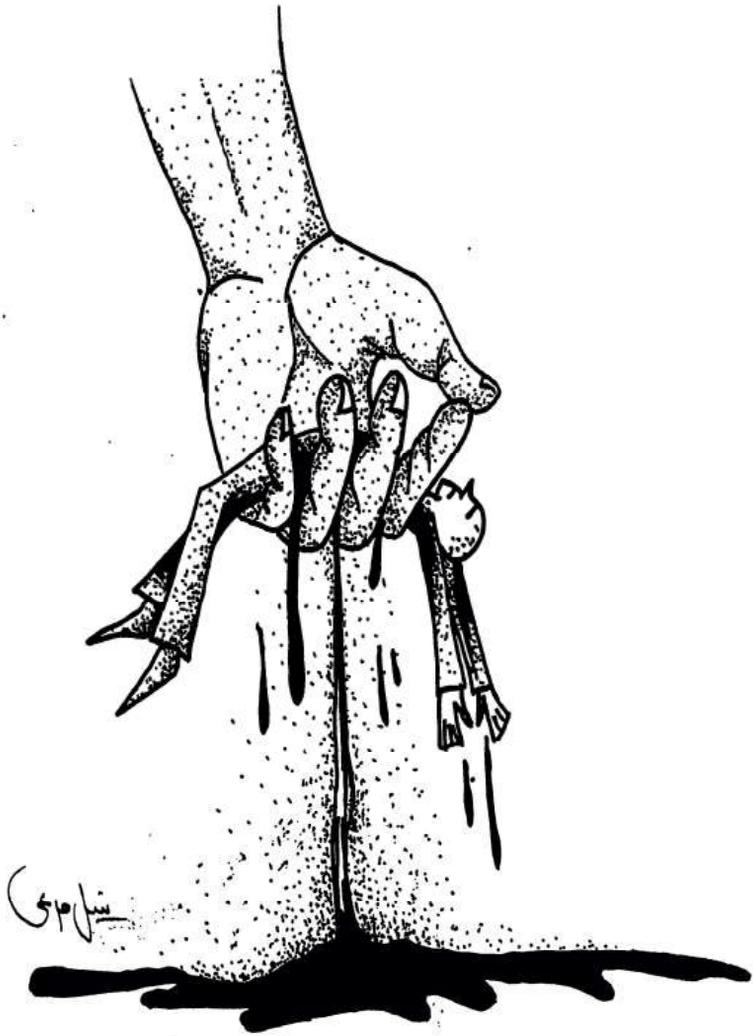
إنتصبت مشدوها ، وأصابتى قشعريرة هزت كل كيانى ، رمقت آخر

الشارع مليا ، حيث غادرت أشباح المشيعين ، وأرعبتني فكرة أن

حياتى ستنتهى يوما ما ..

ولازال السؤال ..

أيها أحق .. الحضور أم الغياب ؟ ..



سَخْبَطَةُ عِوَالِحِط



شخبطة ع الحيط

منذ نعومة أظافرى وأنا مولع بالرسم ، كنت صغيرا أستغرق فيه كل أوقاتي ، وأعترف أنى أول من شوه " سور شركة الكهرباء " الواقعة " لسوء حظها " خلف منزلنا ، بل وحرصت زملائي على ذات الفعل ، فإنطلقوا بطبشورهم الأسود وكأن كل منهم .. " بيكاسو زمانه " .. يرسمون " أسف يشخبطون " الأولاد والبنات ، والأشجار والسماء ، والطيور والقطط والحمير ... واللاشيء ..

كنا نستعمل بقايا قضب الشجر ، المتفحمة والمتفتتة فى الشخبطة والتسويد ، كانت الأداة المتاحة لحفنة من الأطفال المتسكعين " أمثالنا " فى الشوارع ، كنا زمرة من المزعجين .. الصاخبين الثائرين دوما ، فكانت البيوت تلفظنا إلى الطرقات ليستريح أهلها من " وجع الراس " ..

أما عنى .. فكنت أعتقد أنى أملك موهبة حقيقية ، بشهادة زملائي والمدرسين ، حتى المتخصصين لاحقا ، رغم أنى لست شديد الوثوق من ذلك ، إذ لم تتخطى معارضى مرسوم المدرسة والجامعة ، فلا أذكر أنى أقمت معرضا خارجها .. إلا فى قصر ثقافة المدينة ، ولمرة وحيدة ، ولم أحضر معرضا خارج هذه النطاقات ..

رغم أنه ما من مسابقة فيها أو معرضا .. إلا وحزت على المركز الأول وبجدارة ، إلا أن ذاك أبدا .. لم يرضى طموحى فى التحليق ، كانت أحلامى دوما وكعادتها شديد الشره والطمع ، كنت أدعى أن

قدماى تنغرس إلى " سابع أرض " ، وتطال قامتى " سابع سماء " ،
ورغم ظروفى القاسية والمتعثرة دوما .. لم أفقد الأمل يوما ، ولم
يسيطر على جأشى إكتئاب مستمر ، كل صباح كان إستكمال حلم
قديم .. أو بداية آخر جديد ، وذاك كان سر خلطتى ، كنت أمج على
صفحة لوحتى كل أناتى وعبراتى ، فكان الرسم لى متنفس ربانى ..
ولى مع الرسم مواقف أكثر ما يتبدى منها .. أنها كانت مثيرة
للضحك ، بيد أنها كانت ترضى غرورى فى السخرية من المحيط
الجاهل الزائف ..

أتذكر تلك الأيام التى إستضافت فيها الجامعة وفود من طلاب
جامعات الدول العربية .. لبنان والعراق وسوريا وفلسطين والمغرب
وتونس .. وغيرهم ، وكانت كلية الهندسة هى المضيفة لتلك الوفود ،
وكعادة تلك المناسبات .. كانت تقام مسابقات ومنافسات بين
الطلاب فى مختلف الأنشطة ، الأدب والرياضة والفن إلى آخره .
تنافست مع أكثر من عشرين طالبا " يمثلون الدول المشاركة " فى
مسابقة الرسم والخط العربى والنحت ، وكان موضوع مسابقة
الرسم " الريف المصرى " ، وأتذكر أن موضوع المسابقة كان قد
تسرب إلى المشاركين ، فتجهزوا بأفكارهم ، أما أنا فلم تفد لى أية
معلومة عنه ، إلا أن تلك الأمور لم تكن لتوقف سخريتى من تلك
المراسيم المقنعة ، كانت مسرحا زائفا ، الجامعة تمثل أنها تقيم مسابقة
.. والوفود يتقمصون دور الضيوف ، حتى النشاطات كانت نهجا

من الإصطناع الأحمق ، كنت أعلم بكل ذاك ، ورغم ذلك لم أسعى يوماً لمعرفة موضوع المسابقة ، إلا أن المركز الأول كان يأتيني خاضعاً تحت قدمي .. صدفة !! ..

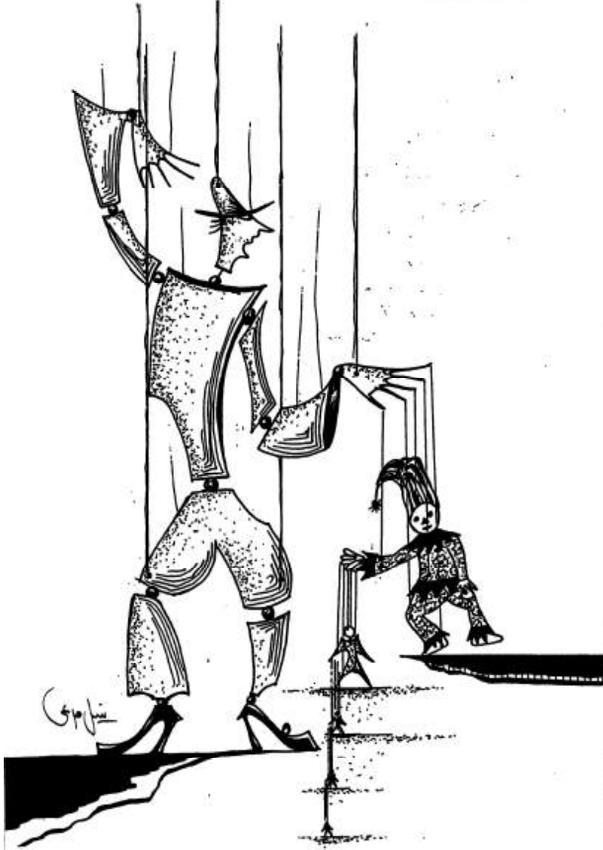
ما يضحك في الأمر ، أنه قيل لنا " تلك المرة " أن لجنة التحكيم .. " أساتذة من كلية الفنون الجميلة " ، بما يناسب كون المسابقة دولية .. قلت في نفسي .. " ترى بكم إستأجروهم ليتقمصوا هذا الدور؟! " جئت قاعة الرسم متأخراً ، فلم أكن أبه بالأمر ، ليس ثقة بل مللاً وضيقاً بذلك السباق السخيف ، الأشبه بسباقات الجري لذوى الإحتياجات الخاصة ، الكل فائز بل وبدرجة إمتياز " جبراً للخاطر " ، وأعتذر فسباقات ذوى الإحتياجات الخاصة أكثر جدية ، وأبطالهم أبطال حقيقيون لا أبطال من ورق ..

وكانت شروط المسابقة تلك المرة .. أن الرسم لا بد وأن يكون على لوحة بيضاء ، فجلبت لوحة صفراء !! " من باب المرازية " ، وأذكر أن المشرفة ما إن رأت اللوحة ، ولمحت لونها ، حتى إمتقع وجهها بشدة .. وقالت لى مستهجنة ..

- بسببك .. هتتجبب الجائزة عن جامعتنا ..

إلا أنها بالنهاية وافقت على مشاركتي لزهد حيلتها " ولمحض الحضور " ، وحفظاً لماء الوجه أمام العميد ورئيس الجامعة .. وأثناء مروري على لوحات الطلاب المشاركين ، كنت أكظم ضحكي بصعوبة ، الجميع تفترش لوحاتهم مشاهد الترفة والفلاحين والبقر

والجاموس وأشجار النخيل والبط العائم على صفحة المياه إلى
آخره من مظاهر الريف ، لم أجد منهم من قدم جديدا أو رؤية مغايرة
، كان بحق مشهدا سخيفا ..



أفردت لوحتي في المكان المخصص لها ، في البداية لم ينبوا بخلدى أية
أفكار ، فوجدت قلمي الرصاص يجرى بعشوائية دون هدف ، أذكر

أنى رسمت يدا مرشوقة فى وجه فلاح ، تحيط بها أشجار ومبان ،
كنت أعرف أن
تلك الرؤى عديمة المعنى .. توؤال على أنها فكرا عميقا ، وأن ثمة
أبعادا تتكشف بها تباعا ، وهكذا " للأسف " كانوا يرون الفن ..
وإلى الآن ، وياحبذا لو كان العمل لفنان مشهور ، فلو بصق على
حجر لقالوا فنا ، وما أضيع الموهوبين فى رحابهم ..
دخلت المشرفة لترى إن كان طلاب جامعتنا فى حاجة إلى أدوات أو
ما شابه ، فصدمت بلوحتى ، وإلى الآن تظن كلماتها فى أذنى ..
- الله يسأحك .. وديتنا فى داهية ..

إذ كانت تتقاضى مكافئة عن المراكز التى يجنيها الطلبة فى مثل تلك
المسابقات ، وعلى العكس تماما ، يخصم من مرتبها الشهرى ، إن لم
يحققوا مركزا رائدا ، مما يعنى أنها لا تكثرث بعملها ، حدجتنى برمقة
ساخطة ، فنظرت إليها ضاحكا أقول ..

- اللوحة اللى إنتى بتتريقى عليها دى .. هتجيب مركز أول
مر الوقت وسلمت اللوحات ، وخرج الطلاب ينتظرون النتيجة
خارج المعرض .. بعد ولوج لجنة التحكيم وإنغلاق الباب ، وكان
المشرفون بالداخل معهم يباشرون النتائج تباعا ، وإذا بى أرى باب
المعرض ينفتح ، وتنبلج منه المشرفة ، يكاد الإبتسام أن يمزق وجهها
، توجهت صوبى مباشرة تقول ..

- " إنت فلتة " ، بمجرد ما الدكاترة دخلو المعرض .. سابوا اللوحات كلها ، ووقفوا متنحين قدام لوحتك .. يقولوا فيها شعر ..

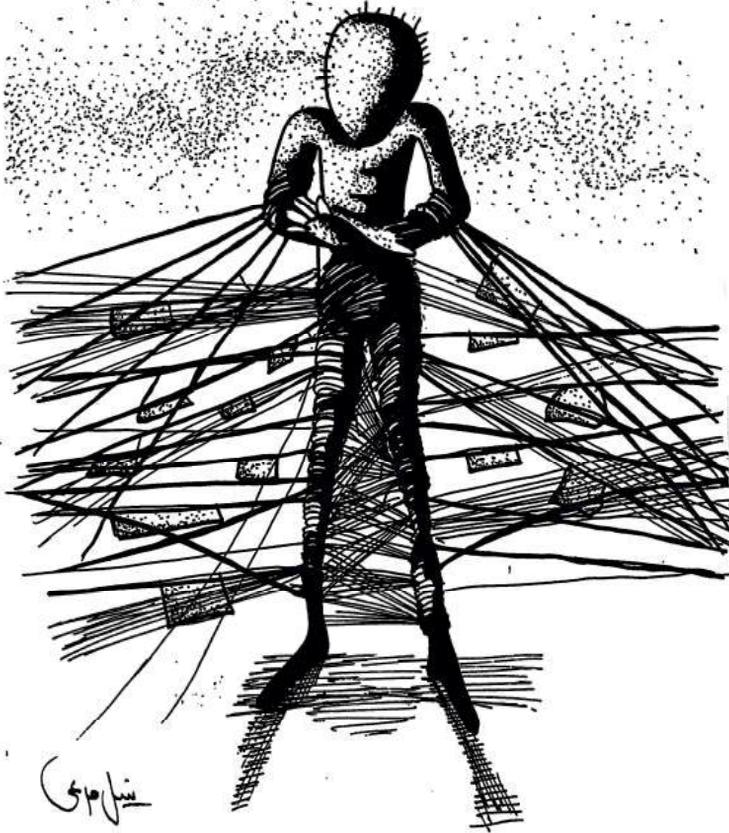
فسقطت من توى ، وإنفجرت فى نوبة ضحك هستيرى ، شر البلية ما يضحك ، فبقدر حمق هؤلاء .. بقدر ما كنت أعلمه عن طريقة تعاطيهم مع الأمر ، وما خاتنتى قريحتى أبدا ، ولا خالجنى ظن بزهد حيلتى .. وكأنى أقرأ أفكارهم ، أو سلطت جنيا على ألبابهم .. ليقفوا مشدوهين أمام شخبطتى وهرائى ، قلت فى نفسى .. " أقسم بالله لوحات سور محطة الكهرباء .. أكثر تعبيرا مما تمخضت .. "

إن أكثر ما كان يوجعنى .. أنى لم أفد يوما إلى سباق حقيقى ، كله كان " عبث فى عبث " ، وما يزيد من جرعة إحباطاتى تلك الكلمات التى طالما أزعجت أذنى ..

- أنت عبقرى ، فلتة ، محصلتش ، بكرة تبقى حاجة كبيرة ، إبقى إفتكرنى لما توصل ، " أما أوصل فىن بالظبط ؟!! " "

العجيب أن تلك الكلمات رفعت مسامعى فى أكثر من مجال .. فى الرسم ، وفى دراستى الهندسة ، وفى تصميمات الجرافيك ، وفى الشعر ، وكتابة الأغانى ، والكتابات الأدبية ... إلى آخره ، رغم أن قدرتى فى أغلبها ، كانت ومازالت .. متواضعة للغاية ، والناظر لى إما منبهر أو ممتقع أو كاره !!

والآن أتذكر أول لوحة أنجزتها ، بعد ولوجي قسم الهندسة المعمارية ، إذ كُلف الطلبة برسم لوحة للإظهار المعماري " أشكال هندسية متراكبة ، وبعض أنواع للأشجار ، وأشخاص بوضعية حركية مختلفة ، وسيارات ... وغيره " .. مما يزين لوحات المباني ، ويعطيا نمطا من الواقعية ..



نبيل مرعي

كانت اللوحة بالنسبة لى " نهج طفولى لا يليق " ، فلکم رسمت تلك الأشياء حتى كلت أناملی ، بيد أنى أعطيت اللوحة إهتما ما يعدو المطلوب ، إذ أنها أولى لوحاتى بالقسم ..

وفى ميعاد التسليم ، وضع الطلاب " وكنت بينهم " لوحاتهم متراصة فوقيا ، ثم سلمت إلى الفراش ليوصلها إلى مكتب دكتور المادة ، بينما ذهبنا إلى قاعة المحاضرات ..

وبعد أكثر من ساعة زمن ، إنتهت المحاضرة ، وعدنا جميعا إلى صالة الرسم ، وبينما أنا ألج من الباب .. حتى صدمت بلوحتى معلقة على الحائط دونها اللوحات كلها ، وفى الحقيقة لا يمكن أن أصف مدى إرتعابى فى تلك اللحظة ، وكان منبع خوفى أن يكون " مقلبا " من أحد زملائى .. فأعاقب عليه شديد العقاب ، إذ كانت إدارة القسم متعسفة فى جزاءاتها .. فإما " الرصد " أو الحرمان من دخول الإمتحان ، ولكن هذا لم ينفى من داخلى أن تكون اللوحة قد علقت من قبل أحد المعيدین ..

إنتصبت أمام اللوحة بين الإحتمالین ، لا أجرؤ على لمسها ، أذكر أن قلبى أنها كان يرقع برقع عنيف ، وما إن لمحت أحد المعيدین يلج من باب الصالة " ولسوء طالعى كان يمقتنى بشدة .. بدون أسباب " ، حتى هرعت إليه أفهمه أنى وجدت لوحتى معلقة .. ولا يدلى فى ذلك ، فطالعنى بأنها أوامر أستاذ المادة ..

عدت إلى مكانى بالصالة ، إلا أن الخبر لم يزل من روعى شيئا ، بل

زاده وعمق من شراسته ، ظللت أرمق اللوحة وثمة إنقباض بفؤادى ، إلى أن برز الدكتور من الباب ، فتسارعت دقات قلبى مكروبة .. أكاد أبصقه ، ترجل عدة خطوات صوب اللوحة يقرأ الإسم المدون عليها ، فأصابنى دوار شديد ، وإصطكت قدماى وأنا أسمعته ينادى بإسمى ، تحركت بخطو متهدج واهن صوبه ، وطرقت مسامعى كلماته ..

- مين اللى رسم اللوحة دى ؟ ..

شعرت وكأنى أوقعت فى شرك .. نصبته أنا لنفسى ، كيف سيصدق أنى راسمها ؟ .. وأنا موحول بين حفنة من الطلبة هزىلى المستوى ، فكل منهم إلتحق بالقسم " على سمعته " ، إذ كان معروف أن طلبة قسم عمارة زمرة من

الفاشلىن لا عمل لهم سوى " الدلع والمياعة والمسخرة " ، كما أن الجميع يظن أن القسم من بين أقسام الكلية يتسم بغاية السهولة ، إذ أنه يدرس أمورا ذات علاقة وطيدة بالفن أكثر من المادة العلمية ، " كانوا يعتقدون أنها سبيل للعب واللهو بعيدا عن عناء المواد المعقدة الصعبة !! " ..

إنتصبت مشدوها .. أنطق بصوت يوشك على الإختفاء ..

- أنا .. أنا اللى رسمتها حضرتك ..

فأمرنى برسم بعض من الأشكال على " السبورة " ، قام بإنتخابها وإنتقائها بعناية من اللوحة ، وبعد أقل من خمس دقائق .. كنت قد

أنجزت المهمة بإمتياز ، فنظرني الدكتور والإنبهار يشع من عينيه
قائلا ..

- أنت معنا إن شاء الله ..

يقصد أنى سأكون ضمن هيئة التدريس بالقسم بعد أربع سنوات !
وخرج سريعا يلحق به المعيد ، وبقدر ما كان يكتنفي من خوف ،
بقدر ما وقفت محملا أردد في نفسى .. " حتى هنا تقال مثل تلك
الكلمات .. يالا السخافة !! " ..

وعادت بي الذاكرة إلى سنوات المرحلة الإعدادية ، حينما رسمت
مبنى لمدرسة ، كان موضوع الرسم أنها ، وأثناء إستلام الطلاب
لكراسات الرسم وقد تم إعطائها درجات التقييم ، وجدت رسمتى
مذيلة بالقلم الأحمر بعبارة " ممتاز " دون درجة ، وعندما سألت
مدرس الرسم عن السبب ، قال ..

- رسمتك ممتازة .. عشرة من عشرة شوية عليها ..

فما كان رد فعلى إلا أن مزقت الكراسة بعد عودتى للمنزل ، لم ترق لى
عباراته ، كنت فى حاجة إلى تقييمه " خاصة وأنه معلمى " ، كان
شديد إنبهاره ومغالاته فى تقدير موهبتى .. يسقطه من ناظرى ..
وظل هذا الهاجس يطاردنى ، إلى أن رفضت أى تقييم بعده ، كنت
فقط أتقبل الإنتقاد الجاد ، ولا أقبل التقييم الكلى " لم أكن أرى فى
النقد تقييما " ، بل وبدأت كل التقييمات تتصاغر فى خلدى تباعا ،
فبت أرسم ما يحلولى ..

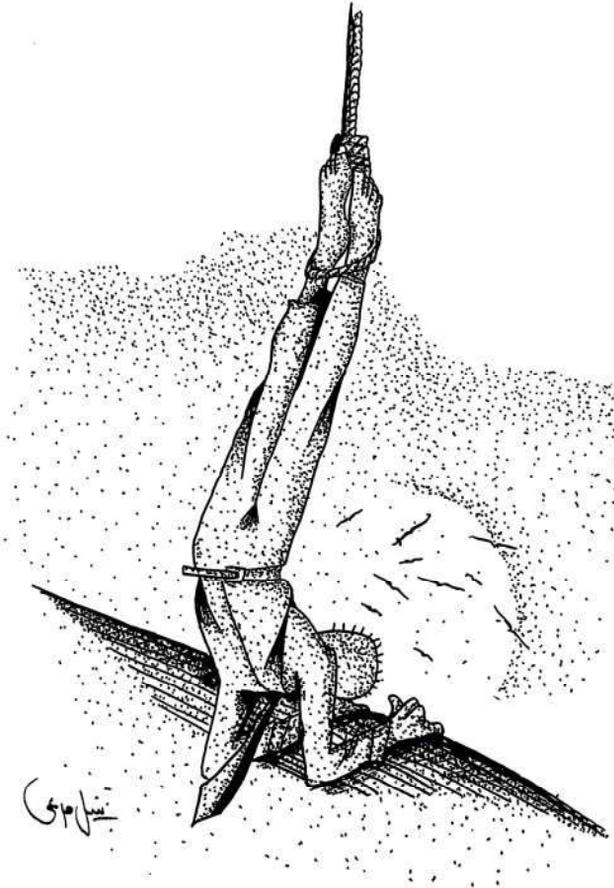
مما جعلنى ذات مرة ، وأنا أفق قبالة زملائى فى السنة الثالثة بالقسم ، غير مكترث بعبارات المعيد ، وهو يمدح ويغالى فى أحد مشاريعى لتلك السنة ، بل وكنت أتمنى أن " تنشق الأرض وتبتلعنى " ولا أستمع لتلك العبارات التى كانت تسقط على زملائى " كحجارة سجيل " ..

ومرة أخرى كان الحقد ينبثق من أعينهم أثناء محاضرة " المنظور " ، عندما طلب الدكتور من يكمل رسمة مبنى كان قد رسمه على السبورة " وكانت المحاضرة الأولى لتلك المادة " ، فساد الصمت المميت بين الطلاب ولا مجيب ، وكأنه يتحدث إلى أصنام ، بينما رفعت أنا يدي لأعرب عن رغبتى فى إنجاز المهمة ، وما إن إنتهت لصمتهم ، حتى أسقطت يدي خلسة متفهما بالندم ، إلا أن الدكتور كان قد لمحنى ، فطلبنى على الفور ، وكالعادة قمت بالأمر .. " فلکم خطت يدي مثل تلك الرسومات قبلها بأكثر من عشر سنوات " ، ففوجئت بالدكتور يهتف فى زملائى ..

- صقفوله ..

وكعادتى أيضا .. وقفت والبلاهة ترسم على أسارىرى .. مندهشا " صقفوا له !! ، أمثل تلك الأمور تحدث بالجامعة؟! أيضا .. ما هذا الهراء؟! " ..

أشعرني الموقف وكأنني مازلت بالصف الأول الإعدادي ، رمقت
زملائي مستغربا فرأيت حقدا مريبا يشع من أعينهم ، وطالعتني
أحدهم أثناء عودتي لمقعدى قائلا ..
- تسلم لنا إيدك يا باشمهندس ..



إلا أنها لم تسلم ، فما كان إلا أن هويت على الدرج من الطابق الخامس ، فكسرت يدي اليمنى وقدمي ، وقمت بتأجيل العام الدراسي ! ، والأدهى أنني قمت بتأجيل ثلاث سنوات أخرى في أحداث مماثلة ! لم يكن شعوري بالإمتقاع والسخافة يوما .. " ثقة بالنفس " ، بقدر ما كان يأسا من إفتقار الجدية والموضوعية ، ووقوعى دوما بين أرهاط من هزال القدرات ، وعديمى الملكات ، من هم دون المستوى فى كل شىء ..

إلا أنى ، وأعترف ، قد تحايلت كثيرا على رؤاى الفنية فى السنوات قبل الأخيرة ، بل وطُوعت لى تقنيات أيضا متحايلة ، وذلك لأسباب كثيرة ، تأثرت شيئا ما بالمنطق المتواضع السطحى والضحل للوسط المحيط بى ، كانت العقول عرجاء ، منتوجا طبيعيا لوسط ريفى ممسوخ بعصرية مشوهة ، فإنسقت وراءه شخوصه بإنتاج بعض اللوحات التجارية العقيمة ..

ومن الأسباب أيضا ، أنى كنت شديد الحزن أنى لم أتلق تعليما أكاديميا .. يصقل موهبتى ، فكنت أتميز غيظا وأنا أسمع أحد زملائى يطالعنى بأنه قد حصل على " دبلومة تشريح " ، أو ما شابهه ، كان يقهرنى ويهزم طموحى وقدرتى ..

حاولت مرارا أن أصقل موهبتى بالعمل المستمر ، والإنتهال من أهل الخبرة ، وفى سبيل ذلك أذكر أنى فى عام ٢٠٠٦ م تقدمت للعمل والتدريب كرسام كاريكاتير فى جريدة الدستور ، فتم توجيهى إلى

القسم الفننى ، وهناك قابلنى زمرة ممن يوقفون " المراكب السايرة " ،
وكلف أحدهم بتوجيهى وتعريفى بما يلزم فعله ، وياليتنى ما رأيتته ،
جعلنى أمقت الرسم والرسامين ..
فى كل مرة كنت أذهب إلى مقر الجريدة ، كان يطلب منى أن أعيد
رسم عشرات الرسومات ، حتى يقتلنى الإرهاق ، فيقول لى عبارته
السمجة ..

- نكمل بكرة ..

وما أكثر ما تكررت على لسانه ، وكنت أحضر دوما فى اليوم التالى
لأقوم بنفس العمل ، فلما يئس الرجل من إصرارى وصمودى ، قال
لى ..

- تعرف كتاب سباعات صلاح جاهين ؟ ..

" وهو كتاب تتجاوز صفحاته .. المئتان وخمسون صفحة " ، قلت ..

- هدور عليه فى المكتبات ..

- تمام .. متجيش هنا قبل ما تعيد رسمها كلها .. خمس مرات

..

" وذكرنى عندما كان المدرسون يعاقبوننا بكتابة موضوع معين
عشرات المرات " ، فلعنت الرسم والجريدة والتعلم ، ولعنت الرجل
مرات ومرات " كل هذا بالطبع بينى وبين نفسى " ..
إلا أنى ورغم ضيقى من طلب الرجل ، أنجزت المهمة فى سبعة أيام
فقط ، وعدت إليه أحمل ألف وربعمئة ورقة رسم ، فنظرنى متأففا

يقول ..

- على فكرة إنت ذكى جدا ، طب أفهمك إزاي إن ملكش

شغل عندنا ..

ولا أدري كيف إلتقمت غيظى وإنصرفت ، وأخذت عهدا على
نفسى ألا أنسى ذلك الموقف ، وألا يغيب ذاك الرجل عن ذاكرتى
مهها مر من عمر ..

إلا أنى لم أفقد الأمل ، ظللت أدور على مقرات الجرائد المصرية ،
الواحدة تلو الأخرى ، اليوم السابع ، المصرى اليوم ، الشروق ،
الأهالى ، النبأ إلخ ، دون جديد ، إلى أن سمعت من أحد
الصحافيين الصغار أن جريدة الدستور ستقيم معرضا فنيا بساقية
الصاوى بالزمالك ، وكانت المرة الأولى التى أزور فيها حى الزمالك
لا ساقية الصاوى ذاتها ، كان المعرض بعنوان " حصاد ٢٠٠٧ " ..

ذهبت مبكرا لمقر المعرض ، وكان على أن أنتظر لأكثر من ساعتين ،
وبالطبع لم أملك الجلوس على أحد " الكافيهات " بالساقية ، فلم
يكن بجيبى غير أجرة طريق العودة ، فجلست على أريكة بمقدمة
المكان وداخل أسواره ، وإذا برجل كبير السن قارب الستين حولا ،
أو يكاد ، يجلس بجوارى وأنا أقلب فى بعض رسومات قد أخذتها
معى ، نظرت إلى الرجل كان يرتدى قبعة تشبه " قبعة عادل إمام فى
شمس الزناتى " ، نظرت إليه فى بادئ الأمر ثم عدت بناظرى ولم
أبه ، إلا أن الرجل خلع قبعته فأنحسرت رأسه عن شعر أبيض مجعد

طويل ، ورأيته يمد يده لى بـ "سيجارة" ويقول ..

- بمسى عليك ..

حدقت فى وجهه ، إنه هو ، الفنان جورج البهجورى " رسام الكاريكاتير الأشهر صاحب المعارض الفنية فى سائر أرجاء العالم ، والحائز على جوائز كثيرة ، منها الجائزة العالمية الأولى فى الكاريكاتير فى روما فى عامي ١٩٨٥ و ١٩٨٧ " ، وما أسعد لقاء كهذا ، لو رتبته الظروف لما تم ، لم أصدق عيناي ، حتى أنى إنتفضت من مقعدى منتصبا ، فأمسك بيدي وأجلسنى وأعطانى " سيجارة " ..

ظللت لأكثر من ساعة زمن أتحدث مع الرجل ، ولقد حسن الله فى منطقه وحفاوته ، أكثر مما أبداع فى تكوين موهبته ، كان متواضعا لأخر حد يمكن أن يتخيله أى إنسان ، لم يقاطعنى ، وتلقى لهفتى على أفضل ما كنت أنتظره ، وشاهد رسوماتى كلها وأثنى عليها ، ووجه لى نصائح غالية لم أنساها إلى اليوم

إلا أن ما حدث داخل المعرض ، جعلنى أمقت بعض رموز تلك المهنة ، فلقد وجدت تعاليا غريبا وسخرية من بعضهم ، وتقليلاً من أعمال المعرض ، رغم أنها فى إعتقادى المتواضع ، كانت رائعة للغاية وأذكر أننى حينما إقتربت من الفنان جورج البهجورى ، قدمنى إلى أحدهم ، وكان رساما أشهر " ع . ف " يعمل بأحد الجرائد القومية الكبرى التى تمثل هذا البلد ، خليفة لفنان كبير له باع طويل بالعمل الصحفى ، فما كان رده إلا أن قال له ..



- مينفعش يا أستاذ تكون متواضع بالشكل ده ، مش كل واحد

مبتدئ يجيلك تديله من وقتك .. هتجيب وقت منين ..

إلا أن الفنان العظيم تجاهله ، وأمسك بذراعى وجلس على كرسى بالمعرض ، وطفق يريه رسوماتى ، ويأخذ رأيه بعفوية شديدة كعاداته " عرفت ذلك من محض دقائق قضيتها معه " ، لم يكن يعرف أنه " أحرق دمه " ..

وقف المتعجرف يجز على أسنانه وقد إسود وجهه من الإحراج ، إلا أنه فى رحاب قامة عظيمة كتلك ، لم يملك قدرة على الإحتجاج أو التذمر ، فأسقط جام سخطه على أعمالى ، وقف ينقد رسوماتى بالسلب ، لم يعجبه شئ ، إلا أنه أحصى بضع ميزات قلائل .. رياء وإرضاء للأستاذ ..

وكان هذا أيضا من جملة ما عايشته ، ولن أنساه طيلة ما حييت ، كنت أعرف أن كل طريق نجاح مليئ بالعثرات والسخافات ، إلا أن ما صدمنى وأفقدنى الثقة أحيانا ، أن تكون عثرات طريقي هى قامات كبيرة كذاك المتعجرف ، وبالخبرة فيما بعد ، وجدت أنه من بين كل عشرة رموز محبطة .. تجد رمزايث فى روحك الأمل ك " البهجورى " وغيره ..

وبمرور الوقت تبدلت ميولى وتلونت كالثعبان ، وإنخدعت للظروف وأذعنت لها ، فمن رسام إلى شاعر إلى قاص ، لأعود رساما تارة أخرى ، وتتكرر الدائرة مرات ومرات ، وفقا لظرفى وحالتى

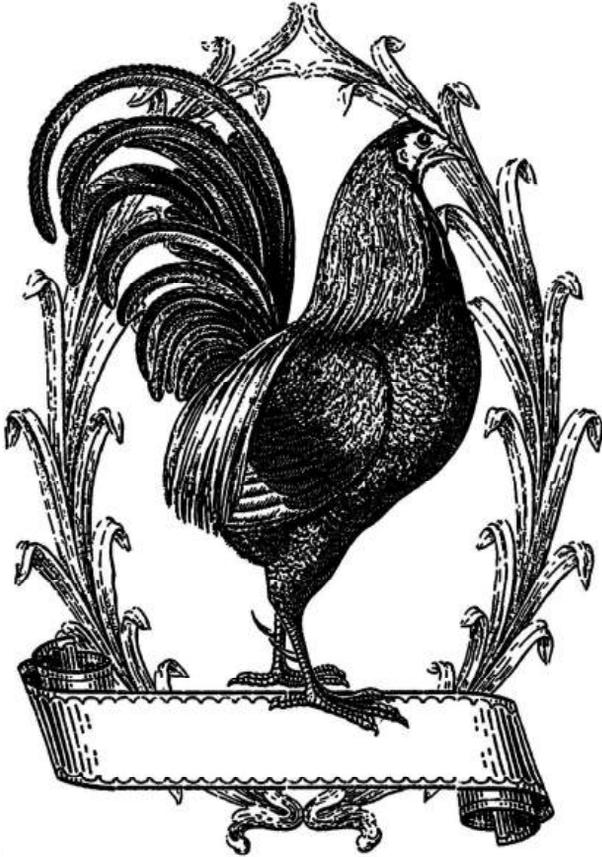
المزاجية ، وهكذا دارت حياتي ..
والآن بت أشعر أن تلك الموهبة ، ولدت لتمت ، ومع كل محاولات
إحيائها .. يتجدد مواتها مرارا ، ولا أصعب على النفس من أن تهدي
بشيء .. تسلبك الظروف قيمته ..
كانت للأحداث شديد الأثر في تشكيل أحلامي وطموحاتي ، ولا
أنكر ، كنت مطياعا لها ، أسيرا ، أدور مع دروبها دون إبداء تذمر أو
إحتجاج ، وهذا ما كنت أملكه ، كنت في عمقى ثائرا ، وفي واقعي
لوحة تتغير ألوانها مع تحولات الليل والنهار ..



وكم من الأمانى راودتنى وناوشت خلدى ، يوما ما كان التمثيل
حلما كما كانت الكتابة ، إلا أن الرسم ظل التوق الأعظم ، والإشتياق
الراسخ فى أعماقى كالجبل التليد ، عنيد يأبى إلا أن يشهر قامته ، ولا
أدرى لما كانت الحرب دوما تدور .. كلما سقط حبر قلمى على لوحة ،
تتسرس وتصبح حامية الوطيس ، لتعود فتشتت أحلامى تارة أخرى
بيد أنه ولأوقات كثيرة ، كانت تغمرنى هزة وحالة إنتشاء ، فترنو
نفسى وتهفو إلى بيكاسو وبيكار ، ليوناردو دافنشى وصلاح طاهر ،
مايكل أنجلو وجمال السجيني ، فان جوخ ومحمود سعيد .. و ..
جاذبية سرى ، هانز إيرني ، شوقي زغلول ، أرمان ، نجيب بلوخه ،
السويرث كيلى ، مصطفى الخلاج ، جاك ليفين ، إسماعيل شموط ،
جيف كونز ، الشعبية طلال ، سويز بيتس ، عوض عبيدة ، مصطفى
فروخ ، إدوين پاركر ، لؤي كيالى ، يعد تومبلي ، ادم حنين ، مانويل
برومبرج ، أحمد حجازي ، هربرت أبرامز ، إبراهيم وانلي ، ويل
بارنيت ، ألكسندر صاروخان ، بانكسي ، إنجي أفلاطون ، ديفيد
هوكني ، ايزاك فانوس ، جون ليدون ، إيفيلين عشم الله ، ريتشارد
لونغ ، محمد وانلي ، سيمون هينوود ، عبد المجيد وافي ، علي عمر
أرميص ، عفت ناجي ، كليف باركر ، على مهيب ، إيدي راما ،
صافيناز ذو الفقار ، أريس كالائزس ، مارجریت نخلة ، هربرت
أشترنبوش ، محسن عطيه ، أنتون لاماثاريس ، محيي الدين اللباد ،
انريكو كاستيلاني ، مُحْتار العَطَّار ، دوردي بيراموف ، مصطفى

حسين ، ألكسي ليونوف ، معوض جاد الرب ، جاك بيلجرين ، هاني
حجاج ، عمار بن بلقاسم ، يوحنا الأرمني القدسي والقائمة
تطووول .

انفیکاً



أنتيكا

مع إستهلاله عام ٢٠٠٥ ، ولما ضاقت المعاييش وشحت الأرزاق ..
بوغت الجميع بقرارى ، كنت قد أزمعت وأقمت نيتى .. أن أقوم
بالتجارة فى العملات القديمة والأنتيكات " وذلك كان فى السنة
الأولى التى قمت بتأجيل العام الدراسى فيها ، بعد حادثة الوقوع من
الدور الخامس " ، وفى سبيل ذلك بدأت بالسفر إلى قاهرة المعز مرارا
، والتحرى عن الأماكن الأثرية والتجارية التى يعتاد السياح
إرتيادها ، وتمكنت من التعرف على بعض البازارات وتجار التحف
والأنتيكات ، المنتشرين فى وسط البلد ، وفى أجوار الأزهر وخاصة
منطقة خان الخليلى ..

وكنت أجوب بلدتى ، والبلاد المجاورة .. بحثا عن العملات
والقطع القديمة " التى لا تقع تحت بند الآثار " ، وإستعنت بمعارفى
ومعارف أصدقائى فى ذلك ، وأذكرأنى قد تمكنت فى أول " طلعة "
من تجميع الكثير من العملات القديمة ، التى ترجع إلى عهود
الستينات وبداية الثمانينات ، ولا أخفيكم خبرا كم كانت صفقتى
الأولى خاسرة وفاشلة إلى أبعد حد ، إذ جنيت بعد جهد طويل من
المرور على متاجر التحف .. بضع جنيهات فقط ، نفحنى إياها تاجر
مسن يديرا بازارا عتيقا فى شارع طلعت حرب " من باب الشفقة " ،
فقد رفض معظم التجار شراء عملاتى ، بدعوى أنها عديمة القيمة ..



وكعادة أى بداية .. لا تقابلك إلا العثرات التى تجهلها ولا تعرف عنها شيئاً ، ولا تدري محطاتها ، أصابنى بعض من اليأس ، إلا أننى لم أدعه يتملك منى ، وكان ذاك أول درس أتعلمه ، كان يتحتم على معرفة كيفية إنتخاب العملات والقطع ذات القيمة من دونها ..

وفى هذا الصدد طفقت أسأل أهل الخبرة ، ومن هم فى إحتكاك مباشر ويومى بتلك التجارة .. وبدأت بتثقيف نفسى حول العملات القديمة ، وتاريخها ، وكيفية تحديد قيمتها ، وطرق تداولها ، أردت أن أجعلها خطوتى الأولى ، وكان لذلك أسباب عدة ، فالعملات من بين الأشياء القديمة .. تتميز بعدة ميزات ، يمكنك تحديد قيمتها بسهولة ، ولا تتعلق بخامة العملة .. فهى إما فضية أو ذهبية أو ورقية فقط لا غير ، كما أنها سهلة التداول إذ أن لها سوقا واسعا ، فما من متجر أو بازار إلا وبه قسم للعملات

وعلى عكس التحف والأنتيكات .. فقماشتها رحيبة للغاية ، تختلف مثلا حسب المادة فمنها الورق والخشب والحديد والنحاس والفضة والذهب والحجر والزجاج ... إلى آخره ، ويمكن تنفيذ كل خامة إلى أنواع كثيرة ، كما أن متاجرها مختلفة ، فمن يعمل فى الصور الورقية والتابلوهات والوثائق ، لا يعمل فى المعادن مثلا ، حتى المعادن نفسها لا تتجمع كلها لدى تاجر واحد ، كما أن قيمة القطعة تتوقف على تاريخها ، والحدث الذى إرتبطت به .. إن وجد ، والمكان الذى أقتنيت به ، والشخص الذى إقتناها ... وغيرها من المعوقات التى قد تنتصب قبالة أى مبتدئ ، لذا كانت العملات كبداية .. إختيار موفق شيئا ما ..

وبالسؤال عن كيفية تحديد قيمة العملات .. قيل لى أن كل العملات التى يعود زمن تداولها بعد ثورة يوليو .. ليس لها قيمة إلا قيمتها ،

فالجنه بجنيه ، والعشرة بعشرة ، وذلك فى البنك المركزى فقط ،
وبعيدا عن البازارات ومحلات تجارة العملة ..
وعلمت أيضا أن العملات تتحدد قيمتها على حسب الأزمنة ذات
الأحداث الفارقة ، وشديدة الأهمية التى كانت يتم تداولها فيها ،
فمثلا العملات التى إنتشرت فى أونة الثورات لها قيمة عظمى ،
خاصة إذا ما واكبها تغيير مسمى النظام الحاكم ، من ملكية إلى
جمهورية مثلا ، وذلك مع كل العملات المنتمية لسائر دول العالم ،
وياحبذا لو كانت العملة تنتمى إلى العصور القديمة " فيما لا يمكن
إعتبارها قطعة أثرية " ، وذلك أيضا يتحدد حسب عرف الدولة
وتاريخها ..

وفى مصر .. فإن العملات التى يمكن إعتبارها ذات قيمة .. هى التى
إستعملت فى عهود الملكية " فيما قبل ثورة يوليو والجمهورية " ، كما
أن العملات المصرح بتداولها .. هى التى تعود إلى عهد المماليك
وحتى العصر الحالى ، وتلك كانت أولى خبراتى فى طريقى الجديد ،
وعليها عرفت كيف أتصيد العملات الثمينة ..

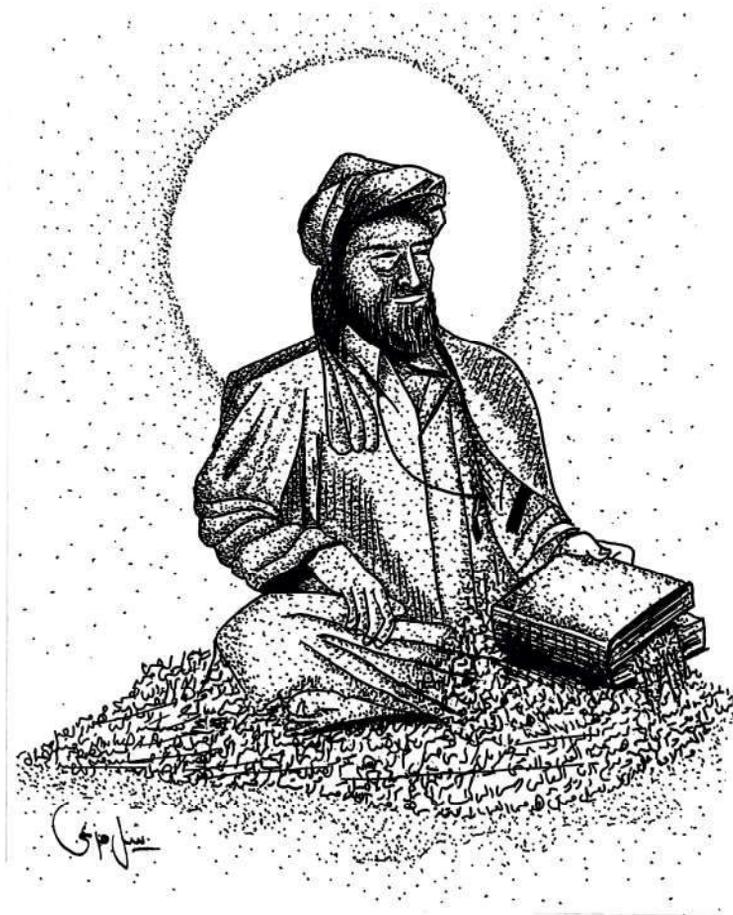
ولا يمكن أن نتحدث عن العملات القديمة .. دون أن نصطدم بـ "
الجنه أبو جملين " ، العملة الورقية الأشهر والنادرة من بين العملات
المصرية القديمة ، ولكم يتهافت عليها التجار على نحو مستفز ،
وخاصة إذا كانت العملة بحالة جيدة ، ولقد صدرت تلك العملة فى
شكلىن .. تتصدر كل منها مشهد ريفى وثمة جملين " أحدهما واقف

والآخر جالس " ..

أما عن خلفية الجنيه فهي التي تحدد قيمته ، فأحدهما يباع بمليون ونصف وهو الذى تحمل خلفيته " الصمدية " سورة الإخلاص ، وهو غاية فى الندرة ، ولا يتوافر فى الأسواق ، فقد تم سحب معظمه إما عن طريق الدولة أو عن طريق التجار ، أما العملة الثانية فتقدر بمبلغ سبعين ألف جنيه .. وهى التي تحمل خلفيتها رقم " واحد " بالإضافة لبعض الزخارف ..

ولهذه العملات أرقام سرية معروفة .. ومدرجة لدى كل تجار العملة ، لذا يصعب التلاعب بها أو تزويرها ، ورغم ذلك لا يخلى السوق من المزورين ، والعملات " المضروبة " ..

وعندما سألت عن علة قيمته المرتفعة ، قيل لى أن لد " جنيه أبو جملين " قصة مثيرة .. حدثت عام ١٨٩٨ م تقريبا ، فلقد أصدر المصرف المركزى عملة ورقية جديدة " فئة الجنيه " ، تتصدر خلفيته " الصمدية " ، وتم ضخها للتداول فى الأسواق ، فما كان من الكنيسة والأزهر أنها إلا أنهما إعترضا فى آن .. على طباعة سورة من القرآن على عملة مصرية ، وكان لكل منهما أسبابه ، فلقد أثار الشيخ محمد عبده الأمر ، وجعله يموج فى ساحات الأزهر ، ويعتمل بين رموزه ، قال إن ذاك الإجراء فيه إهانة للقرآن ، وإستهزاء بآيه الكريم ، كما أن للقرآن قدسية خاصة ، ولا مجال لإستهلاكه بهذا الشكل المهين فى المعاملات المادية بين العامة ..



أما الكنيسة ، فلقد ثارت ثائرتها هي الأخرى ، بدعوى أن العملات هي رمز من رموز الدولة ، كعلم الدولة تماما ، ووضع أية قرآنية على ظاهر عملة مصرية .. يعنى ضمينا إلغاء تمثيل الديانة المسيحية بمصر ، وقيل حينها أن مصر ذات ديانتين .. ويجب تمثيلهما على السواء .. فما كان من المصرف المركزي .. إلا أن حاول جاهدا سحب كل

العملات الورقية " التي قام بضعها في الأسواق " ، فإستحال حدوث هذا ، فلقد إنتشرت العملة بين التجار والباعة والعامه والمصارف إلى آخره ..

فأصدر المصرف عملة جديدة بذات التصميم الأمامى " جملين يتخلفها مشهد ريفى " ، أما عن ظاهر العملة فقد حمل رقم " واحد " وبعض الزخارف ، مع كامل معرفة البنك بالأرقام المسلسلة للعملات الورقية .. التي أتحت سابقا للتداول بين العامة ، ويقال أن البنك المركزى فى محاولات لسحبها إلى الآن

وتلك القصة " التي لا أعرف مدى صحتها " .. هى التي سمعتها من تجار العملة القديمة " والساهرة " ، ومن أعجب ما نبا إلى مسامعى حول تلك العملة .. أن قال لى أحدهم ذات مرة

- تعرف إن الجنيه أبو جملين ده بيستخدموه المنقبين فى تطليع

الأثار .. أصله بيفك رصد الجن عن المقابر الفرعونية ..

إلا أنى لم أصدق تلك المعلومة لمدى سذاجتها ..

إلا أنه وبنهاية الحال .. كان يتحتم على البحث عنه .. فيما أبحث ، فالعثور على واحد منه .. يمثل صفقة مربحة ، وعلية فكان أول ما أتحرى عنه بين العامة والأهالى هو " الجنيه أبو جملين " ، والغريب أنى وجدت أن أكثرهم يعرف مدى أهميته ، بيد أنهم لا يعرفون قيمته ، وكان ذلك فى صالحى شيئاً ما ، إذ مكنتى من التنقل بحرية بين الأسعار التي قد أعرضها على من يحوزه ، دون أن يناطحنى

أحدهم ، أو يدعى أنه أدرى بقيمته منى ..
وأذكر أنه ذات مرة كنت أتجول في البلدة .. وبحوزتي بعض التحف
الصغيرة في حقيبة ، إذ قابلني أحد زملائي قائلاً ..
- وصلني خبر إن الحاج " صبحى س " عنده عملات قديمة
كثير جدا ، روح له ، يمكن تصادف عنده الجنيه أبو جملين ،
أو أى عملات تانية لها قيمة ، بس متسانيش في العمولة ..
وبالفعل أودعت حقيبة التحف عند زميلي ، وتوجهت رأساً إلى منزل
الرجل ..

لم تكن تربطني بالحاج " صبحى س " أية علاقة ، لذا لم أكن أعرف
طباعه ، ولم أستطع أن أتجهز جيداً للتعامل معه ، وعندما قابلته
وجدته من الذين لم يعرفوا في هذه الدنيا .. غير الأرض والبهائم ، "
فلاح أراى " ، وكعادة الفلاحين حمل الرجل خبثهم ومكرهم
الفطرى والعفوى ، فعندما سألته ..

- عندك عملات قديمة يا حاج صبحى ؟ ، لو عندك أنا مستعد

أشترىها كلها ..

- عندى كثير ..

أجابنى الرجل .. إلا أنه لم يجب على طلبى ، وبدأ أعراك الإستفزاز ..
دخل الرجل إلى جوف داره ، ثم خرج لى بالمضيقة .. يحمل " سرة "
قماشية مليئة بالعملات ، وظل يسفر لى عنها عملة عملة .. على نحو
ممل ورتيب ، ومع كل عملة يخرجها يقول ..

- تعرف دى إسمها إيه ؟ ..

ثم يمضى فى ثرثرة طويلة ، يقص لى كيف جلبها ، وكيف إحتفظ بها كل تلك الأعوام .. ولم يفرط بها ، رغم الإغراءات الجمدة لبيعها إلى آخره من الحديث عديم القيمة بالنسبة لى ، فلقد جئته للشراء ، لا لأتلقى محاضرة " طويلة عريضة " فى الحصافة والوفاء ..

أمضينا أكثر من ثلاث ساعات ، حتى لعنت زميلى ، ولعنت العملات ، ولعنت نفسى أنى طويت ذاك المسير إلى هذا الرجل الممل ، وبغته أبرز الرجل من سرته القماشية ورقة أخذت عينى ، إنه هو .. " الجنيه أبو جملين " ، قفز قلبى بشرا ووجلا فى آن ، وبحركة لا إرادية إنتزعتها من يده ، فتسللت من بين أصابعه كقطع حرير .. قلبت العملة على ظهرها .. فإذا بالصمدية تملأ عينى ، فقلت لتوى .

- هشتري منك دى .. بأى تمن تطلبه ..

فنظرنى يهزهز رأسه يمينا ويسار ..

- وهو حد قالك إنى عارضهم للبيع ؟! .. أنا بفرجك عليهم

بس ..

- يا حاج صبحى .. أنا مش عايزهم كلهم .. أنا عايز الجنيه ده

بس ..

فأجابنى بالرفض ..

- ولا حتى ده .. يا أخى قولتلك مش عايز أبيع حاجة .. إنت

شريكى ! ..

فحاولت أن أزيغ عينيه .. فقلت ..

- مش تعرف تمنها الأول .. وبعدين تشوف هتبيع ولا لأ ؟

فقال عابثا .. يحاول أن يعرف قيمة ما يحوز " رغم أنه لا يضمرونية
البيع " ..

- كام تمنها بعينه ؟ .. مت جنبه ؟ ..



- لأوانت الصادق .. ميت ألف جنيه .. إيه رأيك تبع ؟ ..
فردردا قاطعا ..

- ولا مليون جنيه ..

لم أر فى حياتى من هو أغبى منه ، مائة ألف جنيه فى محض ورقة ،
إحتقن وجهى بالغيظ ، وإنفجر الكمد فى أرجائى ، الجنيه أبو جملين
كان بيدى .. ولم أستطع أخذه ، وفكرت كثيرا ، لابد وأن أفعل شيئا
حيال ذلك ، ولكن ماذا أفعل ؟ ، أسرقه ؟ ، أقتل الرجل وأنتهبه ؟ ،
ظلت الأفكار تجول وتصول وترتع برأسى ، ولكن دون جدوى ،
فالرجل كان كالقلعة الحصينة ، وداره موصدة بعشرات الأبواب ،
وكأنه يعرف قيمة ما يحوز .

أهلكنى البحث والتحرى عن طريقة لسلب الورقة ، دون فائدة ،
العوائق بينى وبينها كثيرة ، والجبن يملكنى ، أخشى أن أوقع نفسى
فيها لا يحمد عقباه ، وهنا تذكرت أن بعض المبادئ يصعب إجراؤها
على أرض الواقع ، وجالت بخلدى تلك المقولة التى تقول .. " إن
سرق السارق وهو يتلفت فهو لا يصلح للسرقة .. إن أخذنا ما نريد
من الدنيا تحت قهر الخوف فلا يجب أن نأخذه .. فلو ملكنا العالم
بخوف .. فإننا مملوكون ولسنا مالكين " ، ما أجملها كلمات إلا أنها
تظل .. محض كلمات ..

إستسلمت بالنهاية ، وأرجأت الأمر لحين أتصيد فكرة لجلب العملة ،
وذهبت لزمبلى لأخذ حقيبتى أنتوى أن أمتعه سبا ولعنا " لأفش "

فيه غيظى وغيللى ..

ولم تكن تلك المرة الأولى التى أعثر فيها على الجنيه أبو جملين ، فقد
عثرت عليه ذات مرة مع رجل مسيحي ، ومازلت أتذكره جيدا ،
كان رجل قصير القامة كالأقزام ، عرضه يقارب طوله ، كانت الورقة
مدفوسة فى محفظة الطويلة ذات الثلاث طيات وكأنها " شيكارا
كيماوى " فارغة ، وتارة أخرى عثرت عليه بمحض الصدفة .. وأنا
جالس على المقهى ، كان أحدهم يطلعنا على عملة عراقية قديمة ،
فلمحت الجنيه راقدًا مفرودا فى محفظته الأسطوانية " المليئة بالجيوب
والطيات وكأنها دار بها غرف موصدة على سكانها " ..

وللحق كنت خائبا للغاية فى المساومة ، فبعد مجهود مضنى فى الإقناع
والمحايلة ، كنت أفضل وبإمتياز فى كل مرة ، لذا كنت دوما الرجل
الذى يعثر على الورقة الرابحة ، ولا يستطيع جلبها

وعدم قدرتى على جلب " الجنيه أبو جملين " ، لا يعنى بالجملة أنى لم
أبيع شيئا ، بالعكس فكم من العملات التى ربحت من بيعها
أضعاف أثمانها مرات ومرات ، بل وتقدمت سريعا فولجت عالم
التحف والأنتيكات ، وما أكثر ما عثرت عليه من القطع المسروقة من
القصور والمنشآت القديمة ذات الخلفية التاريخية ..

ف ذات مرة .. أخبرنى أحدهم أن لديه مجموعة من الأباريق والأطباق
الفضية المزخرفة ، إلا أنه رفض أن يعطيها لى لأبيعها .. قبل أن
يعرف ثمنها ، فقامت بتصويرها حتى أعرض صورها على التاجر ،

وبينما كنت أبحث على شبكة الإنترنت عن الأنتيكات وأثمان بيعها ،
لمحت بعض الصور لقطع مسروقة من قصر محمد على ، وكانت من
بينها ذات الأباريق والأطباق وأشياء أخرى ، فأبيت شراءها ..
وأذكر أنه ذات مرة جلب لى شاب من صعيد مصر " ذو هيئة أصيلة
.. زى الكتاب ما قال .. جلاب واسع ، وأكمام تبلع قطار الصعيد
بركابه ، وعمامة كعبة جامعة القاهرة " ، تمثال صغير لرأس جمال عبد
الناصر فى حجم كف اليد ، قال لى ..

- الراس دى كانت بتتحط على مكتب الرئيس جمال .. أبويا
إشتراه من تاجر فى السيدة زينب زمان ..

وذاك لشدة ولعهم بالرئيس جمال عبد الناصر ، وإلى الآن لا أصدق
أنى إبتعت تلك الرأس بخمسة جنيهات فقط !! ..
وعبر رحلتى تمكنت من حيازة الكثير والكثير من التحف ، وبيعها ،
منها ما تكهنت أنها مسروقة ، ومنها ما كانت مجلوبة من مقتنى تلك
القطع الثمينة ..

إبتعت ذات مرة تمثال خشبى قرابة المتر إرتفاعا ، وثلاثة أرباع المتر
عرضا .. لصقر فى وضع الإقلاع ، ومهما وصفت .. لا يمكن أن
أحصى مدى جمال وروعة الإبداع فى هذا التمثال ، لقد حفرت
خطوطه ونحتت بدقة متناهية ، ولون جسده بألوان طبيعية .. زادت
من واقعيته ، وكأنك أمام صقر حقيقى .. ولكن بحجم خرافى ..

ومرة أخرى .. حصلت على مجموعة قطع صغيرة ، عبارة عن مكحلة ومبخرة ومرآة ، ومجموعة أمشاط من العاج الطبيعي وعصا أبنوسية ، وجاءني أحدهم أيضا بمجموعة سيوف حديدية مزخرفة على الطراز الإسلامى الفاطمى ، كما حصلت أيضا على فونوغراف وإسطوانات ، يعود للقرن التاسع عشر ، وغيرها من الثمائن التى جاءتنى أو بحثت عنها ، وما أبخس الأسعار التى بيعت بها تحف كتلك .. فقد كنت بائع خائب للغاية ..

ومن أكثر ما أثار ضحكى .. أن أحد الفلاحين جاءنى ذات مرة بـ " بابور نفاس " وأراد بيعه ، كان قديم للغاية .. يقدر عمره بأكثر من ثلاثة مائة عام ، إلا أنه بالنهاية " وابور " ، فرفضت شراءه ، إلا أن الرجل ظل يلح ، ويستدر عطفى ، ويبدى أنه فى حاجة ماسة إلى ثمنه ، فإشتريته بعشرة جنيهاً ، وكانت المفاجأة .. أننى حينما أخذته معى لخان الخليلى " لأحد تجار الفضيّات والنحاسيات " ، إشتراه بمبلغ ألف جنيه لمدى قدمه ، وقال لى ..

- السياح ييموتوا فى النوع ده من الأنتيكة .. لو عندك حاجة تانية .. أنا على إستعداد أشتريها .. مهما كان عددها ، أو تمنها والغريب أنه فى رحلة بحثى عن قطع ماثلة ، جاءنى رجل طاعن فى السن بتلفاز خشبى قديم ، وكان ضخّم للغاية ، وله ضلّفتين يتم إفرادهما وطيهما كالباب تماما ، وقال لى ..

- التليفزيونات القديمة دى بيبقى فيها الزبيق الأحمر .. اللى

بيأكلوه للجن عشان يطلعوا بيه الأثار الفرعونية

ولا أخفيكم كم أثارت عباراته هزئى وسخريتى ، إلا أنى تلطفت بالرجل لكبر سنه ، فأعطيته خمسين جنيها ولم آخذ هذا الدولار الذى كان يتكلم يوما ما ، ولكم ضربنى الكمد .. عندما طلب منى أحد التجار أن أجمع له أجهزة التلفاز التى لها نفس المواصفات ، وأنه سيأخذها بأية ثمن ، وعندما ذهبت للرجل قيل لى ..

- الحاج رماه فى الترة قبل ما يموت ..

وعلمت أن ذاك كان بعد لقائى بخمسة عشر يوما .

رن هاتفى فى صبيحة يوم ما ، وكان أحد أصدقائى ، يخبرنى بأنه تعرف على رجل لديه المئات من الصكوك الإسلامية القديمة ، وأن هذا الرجل يقطن عند أطراف البلدة ، ويتظرنا أن نزوره بعد الغروب ..

وفى الميعاد ذهبنا للرجل ، فقام بضيافتنا بأطباق من أجود ما تنتج مزارعه من العنب والتفاح ، ثم مضى إلى جوف داره ، وخرج بعد قليل بصحبة ثلاثة من أولاده .. يحملون أكياسا كبيرة من الخيش ، ووضعوها أمامنا ، كانت مليئة كلها بعملات إسلامية قديمة تحمل كلمات وجمل مثال " الله " ، " محمد " ، " لا إله إلا الله " ، " محمد رسول الله " ، وبعض من أسماء الله الحسنى ، قال لنا ..

- دول عشر تلاف صك إسلامى .. لقيتهم مدفونين فى الأرض

وإحنا بنحرتها .. ياريت تجيبولى فيهم سعر كويس ..

وعمولتكم محفوظة ..

إلا أنه وكالعادة رفض تسليمنا القطع لبيعها ، فإقترحنا عليه أن نأخذ عينات مختلفة منها لعرضها على التاجر .. ليحدد قيمتها ، فوافق الرجل ..

وظفقت أنا وزميلي نقلب في الأكياس يمينا ويسارا ، حتى جمعنا قرابة الثلاثين قطعة ، ووضعتها في حقيبة يد صغيرة ، وشرعت أتحدث مع الرجل ..

- طب إيه اللي في دماغك يا حاج ؟ عايز تبعهم بكام ؟

وبغته .. فزعت على صوت زميلي يصرخ ممسكا ببطنه ، إلتفت إليه .. كانت بقايا عنقود عنب مازالت بيده ، ومع شدة صراخه ، أعد الرجل كوب ماء بملاح وأعطاه له ليشربه ، ثم طلب سيارة الإسعاف ، وعندما سألته ..

- هو إيه اللي حصل له ؟ ..

فأجابني ببرود ..

- العملات كلها مسمومة .. زمان كانوا بيعطوا سم عليها

عشان الحرامية يخافوا يقربوها ، ولو إتسرقت يموت الحرامي

بالسم ، متخافش دى مش أول مرة ، عربية الإسعاف بقت

عارفة الطريق ، جت قبل كدة خمس مرات ، بس لازم نلحقه

لأن السم ده خطير جدا .. ممكن يموت فى أقل من ساعة زمن

شعرت وكأنى فى كابوس سخيف ، هرعت إلى " طلمبة مياه "

وغسلت يدي وجلبت ماء لأغسل يدي زميلي .. الذى كان يتأوه
ويصرخ بحرقه .. من الألم الشديد الذى يعرض فى أحشائه ، وجاءت
السيارة بعد زهاء العشرة دقائق ، وقضينا ليلتنا فى المستشفى العام
بالمدينة ..

إلا أن ما حدث .. لم يمنعنى من الإستمرار فى البحث والتحرى ،
ولكن بت أكثر حرصا ، وكعادتى .. جمعت أكبر قدر من العملات ،
وبعض الأنتيكات ، وتوجهت إلى القاهرة كما إعتدت فى نهاية كل
شهر ..

ولكن تلك المرة كانت مختلفة عن كل المرات ، فالساحات الخارجية
لأجوار الأزهر وخان الخليلي .. كانت مرشقة بأفراد الأمن من
شرطة السياحة ، كانوا منتشرين فى كل مكان ، ويحيطون بالمساجد من
كل الجهات ، وتتصدر قواتهم شارع الخان أوله وآخره ، وذلك أنه منذ
زهاء الأسبوعين .. قام أحد الشباب بعملية إنتحارية بالمكان ..
وفجر نفسه " بما عرف بتفجيرات الأزهر " الشهيرة ، إلا أنى كنت
مغيبا عما يحدث فى البلد .. تغييا كاملا " بقرار ذاتى " ، فلقد مللت
الأخبار .. وتبعاتها الإكتئابية ، فقررت العزوف عن متابعة أية
أحداث تدور فى البلد ، أو خارجها ..

بمجرد أن ولجت إلى الساحة الفسيحة " قبالة شارع خان الخليلي " ،
بوغت بأفراد الأمن كالجراد المنتشر ..

ولسوء طالعى .. كانت هيئتي فى تلك المرة رثة ، لا تنم عن هيئة



نبيل مرعي

مواطن محترم ، فلقد إرتديت على غير عادتي " أزيل " ما عندي من أردية ، في عجالة وعدم إكتراث ..
إذ تدرت ببنطال ضيق وقصير " أشبه ببنطال فؤاد المهندس في مسرحية أنا وهى " ، وثمة قميص مزركش وواسع للغاية ، وإمططيت في قدمي " شبشب بصوبع !! " ومن أردأ الأنواع .
ولا أدري كيف حدث هذا .. إلا أنه بالنهاية قد حدث ، ربما لأنى

إستيقظت اليوم متأخرا ، وكان لابد من التعجل لألحق بقطار السابعة ، وعلى غير عادتي أيضا حملت ما جنيت من عملات وقطع فى " كيس بلاستيكى أسود " وليس حقيبة ككل مرة ..

لذا بدت هيئتى مرعبة فى مثل تلك الأحداث ، وذلك المكان على وجه الخصوص ، لذا شعرت أنه يتوجب على أن أتخاشى رجال الأمن قدر الإمكان ، فلو مرت نملة هنا يرتاب بها ، لأوقفوها عنوة ، مهما توارت أو تخفت ..

وحدث ما خشيت وقوعه ، فلقد إستوقفنى أحدهم ، بوغت بأحد الأمانء يقبض على ساعدى ، ويسألنى ..

- رايح فين ..

فقلت وجلا ..

- أنا جاي الخان أبيع شوية أنتيكات .. فيه تاجر جوة بتعامل

معاه .. الأستاذ " م أ " ..

رمق أمين الشرطة الكيس الأسود فى يدى ، فقال ..

- والكيس ده فيه إيه ؟ ..

- ولا حاجة حضرتك .. دى شوية أنتيكات وعملات قديمة ..

فأخذ الكيس من يدى فى فجاجة لم أستطع ردها .. ومضى يتفحص القطع ويقلبها ، إلتقط تمثال صغير لمحمد على كلاى ، وأشهره فى وجهى ..

- أه .. أثار !! .. إنت بتاجر فى الأثار ؟ .. يومك مش معدى .

فنظرت إليه أشير إلى التمثال ..

- أثار إيه ياباشا؟! .. ده محمد على كلاى ..

- مش تمثال؟ .. يبقى أثار ..

فتشبثت قدمای بالأرض برفق .. وهو يجذب ساعدى ..

- ياباشا ده مش تمثال فرعونى .. محمد على كلاى ده لاعب

ملاكمة ..

فأحکم قبضته ..

- طب تعال معايا للباشا .. وهو يشوف دى أثار ولا لأ ..

فأمسكت بيده .. وحررت راحته عن ساعدى بلطف ..

- طب براحة .. أنا جاى معاك لوحدى .. والكيس كله فى

إيدك أهوه ..

إلا أن العناد الغبى .. له قيلة ومقام ، أمسك بساعدى مرة أخرى ،

وظل يجذبني مترجلا بخطو سريع ، إلى أن وصلنا إلى مقهى سياحى

على أحد الجوانب فى مقدمة الخان ، وزجنى بيده فى صدرى ..

- أوقف هنا ..

ثم إرتقى بضع سلام ، ووقف أمام منضدة يجلس عليها رجل ..

وثمة " شيشة " أمامه .. سمعته يقول ..

- تمام ياباشا ، لقينا الواد ماشى جنب الخان .. ومعاه الكيس ده

.. شوف سعادتك شايل إيه ..

وأفرد القطع والعملات أمام الضابط ، فقبض الثانى على نفس

التمثال قائلاً ..

- هاتمولى ..

فهبط الأمين .. وأمسك بذراعى ..

- تعال كلم الباشا ..

فتدمرت من نهجه معى .. وإنترعت ذراعى ..

- براحة .. أنا جاى معاك ..

وسألنى الضابط .. ويده تتلاعب بالتمثال ..

- إنت جبت الحتة دى منين يالا ؟ ..

- ياباشا أنا بتاجر فيهم .. ده تمثال محمد على كلاى ..

- ما إنت ناصح أهو .. ومتعرفش إن دى أثار ؟ ..

قلت فى نفسى .. " ما هذا اليوم الأحلك ؟ كيف أفهم هؤلاء الأغبياء .. ؟

- أثار إزاي بس ياباشا .. ده بقاله أقل من خمسين سنة ..

والأثار عمرها آلاف السنين ..

- إنت منين يالا وشغال إيه ؟ ..

- أنا طالب فى كلية الهندسة .. ومن السادات منوفية

قلب الرجل فى الكيس يقول ..

- ماهو أكيد معاك حاجة أثرية .. أمال يعنى هتهز طولك

وتيجى لحد هنا عشان شوية الشخايل دول ..

- والله العظيم كلها حاجات عادية .. إبعث معايا حضرتك أى

حد من الأمن لأى تاجر هنا .. هيقوله نفس الكلام ..

فأشار لى ببنانه متعاليا ..

- طب إركن شوية على جنب .. لما نشوف حكايتك إيه ..

وسكت لبرهة .. ثم نظر إلى الأمين ..

- خده لمحمد بيه .. شوف هيتصرف معاه إزاي .. لما نشوف

معاه أثار ولا لأ ..

كدت أصرخ من أعماق أعماقي .. من أين أتى هؤلاء البلهاء ؟

وتقاذفونى من ضابط إلى ضابط إلى آخر ، وذات العبارات السازجة

تتكرر ، حتى تمنيت الإنتحار ، أو تنخسف بى الأرض

بالنهاية أدخلنى أحدهم إلى غرفة كبيرة .. تتوسطها منضدة طويلة ،

يلتف حولها أكثر من عشرة ضباط من القيادات العليا ، حتى شعرت

وكأننى جاسوس قد سرب معلومات خطيرة للعدو ..

قلت فى نفسى " لابد وأن هؤلاء القادة سيتبينون الأمر .. فهم ذوى

خبرة .. ليسوا كهؤلاء صغار السن " ..

وكانت صدمتى الأكبر، إنهم يكررون نفس العبارات .. يقولون أن

تمثال محمد على تمثال أثرى ، وأن القرش والمليم والنكلة والمشرشر ..

عملات فرعونية ، أين أنا ؟ ، أهذه مصر ؟ ، تمنيت لو قبض على فى

بلد أجنبى ، بالطبع كانوا سيعرفون صاحب التمثال ، وأن العملات

لا تعدو الثمانين عاما ..

وبعد تحقيق طويل ، تحفظوا على الكيس بما حوى ، وأمر أحدهم

عسكري أن يجرى لي محضر تجول .. فأصيبتني ريبة وخوف شديد ،
ففى مثل هذه الظروف .. فإن محضر التجول يعنى الكثير ، قد أجد
نفسى بين يوم وليلة ممن يشته بهم فى تفجيرات الأزهر ، إلا أن
العسكري الذى إصطحبني طمأننى

- متخافش .. ده مجرد إجراء روتينى ، ملوش قيمة ..

هكذا قال ..

تم تحرير المحضر ، وأوقفنى العسكري بزاوية الحجرة .. لحين صدور
أوامر بشأنى ، وإنتصب هو أمام الغرفة حتى لا أهرب ..
ولا يخفى عليكم كم كنت قلقا للغاية ، أقول مريجا .. " وماذا بعد ؟ ،
هل إنتهى الأمر عند هذا الحد ؟ .. أم ثمة ما هو أسوأ ؟
كان العسكري يخلتس النظر نحوى ، ولما لاحظ ما تبدى من قلقى
وذعرى ، إقترب يحدثنى ..

- إنت مين ؟ ..

- من مدينة السادات منوفية ..

- منين بالظبط ؟ .. من السادات نفسها ؟ ..

- أنا من قرية تبعها إسمها " كفر داود " .. ما أظنش تعرفها ..

- معقولة !! .. معرفهاش إزاي .. أنا من الزاوية .. من جماعة

مين فى كفر داود ؟ ..

- من عيلة مرعى .. تعرفهم ؟ ..

- ده إحنا مناسينهم ..

- طب قولى أعمل إيه فى الورطة دى ؟ ..
- إنت إيه بس اللى حدفك هنا ، إنت مش عارف ظروف البلد؟
- أهو .. حظى المقنديل بقا هو اللى ساقنى لحد هنا .. هو إيه ؟ .. مفيش تصرفه ..
- لأ إزاي كل حاجة وليها حل .. إستنى شوية .. وأنا هتصرف ثم سكت لدقائق ، بعدها جذبنى من ساعدى .. وتحرك بى إلى ممر ضيق فى جوار الغرفة ، قائلًا ..
- إنت تاخذ الممر ده لحد آخره .. هيخرجك من هنا خالص ..
- تركب رمسيس وتروح .. ومشوفش خلقتك هنا خالص ..
- طب والكيس .. دى حاجة ناس ..
- كيس إيه .. وهباب إيه دلوقتى .. يالا روح على بلدكو بسرعة وزجنى بعنف إلى داخل الممر .. فظلمت أركض وأركض .. حتى كنت عند حافته الأخرى ، فأشرت إلى تاكسى ليوصلنى إلى محطة رمسيس ، وهناك .. إستقلت القطار نافرا إلى بلدى ، وأقسمت ألا أمتهن تلك المهنة أبدا ، وقد فعلت ..
- ورغم أن محضر التجول ظل فى خلدى .. يقلقنى من تارة لأخرى ، إلا أن الأمور مرت بسلام ، فلقد أصدرت وزارة الداخلية بيانا .. تقول فيه بأنه تم معرفة منفذ العملية الإرهابية والجماعة المتمى إليها .

الْحُضُورُ وَالْغِيَابُ



الحضور والغياب

وجدت بين أوراقى القديمة " وأنا أقلبها أثناء التحضير لهذا الكتاب " ، ورقة تحمل فقرة كنت قد كتبتها قبل سنوات .. نقلا عن مجلة أو كتاب لا أتذكر إسمه على وجه التحديد ، بيد أن الفقرة إستحوذت على إنتفاتي وإنتباهى ، وأثارت داخلى صراع قديم حديث .. صراع مستمر إلى الآن ، تقول الفقرة .

" قبل نهاية الألفية الأولى للميلاد ، إكتسحت أوروبا موجة من التدين والرعب ما عرفتها أبدا من قبل ، إمتلأت الكنائس بالضارعين ، وإنتشر البكاء فى الشيوخ والشباب على السواء ، توقفت أيدي المجرمين واللصوص ، وإرتفعت مبتهلة إلى الله ، تطلب الغفران ، وأمضى القساوسة ليلهم والنهار بالصلوات ، وركض المدينون إلى الدائنين يسددون ديونهم ، وتزاحمت صفوف الخاطئين على كراسى الإعراف ، وهرول العاقون إلى آبائهم ليكون .. جيلا ملائكيا تحول البشر ، إختفت كل الشياطين فى جحورها ، فالدنيا جنة من الخير ..

لقد شاع فى الناس أن العالم سينتهى سنة ١٠٠٠ م ، وأن القيامة قائمة بعده ، أيها الرب غفرانك !! ..

ومضت الليلة الأولى من العام ١٠٠١ م ، ثم الثانية والثالثة ، ثم العشرون والثلاثون ، وإنخفضت حدة التوتر الدينى ، حتى إذا

مضت أشهر .. نسى الجميع نهاية العالم والقيامة ، وعاد الناس كما كانوا من قبل بشرا من البشر . " ..
تقافزت بغتة من رأسى كل الهموم والموجعات القديمة ، الحاضرة المنسية ..

الحياة ، الموت ، الإستمرار ، القيامة ، الميزان ، الخلود ... إلى آخره
ولا أعرف هل كانت ذات الهموم ترتع بأدمغة بقية الناس ، أم سحقتهم عجلة الأحداث المتسارعة المكروبة ..
فى إعتقادی أنها القضايا الأهم والأساسية التى تحكم هذه الأرض ، إن لم يكن الكون برمته ، ولا أعرف على وجه التحديد ، كيف يتناسى الناس أمورا مقلقة مثل تلك ؟ ..

كيف يهنا لهم العيش ووراءهم الموت ، ويلاحقهم الميزان ؟ ..
وكيف يتبطرقون فى زهو وفخر بمنجزاتهم .. ولا خلود فيها ؟ كنت ولوقت قريب أرتعب من فكرة الموت والزوال ، تثبط همتى .. وتجبث أى تحرك مثمر ، خاصة وأنى لم أتزوج .. وليس لى أبناء ، ومما يثير الضحك أن ثمة محيرات تنبو فى رأسى من نوع ، لمن سأترك كتبى ، أرديتى .. حذائى المتواضع ..

كنت مدفوعا بفكرة الحضور والغياب ..
كيف بعد أن أكون ملئ الأسماع والأبصار .. سأتحول إلى رفات ثم إلى تراب ؟ .. إذن ما قيمة هذه الحياة البائدة مقدما ؟! .. ما جدواها ؟! .. وما الخير فيها ؟ ..

ولا شك عندى أن أسئلة مثل تلك تراود الجميع ، وتصيهم ببعض من الإكتئاب أحيانا ..

كثيرا ما كنت أشعر بأن ساعتى قد حانت .. وأن ملك الموت على الأبواب ، فأقول " ماذا أعددت للقبر وللقيامة ؟ .. ماذا أعددت للقاء الله ؟ " ..

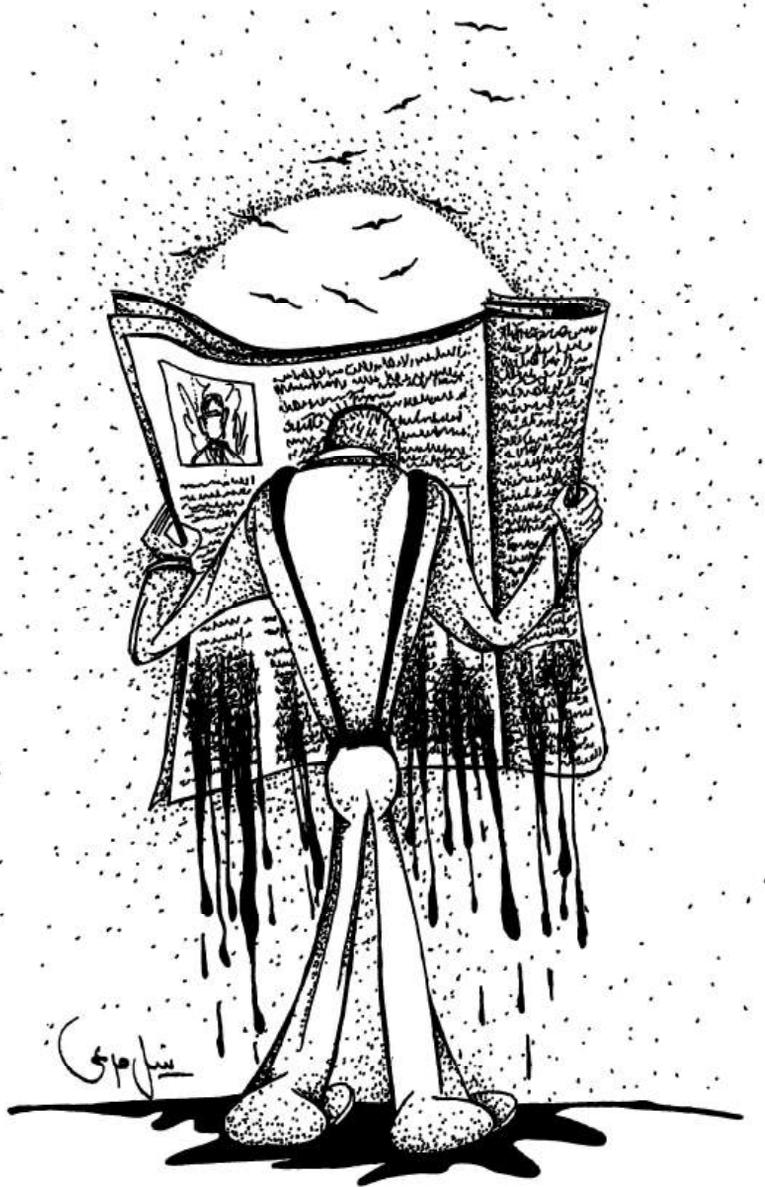
وتموج فى عينى الرحلة الأخرى ، من باب الدنيا إلى باب الآخرة من زائل إلى باق ، أو هكذا ما أعرف ..

وما أصعب أن تلقن شيئا لا تراه عينك ، ولا تسمعه أذنك .. كالواقف على أسوار المجهول .. لا يرى إلا حجارة .. ويمنى بأشياء .. لا يتخيلها حتى ..

ويُرهب بأشياء أخرى ، ما تنفك مشاهدها الموصوفة أن تغادر العين والسمع .. حتى تبرد نارها ، ويفتر الإرتهاب منها ، كحكاوى الأساطير، ما تنفك أن تبرح رحاب سردها .. حتى تبخر الوحوش وتخبو ، وتتصاغر إلى أن تزول ..

أوقات تراودنى هزات عنيفة ، تزلزل كل معتقد .. وتزيح كل راسخ فأشعر وكأنى فى مدينة الدجالين والعرافين .. لا أعرف من أتبع ومن أخلى ..

من منهم يكذب ، ومن معه الحقيقة .. إلى أن تأتىنى هتافات المآذن ، لقد مات أحدهم .. وتلك هى الحقيقة التى لا ريب فيها .. الموت ..



رأيتهم يموتون ، خبا صوتهم فلم أعد أسمعه ، وسكن حراكهم فلم
أعد أستشعره ..

وكذا الحياة حقيقة .. فلقد رأيتهم وسمعتهم ، وإستشعرت إعتماهم .
لقد قرأت كثيرا عن الحياة والموت ..

إلا أن ملئ ما قرأت من كتب .. لم يفض ذلك العراك المحموم في
عمقى ، بل أحيانا كانت المعلومات التى تفد إلى عقلى .. تنشب نيران
الشك والريبة فى وشائجى ، وتثير مزيدا من أسئلة دون إجابات ، أو
قل ذات إجابات صارخة .. متبجحة ! ..

كأن تخبيني بكل صراحة فجأة .. لقد خلقت لتموت ، وستبعث
لتحاسب ، أنت ماض بين إختبار ونتيجته ..

فيطن فى أعماق أعماقى صوت .. وحراك يوخذ كالإبر ..
ولم الإختبار فى الأصل ؟ ..

لما لم تكن الحياة حياة .. والموت موت ..

محض حياة .. ومحض موت .. إن كان لابد من تداول وإختلاف
كالليل والنهار .. فهذا محض نهار .. وذاك محض ليل .. لا أكثر ولا
أقل ..

وهى أيضا آيات للتفكر والإعتبار ..

فما من ليل يدوم .. وما من نهار يدوم ..

وتضربنى وخذة أخرى ..

لم الروح والنفس ، والجسد والجسم والبدن ؟ ..

لم الأباليس والشياطين ، والعفاريت والجن ؟ ..
 لم الوجود والعدم ؟ ..
 لم الماضي والحاضر والآتى ؟ ..
 لم الحاضر والغائب ؟ ..
 لم كل شئ .. ولا شئ ؟ ..
 لم خلقنا لنصب وكد وسعى ، وإبتلاء وإختبار ؟ ..
 لم أقل نعيشها فى رغد مرفهين ، ولكن لم لم نجبل للعيش ، والعيش فقط ؟ ..
 لم الثواب والعقاب ؟ ..
 سألتنى أختى ذات مرة ، أن إبتها " ذات الإثنى عشر عاما " تسألها على الدوام ..
 - إيه الأكبر الجنة ولا النار ؟ ..
 إستوقفنى السؤال للحظات ..
 قلت فى نفسى .. " صحيح .. الجنة أكبر حجما أم النار ؟!! " ..
 كان سؤالها ملهما يحتاج إلى بعض من التفكير والتأنى ..
 ثم أردفت أختى ..
 - بالتأكيد النار أكبر .. لأن كل الناس هيدخلوها ، أما الجنة مش هيدخلها غير المؤمنين ..
 صمت لبرهة ، ثم قلت ..
 - بالعكس ، فى رأيي الجنة أكبر ، لأنه مهما كان عدد المذنبين ..

فرحة ربنا وسعت كل شيء ، ومفيش - شك إن ربنا جهز
جنان .. تكفى كل اللي هتنولهم رحمته ..
إلا أنى ورغم ثقتى بإجابتى .. لم يكن لدى خبر قاطع بأيهما أكبر
حجما ..
لم يكن السؤال فى حد ذاته هو القضية ، وإنما ما جال بعمقى من
إستفهامات ..

ماذا أعد الله لنا قبل أن يخلقنا ؟ جنانا عظام ، أم نيرانا سحيقة ؟
ما هو الإستعداد قبل الخلق ؟ أخلقنا لنعاقب أم لنجازى خيرا ؟
ولا أعرف هل من البلاهة أن أعتقد أن حجم النار أو اللجنة هو ما
يحدد الحكمة من خلقنا ، فى الواقع كنت أجهل من أن أفطن للحقيقة
، وأعتقد أن كثيرين جهلاء ، يشاطروننى ذات الدرب
ولكن هب أنى أصبت قصيد الأمر ، وأضف إلى هذا أن الله هو من
سطر ألواحنا ، وأعلم بما فعل أسلافنا .. وما نفعل .. وما سنفعل ،
فهل فى الأمر من قصد وعمد؟! ..
وما الحكمة فى ذلك أيضا ؟ ..

وأرجو ألا تتهموننى بالخبال والشطط ، فأنا فقط أبحث ، ومازلت
أجزم أن جميعنا مهما كان منا " الحقيقير والعظيم " ، لو عاد أدراجه عدة
سنوات وربما شهور أو أيام ، لوجد أن تلك الأسئلة مدفونة فى مخازن
ذاكرته .. كانت تموج فى رأسه يوما ما ..
فلو كان جرما .. فلا منا من هو منزه عنه .

وبينما أقف عند حافة الرحلة .. تلفحني نسيمات الغروب الباردة ..
وتتواتر في أذني هتافات ، المآذن تتلاقف صيحات الأذان ، فأتذكر
قيلة الله ملك الملوك ، والناس وقوف لا يخفى عليه منهم شيء .. لمن
الملك اليوم .. لله الواحد القهار ..
ما أروع تلك القيلة .. وما أقساها على نفوس تكبرت ونازعت الله
في ملكه ..

لكم تؤثرني تلك العبارة ، وترعبنى في آن ، تشعرني وكأنى بت في
كل روح إنتصبت في أرض الميعاد ، وقد قيل لى بصوت يصم الأذان
.. دع ما ظننت أنك مالكة ، آن الأوان أن تفق من غفلتك ، فلا ملك
اليوم إلا الله ، راسم الأفلاك وجابل الأكوان ، وحاكمها ومسيرها ..
وما بين الطمأنينة والإرتعاب .. تموج نفسى ، وتوغل في شىء طويل
..

فتتناوح في أذني آيات الله .. القوى الحليم الرحيم اللطيف .. الخبير
العليم ، يقول سبحانه ..

{ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } ..
{ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ
السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا } ..

{ فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } ..
{ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ
أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ } ..

{ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ } ..
{ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ
الْوَّاحِدِ الْقَهَّارِ } ..

صدق الله العلي العظيم ..

ما ترك من خفى إلا وأجله ، وما من جلى إلا وساق له الآيات ترعاه

، وما من حضور إلا وأجلى الغياب إياه ..

وكما قال شيخنا الجليل .. " الشيخ الشعراوي " ..

" قف يا عقل عند انتهاك .. فذاك جاء في ذاك .. "



ذو سُلطان



ذو سلطان

رأيت ذات مرة أسدان ضخام لدرجة مريية ، تتبدى من خطوط أساريهما وتقسيم أجسادهما المنحوتة بعناية الشراسة والغلظة ، وكأنهما أسدان بقصر ملك من ملوك الرومان أو لفرعون من الفراعين ، كان الأسدان يتناوبان الدوران حول بعضهما في نوبة حراسة أمام شارعنا الصغير " الذى لا يتعدى عرضه المتران والنصف ولا يزيد طوله عن العشرين مترا " ، وكان بيتنا هو آخر هذا الشارع المسدود من جانبنا ..

كنت أنها أدور بسطح البيت خائفا ، أرمق الأسدان خلصة حتى لا يرانى ، لم أجد مسلكا لأهرب منهم ، وأذكر أنها ظلا على حالتيهما إلى أن رأيتى ، فهجعوا إلى دهليز البيت ليفتكان بى ..

قمت من نومى مفزوعا ، يختلج قلبى بقوة .. ويعلو صدرى ويهبط فى تسارع مكروب ، كان أحد الكوايس المزعجة التى ظلت تضربنى فى بادئ طور العشرين ، لأسود شرسة ولأكثر من سبع سنوات ، كانت الأسود تأتىنى كل ليلة ، حتى ولو غفلت لعشرة دقائق خلال اليوم ، فبمجرد أن تغفو عيناى ، تفتح الأبواب فتهدج من أقفاصها لتطاردنى ، كانت تلاحقنى وكأنها مكلفة بذلك ، ولا أخفيكم كم أرهقتنى تلك الكوايس حتى بت أرى الأسود فى صحوى ، أو ربما خال لى ذلك ..

أما عن الأسدان .. فإن الأمر لم ينتهى عند هذا الحد ، ففى تلك الفترة

جلب أحد الجيران شيخا .. ممن يعتقد أنهم يفكون رصد الجن الحارس للمقابر الأثرية ، إذ كان يظن جيراننا أن ثمة مقبرة فرعونية أسفل منزلهم ، كان ظاهر المنزل يطل على الشارع الضيق ، وأحد شرفاته تقابل باب منزلنا ، فجاءتني أنباء الجلسة كلها بمحض الصدفة ، إذ كانت أصواتهم عالية بشكل ملفت بما ينافي طبيعة الغرض ..

وإبان منتصف الليل ، كان الجيران قد قصوا على الشيخ أمر المقبرة ، وأطلعوه على علائقها ، فطلب من أحد الجلوس وأن يعينه في تحرى الأمر ، فقبل أحدهم ..

أمر الشيخ الرجل بأن يغمض عينيه ، ووضع راحته فوق رأسه ، وبعد برهة .. طفق الشيخ خلالها يتمتم ويغمغم بطلاسم غريبة ملغزة ، قال له ..

- إمشى .. وإوصف لي كل التى تشوفه تحت ..

بدعوى أن الرجل كان يمر بمخيله بطرقات وحجرات المقبرة .. وأن ما يراه واقع ..

ظل الرجل يصف ما يراه ، ولا أخفيكم جهلى إذ لم أعلم إن كان يرى شيئا بالفعل ، أم ثمة تواطؤ بينه وبين الشيخ ، بيد أنه كان يصف التماثيل والكنوز بدقة متناهية ، وكأنه يراها رأى العين بل ويلمسها بيديه ..

لم يعن لي كل هذا الهراء شيئا .. إلى أن صدمتني قبلة للرجل .. قال ..

- فيه قدامى طرقة .. بس أنا مش هقدر أتحرك أكثر من كدة
وعندما سأله الشيخ عن السبب ، قال ..

- فى نهاية الطرقة فيه أسدين كبار بيدورا حوالين بعض
صعقت من كلمات الرجل ، وما زاد من صدمتى .. أن الشيخ
طالعهم بأن الأسدان هما حراس المقبرة ، وأن تلك الطرقة تحاذى
الشارع الخلفى " يقصد شارعنا " ..
خيم الصمت على أسارى لبرهات ، أحملق فاغر الفاه .. " أيعقل
هذا؟! ، أنا لم أقص حلمى على أحد " ، كنت أتذكره جيدا فلم
يمضى عليه سوى يومين ..

وفى غداة اليوم التالى ، قابلت أحد زملائى من قاطنى هذا البيت ،
وأعلمته بما سمعت ، وأنى رأيت حلما يضاهاى حديث الشيخ ،
فلربما كان كل ما سمعته محض توهمات وهلاوس من شدة الإرهاق
، إلا أن زميلى أقر أن ما سمعته هو ما جرى ، فأوغلت فى سحب ،
وإلى الآن لا أجد تفسيراً لما حدث ..

ولا أنسى أيضا .. تلك الليلة التى إنتفضت فيها من مرقدى فزعا
على أصوات مضغمة مرعبة ، كنت مستغرق فى نوم عميق على أريكة
بغرفتى ، إستدرت بجسدى فإذا بى أرى أسدا منتصب كالمثال فى
منتصف الغرفة ، إلا أنه لا يبدى حراكا .

فهجعت فارا .. أتأبط وصادتى إلى غرفة أمى ، قصصت عليها ما
رأيت وأن ثمة أسدا بالغرفة المجاورة ، فإحتقن وجهها بالإبتسام ،

إلا أنها لم ترد إخراجي ، وبعد إلحاح شديد صحبتني إلى الغرفة لترى أسدى المدعو ..

وما إن ولجت من باب الغرفة ، وجعلتها تتقدمني " فقد كنت شديد الإرتعاب " ، حتى وجدنا الغرفة خواء .. فلا أسد ولا قطة ، أغرقني الحرج الشديد ، ولم أجد ما أقوله ، فخلت أُمى سبيلي بهدوء .. فكفاني ما أنا فيه خجل ، إلا أنها أفشت سرى لإخوتي ، فغدوت " فقرة المنوعات " لعدة أيام لاحقة ..

أما ما حدث في ليلة أخرى كان أشد إضحাকা ، لم ترتفع عيناى فى أحدهم لشهور طوال ، كانت الأسرة قد خرجت فى تلك الليلة لزيارة أحد أقاربنا ، بينما مكثت أنا بالمنزل لأذاكر " كنت بالسنة النهائية بالكلية " ، كنت فى غرفتى

مستغرق فى رسم مشروع التخرج ، وقد إستعنت بترانزستور صغير فى حجم قلم جاف ، أسمع عليه الراديو لأكسر حدة الملل والسمت ، وأتذكر أنى كنت أنصت لبرنامج " أنا والنجوم وهواك لأسامة منير " ، كان الليل قد إنتصف حينها هوت سماعه الجهاز من أذنى .. وجاءنى صوت رقع ينبو من جوف المنزل ..

أزحت السماعه الأخرى ، وهجعت إلى الداخل لأرى ماذا يجرى هناك ، وما إن خرجت من الغرفة وجسرت منتصف الردهة الضيقة ، حتى لمحت أسدا يقف بجوار " الغسالة " أمام الحمام ..

فصرخت صرخة مدوية ، ونفرت فارا إلى خارج المنزل ، وخرج الجيران تباعا من منازلهم .. يتسألون عن الأمر ، وكلما سألتني أحدهم أقول ..

- هناك أسد بالبيت ..

فلا أجد إلا تضاحكا وسخرية ، إلا أن بعضهم لبي رغبتى .. وولج معي ليرى الأسد ، وكالعادة لم يجدوا شي ، كان الإحراج قد سحقتنى ، مضى الجيران يصطفقون هازئين ، إلا أن الخوف مازال يملك جأشى ، فلم أجرؤ على المكوث وحيدا بالمنزل ، وكانت الساحة أمام البيت تعج بالجيران الذين بت لهم أضحوكة الموسم ..

عادت أمى وإختى .. وبغتوا بمشهد الجيران أمام البيت ، فهجعوا فازعين ، يظنون أن ثمة حريقا نشب به ، ليتفاجئوا بما أحدثته وجعلنا حديث الجيران والمارة ..

ولقد ظل هذا الكابوس يقلبنى يقظا ونائما ، يملك جوارحى ويشغل تفكيرى ، ولعدة سنوات لا أذكر أنى نمت ساعة بتامها هائتا دون أن تزعجتى الكوابيس ، ناهيك عن مدى بشاعة كوابيس كتلك ، فمن يأتيه نائما أن دجاجة تطارده .. قد يظل عكر المزاج يحكى كابوسه للقصاى والدانى ، وقد يظل متأثرا بأجواءه لأكثر من يومين " وكلنا يعرف ذاك الإحساس البشع " ، فما بالك بفرد يرى أن أسودا تطارده ..



مما دعاني للبحث عن تفسير رؤية الأسد في الأحلام ، وذاك أنى بت
أميز الأحلام والكوابيس ذات الجدوى من غيرها ..
فذات مرة .. وفي إحدى ليالى رمضان ، حلمت أنى أطمع جملا بعض
من التمر ، فإذا به بعد أول تمرة .. يسقط ويتكوم على نفسه ، وكأنه
قربة خاوية ، وتحول إلى جلد على عظم ، وعندما بحثت عن تفسير
ذاك الحلم ، وجدت أن الجمل يمثل شهر رمضان ، فعرفت أن الحلم
ذا معنى ، وليس أضغاث أحلام ، وغيرها الكثير من الأحلام التى
على هذه الشاكلة ..

أما عن تفسير حلم الأسد ، فلقد بحثت فى عدة مصادر موثوق بها ،
فوجدت أن " ابن شاهين " و " ابن سيرين " و " النابلسى " قد
أجمعوا بأن رؤية الأسد فى المنام تُؤوّل إلى سلطان قاهرٍ جبارٍ ، مختلس
، شديد ظالم ، وغاشم مجاهر ومتسلّط .. " لجرأته وعظّم خطره ،
وشدّة جسارته ، وفظاعة خلقته ، وقوّة غضبه ..

كما تعنى الشدة ، والعدو الطالب .. الظالم القاهر " القوى شديد
البأس " ، وأيضا مواجهة محارب قوى ، وصاحب الشرط ، " ولقد
ركزت شيئا ما .. على هذه التفسيرات لإقترابها من ظرف ما بحياتى ،
كان قد سيطر وهيمن عليها ، وملك على لىبى " ..

كما أجمعوا بأن رؤيته ربّما تدلّ على اللّص المختلس ، أو العامل الجائر ،
أو رئيس الشرطة ، أو الطالب بالموعظة كما تدل على الجهل ، والخيلاء
، والعجب ، والعنت ، والتّيه ، والدّلال ، أو على عافية المريض ، وربما

دلت على الموت .. لأنه يقتنص الأرواح ، وبما أنى لم أمت فكل التفسيرات السابقة قد تصلح ، على قدر ما معها من الدلائل في اليقظة والنام ..

ولقد أضاف " ابن شاهين " .. أن رؤية الأسد في المنام تعني أن الرائي هو شخصية قوية ..

أما عن رؤية الأسد في البيت فإنها تعني .. أن من رآه في بيته نزلت به شدة من سلطان ، وإذا كان فيه مريض فإنه يموت ، وإن لم يكن فيه مريض .. دلّ على خوف من السلطان ، وربما تعني أنه سيصيب سلطاناً وعزاً وخيراً وحياةً طويلةً ..

وعن رؤيا الهروب من الأسد " وهو بيت القصيد " ، فلقد أجمعوا أنه من رأى أنه يهرب من أسد يطلبه فهو في خوف من السلطان ، فإن لم يلحقه نجا من أمر يُحاذره ، وظفرٌ بحاجته ، ورؤية الهروب من الأسد على وجه العموم تدل على النجاة من الأحزان والشروع ..

ومن رآه يقترب منه وعينه دون أن يخالطه .. يصيبه هم وفزع من سلطان .. ثم ينجو منه ، وربما دلت رؤية ذلك على الموت وقرب الأجل ، ومن رأى أنه يتخوف من أسد ولم يعاينه .. فإنه آمن له من عدوه ، ومن رأى أسداً هائجاً يقطع الطريق على الناس .. فإنه يؤوّل بظلم الرعية ..

ولقد رأيت الأسد بكل تلك الهيئات السابقة وأكثر ، إلا أن أكثر ما

أسعدنى .. عندما علمت أن من رأى الأسد من حيث لا يراه ،
أوهرب منه وهو يطارده دون أن يراه أيضا .. ينجو مما يخاف ، وينال
الحكمة والعلم ، فلقد كانت أغلب أحلامى تدور فى هذا المدار ..
أتذكر أنه ذات مرة حدث لى شىء عجيب ، ما تنفك ذاكرتى أن
تسقطه .. حتى تسترجعه تارة أخرى ، لأتساءل هل من الممكن أن
يحدث هذا ..

رأيت ذات ليلة إحدى قريباتى من جهة أبى ، وكنت لم أرها منذ
سبعة سنوات تقريبا .. فهى كانت تقيم فى بلدة بعيدة ، كان ذلك فى
الصباح ، إذ خرجت من غرفتى فوجدت بلاط المنزل غارقا بالماء ، إذ
كانت وبعض أهل البيت من النساء يمسحن الأرض ، رفعت بنطالى
حتى لا يتسخ بالماء فوقعت عيناى عليها ، دنوت منها لأرحب بها ،
وما إن إقتربت .. حتى مضت تمازحنى وتقذفنى ببعض من الماء ،
ودون سلام طفقنا فى ضحك وحديث طويل ..

أفقت فى الصباح وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة ففاتنى ميعاد
المدرسة ، فقامت منزعجا أتوعدهم أن تغافلوا عنى ولم يوقظونى
مبكرا ، وما إن خرجت من غرفتى حتى وجدت الماء فى كل مكان
بالمنزل ، وسمعت أصوات المساحات وخرق التنظيف ، وتدمرت
أنهم إلتهوا عنى بأعمالهم ، وإندفعت أنتوى توييخهم ..

ولكن قبل أن أنبس بكلمة .. بوغت بقريبتى وفى يدها " ممسحة "
تزيح بها الماء ، حينها كان الحلم قد تبخر تماما من رأسى ، ولم أعد

أذكر أنى رأيتة أصلا ، فرحت برؤيتها ، وقبل أن أقرب منها كان الماء الذى قذفته نحوى قد بلبل بنطالى ، فضحكت وضربت بقدمى أذفع بعضه نحوها ، وطفقنا على ذات النهج .. نتدافع بالماء فى مزاح لطيف وضحك هستيرى ، حتى كفت ودعتنى أن أكف عن إغراقها ، ودنوت منها أرحب بها ، ودار حديث طويل ومزاح لم ينقطع ..

ثم توجهت لغرفتى لأبدل ملابسى المبتلة .. وهناك توقفت بعتة ، إن كل ما حدث هو عينه ما رأيتة بالحلم ، حتى ظننت نفسى أنى مازلت نائما ، فهجعت إلى باب الغرفة أنظر .. هل ما رأيت حقيقة أم أنها محض هلاوس ، وما إن فتحت الباب حتى رأيت قريبتى وهى تصرخ وتدير وجهها ، فقد كان نصفى الأسفل عاريا تماما ..

وهنا أتساءل ، هل يمكن أن يطلعنا الله على قادم الأحداث عن طريق الأحلام ، أن نرى علائم ونتفا عما سيجرى بعد ساعات أو أيام ، ظل هذا الهاجس يراودنى وخاصة كلما رأيت كابوسا بطله أسد ، أتكهن أن حدثا جلل فى الطريق إلى ، ولكن كل مرة كان الأمر يمر بسلام سوى الخوف .. الذى يقبض قلبى على الدوام كأحد تداعيات الكوابيس المزعجة ، إلا أنى ظللت أنتظر

إلى أن حدث ما لم أتوقعه ، سمعت من كثيرين عن أحداث رأوها فى منامهم وتحققت ، وقد جرى لى ذلك ، ولكن كانت الأحلام تتحقق ربما بعد يوم أو يومين أو أكثر لا يهم .. ولكن بالنهاية كانت الأحلام لواقعة أو حدث واحد ، أما أن أرى حلما يضم بين دفتيه أحداثا على

مر أكثر من خمسة عشر سنة ، ويتحقق ، فذاك ما يدعوا إلى التوقف والتساؤل طويلا ..

وقد حدث هذا بالضبط تزامنا مع آخر حلم رأيت فيه أسدا يطار دني ، فقد جاءني أسدا ضخما للغاية .. على رأسه تاج مضيئ .. وكأن نارا تلتج في عمقه ، يتقدمه خمسة أسود أصغر جرما " في حجم أشبال البالغة " ، وكلما أشاح رأسه نحوى هجعت الأسود الخمسة تطاردني ، ظلت تركض ورائي في أنحاء البيت وغرفته ، حتى هرعت فارا منهم أجوب طرقات البلدة .. إلى أن ألقوني بالنهاية إلى قبر مفتوح بمنطقة " الجبانة " ..

ظللت في القبر قابعا في سكون .. لا أجرؤ على التحرك قيد أنملة ، أذكر أن أنى كنت أتنفس بشراة من شدة الخوف .. حتى شعرت أن رئتاي على وشك الانفجار ، ومن آن لأخر كنت أضع راحتي على فمي .. أكممه حتى لا تتسمع الأسود بالخارج أصوات أنفاسي ، أو تتشمم رائحتها ..

كنت أرى الأسود الخمسة تروح وتجيئ راکضة أمام القبر .. في بحث حثيث ، يتحرون عني في كل مكان ، طالت جلستي ولا أدري ما الذي أثقل جفناي فغفيت ورأيتني نائم في الحلم !

ورأيت في نومتي " الإفتراضية " في حلمي أشياء غريبة .. حدثت لي على مر عدة سنوات ، أحداثا غيرت مجرى حياتي بالكامل ، وبدلت بعض إتجاهات أحلامي وطموحاتي ، رأيتني



وقد رسبت في الجامعة ، وقد فاتني حلم التعين بسبب تلك السنة
التي رسبتها ، ورأيت أن الفتاة التي أحببتها تزوجها أعز أصدقاء
دراستي ، ورأيت الشيب المبكر وقد ضرب شعري ولحيتي .. حتى
بدوت كمن يحمل فوق رأسه حفنة من الثلج ، ورأيت علاقتي بأبي

وبأقاربي وقد ساءت للغاية .. فما عاد أحدهم يزورنى ، ورأيت
أشيئا أخرى أستحى أن أسردها ..

كل هذا رأيته فى غفوتى .. فى صورة أحداث متلاحقة سريعة ..
وكأنها ومضات زمنية ، وأذكر أنى أفقت من غفوتى تلك فى عمق
القبر ، وأنا أتساءل .. هل يمكن أن يحدث هذا؟! ..

إستيقظت من نومى " إثر رنين منبه التليفون المحمول " على ذات
السؤال .. هل يمكن أن يحدث هذا؟! ..

ظل ما رأيته يملك خلدى ، ويرتع بلبى لساعات ، إلى أن قلت
لنفسى .. " إنه محض كابوس .. كتلك التى أراها فى كل غفوة " ، بيد
أنه لم يكن مجرد كابوس ، كان على ما أظن علامة من الله .. لما
سأعاشه وتراه عيني فى عدة سنوات قادمة ..

وقد حدث كل ما رأيته بتفاصيله الدقيقة ، إذ تأزمت أحوالى المادية
إثر تركى لأبى .. فإضطررت لتأجيل العام الدراسى من منتصفه "
رغم أن ترتيبى كان الثانى على دفعتى بفارق نصف فى المائة " ،
وفوجئت بخطبة الفتاة التى أحبها من أحد أصدقائى .. ثم زواجهما
فيما بعد ، وحرمت من التعين " رغم أن ترتيبى كان الأول تراكمى
على دفعتى ، وكان بينى وبين الترتيب الثانى فارق ١٥٪ " .. بحجة
أن قوانين الجامعات تقتضى أن من رسب أو قام بتأجيل عام دراسى
ليس له الحق فى التعيين ..

وبعدها بعدة سنوات هاجم الشيب رأسى .. كفيضان شرس ،

وباتت هيئتي تفوق سني بأكثر من عشر سنوات ، ولقد تمزقت كل الأواصل التي تربطني بأبي وأقاربي .. على إثر أحداث لا يدلى بها ، كانت محض إفتراءات ، إذ تكالبت على شياطين الإنس .. فأوردت وروجت عني أنباء باطلة ، كنت آخر من علم بها ، وتحققت تفاصيل أخرى كثيرة مما رأيت بحلمي ، وساءت الأحوال للغاية ..

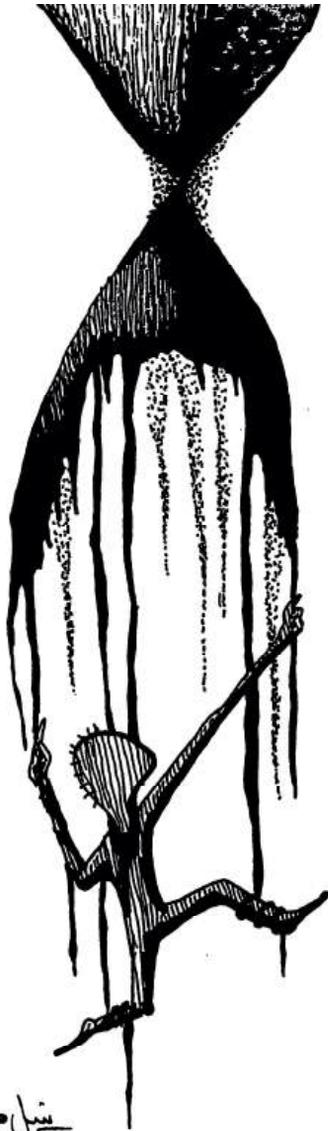
الغريب أني كعادتي لم أقص ذلك الحلم على أي من أهلي ، إحتفظت به لعدة سنوات خشية أن يتحقق ، إلا أنه تحقق بالنهاية ، والأغرب من هذا كله .. أنه كان آخر كابوس أرى فيه أسودا تطاردني ، ما عدت أراها ، حتى أني ولأوقات كثيرة كنت أشتاق لرؤيتها ، ولا تسألني عن تفسير شعور كذاك ، فأنا لا أجد له معنا .. سوى رغبتني في ملء ساعات نومي بشئ مغاير ، يصدمني ، ويستفزني من حالة البلادة .. التي بت أعيشها في صحوى وفي نومي ..

كل الأشياء باتت عادية ، باردة ، عديمة المعنى ، وقليلة هي تلك اللحظات التي أجد فيها مثيرا يهز كياني ، ويتلذذ كل راكد فيه ، تتبدل الأيام من حال إلى حال ، ومازالت أعماقي راقدة في موات ومازال السؤال يطن ويدوى ؟ ، ماذا كانت تعنى كوايس الأسود ، ولما الأسود بعينها ، فالمفزععات في سماء المجهول كثر ، وهل كانت الأسود بحق .. علامة من الله ونذير تبدل وتحول جوهرى بحياتي ؟ ، ولا أحق من الأسد بهذا الدور .. كونه معبرا عن السلطان والشدائد ..

ولما بات هذا الهاجس يراودنى من أن لأخر .. بات الأسد أيقونة في حياتى ، شية قوية أسرة معبرة ، ما تنفك أن تغيب .. حتى تعود بارزة لتملأ سمائى فى حيرة وتعجب وإنهار ..

حتى أذكر أنى " ولعدة سنوات " كان توقيعى يحمل صورة رأس أسد ، أثناء عملى كمصمم للجرافيك الثابت .. فى أغراض الدعاية وشتى المطبوعات ، حتى فى مجال الرسم .. أكون فى قمة نشوتى ويبدأى تخط رسما لإحدى حركاتها أو وضعياتها المميزة ، إلا أنى لم أكن راضيا أبدا عن أى لوحة أنتجتها لأسد أو نمر أو ماشابه ، مهما كانت دقة تفاصيلها ، وأتوق للمزيد ، وبت أتابع بنهم العروض والبرامج التى تتناول الأسود وفصائلها المتنوعة ، أصبحت أعرف عنها أكثر مما يعرف مروضوها ومدربوها ..

أما عن هذا التعلق الغريب ، فلا أعرف علته .. أو متى أنفك منه وأنعتق من قياده ، وربما من عقده النفسية ، أنى أدركت مؤخرا أنه تعلق محموم ، يدفعه الإنبهار الزاهى .. والإرتعاب المخيف ، الجمال العظيم .. والتوحش الشرس ، الإقتراب الوشيك .. والتوارى الحذر ، كل ذاك فى آن .



شمالی

الغائبى النبى للافنالى



الغالى الذى لا ينال

"الإسم مستوحى من المجموعة القصصية ، نقطة الغليان ، للدكتور
مصطفى محمود "

هوت كلمات تلك السيدة الوقور على أذنى كالصاعقة ، أصابت كل
موضع مألوم فى جسدى ، وذبحت قلبى المكلوم ، أعطتني شحنة
مكثفة من الموجعات .. وكأنها شحنة كهرباء قوية ، زلزلت كيانى ..
صفعة على وجهى ..

ولم أدر بأثر عباراتها إلا بعدما ودعتها ورحلت ، وذهبت إلى بيتى ..
ونمت ، رأيتنى جوعانا .. تتصور معدتى ويعضها الألم ، ويضرب
حلقي ظمأ شرس نحيف ، وصرخات طفل كنت أحمله .. كانت
مدوية .. أسمعت أهل السماء وأهل الأرض ، حلما قاسيا أوجع
روحي وإستنزفها ..

قمت من نومى محزونا ملتاعا ، لقد أصابتنى السيدة فى مقتل ، حكمت
لى عما بذلته لأجل أبنائها ، وكان بحق فوق المعتاد ، أو هذا ما كنت
أعتقد ..

كان لديها ولدان و بنت ، زوجتهم وأقامت لهم بيوتا يتوطنون
مأمونين بها ، وظلت ورائهم حتى إطمأن كل منهم فى عشه ومعيشته
، فما كان إلا أن هجرها أحد الولدين وإستقر فى بيت بعيد ، أما الولد
الأخر فما بذلته لأجله لا يحكى ولا يوصف ، كلما أقامت له زيجة ..
فشلت ، فتزوجه الأخرى والأخرى ، وتتكدب مصاريف كل زيجة ،

تزوج خمس مرات ، وأقامت له مشاريع مختلفة يتقوت منها ، فمن محل " كمبيوتر وإنترنت " إلى " موبايلات " إلى " سوبر ماركت " إلى " مقهى " إلى أخره ، وكلها أيضا باءت بالفشل ..

وفي سبيل ذلك باعت مصاغها الذى حفظته سنوات طوال .. بعد موت زوجها ، ليعينها إذا ما الأيام دارت بها ، ثم قطعة أرض زراعية ، تلاها عقار قديم ببلدة مجاورة ، وبعد كل هذا .. باعت منزل الأسرة وإستبقت على غرفة وحمام ، كل هذا بذلته لأجل ابنها الثانى ، وما من جديد ، من فشل إلى فشل ..

ولما زهدت حيلها ، هجرها هو الآخر .. وما عاد يزورها غير ابنتها ، ولم تر ابنها الأكبر منذ ما يعدو السبعة أحوال ، ولما زادت زيارات ابنتها لها ، طلقت ، فباعت لأجلها الغرفة والحمام ، وأقامت لها مشروعا لتتقوت به وبناتها الأربع ، وإستأجروا شقة صغيرة .. أقامت بها مع ابنتها وأحفادها ، وما تذكر ابنها يوما أن يمدوا يد المساعدة ، كل إستبقى على بيته .. الذى قد يسع أمه وأخته دون ضرر ، إلا أن نفوسهم شحت بهذا الواجب " لا الفضل " ..

واليوم قابلتنى الأم المنكودة ، تعيسة الحظ ، حائرة فى الشارع ما بين المشفى والقسم ، فلقد أصيب ابنها الأكبر بورم سرطانى ، وبينما هى تباشر حالته ، جاءها نبأ ابنها الآخر الذى قبض عليه متلبسا بقطعة آثار ..

اليوم قابلتها تفترش الرصيف أمام القسم ، أثناء زيارتى لإستخراج

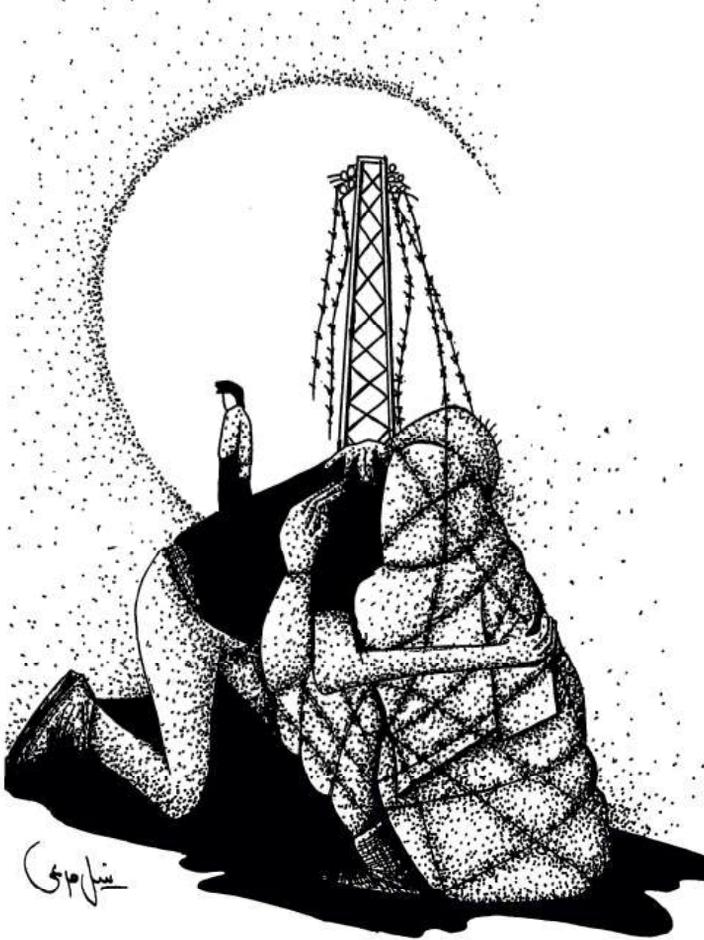
بطاقة شخصية ، تبكى وتئن بحرقه ، لم ينبو لها صوت ، إكتفت بعبرات صامته حارقة ، وعندها إقتربت منها ، فلقد تهزهر قلبي بشدة لمشهدا المؤلم ، حكى لى المأساة بدموعها المتهدجة بلظى خيبة الرجاء ، ورحلة بائسة ما ذاقت فيها حلوا بعد موت زوجها ..

إسترجعت أحداث اليوم جملة واحدة ، ومازالت تلوح لعيني تلك الذكريات ، والأحداث القاسية التى عشتها ، أذكر أنه فى صغرى عشت حياة بائسة للغاية ، وأخر ما يمكن أن نطلقها عليها أنها كانت طفولة ، فبسبب إنفصال والداى فى آن مبكر ، وسفر والدى ، تقاذفتى الدروب والطرقا والأفكار والأحلام ، فأوغلت من هم إلى هم .. ومن وجع إلى وجع ..

نبتت فى خلدى تلك التلويمه ، وعيناي ترمقان من وهبتهم الدنيا كل شي ، فأضاعوا كل شىء ، أسرا حانية ، أب يرعى وأم تحتضن ، وللأسف كان الكثيرين فى نطاقاتى جاحين ، لم يقصر أباءهم فى رعايتهم والإعتناء بهم ، وكانت أمهاتهم نهرا من الحب والرحمة والإحتواء ، بينما هم أبناء نافرين ، غليظين ، سيئين المنطق والفعل .. وعاشت بعضا منهم .. مازال والديهم يوالونهم بالإهتمام حتى بعد الستين ..

كنت أرى كل ذلك بعين الأسف ، تكاد عيني تنضح الدموع ، على سنى عمرى التى ضاعت هباء ، فلا عرفت للإبوة معنى ، ولا لأمس جأشى حنان الأمومة ، وسفحت حياتى إشتياقا لذاك وذاك ،

وما كان سهلا أن أتعرض للسيدة دون أن يلتج قلبي ، وبيكي حال
الأبناء الغافلين ، الذين خطفتهم الدنيا بملاهيها ، وأعمتهم عمّن
كانوا به مانعاً عنهم ، وإلهام طبعهم ..



يوما ما كان هؤلاء الأبناء حلما وأملا ، وأمانهم مسعى ورحلة كد
وتعب ، وتأمين حياتهم نهاية طريق مرصوف بمزيد من الأفكار
والبدائل والإحتمالات .. الصراعات والنزاعات .. والركض المستمر
والتزاحم الحثيث ، ساعات بكاء وأنين ، وأوقات فرح ونشوة ..
يوما ما كانوا فرصة وخيبة أمل ، ميعاد منتظر .. ، ورمقة في عين أب
يتحين مرور ركب جديد .. في طريق جديد .. لحياة أكثر عدالة
ووضوح ..

يوما ما كانوا دمة أم شح ضرعها .. ونضب معينها ، يوما ما كانوا
عيدا في أيام ماعادت تأتيها الأعياد ، يوما ما كانوا أرضا في زمن
غدت فيه الأوطان ..
ماذا أقول ؟ ..

أنتم خير مثال لمن أضاع أعلى ما عنده ، ومضى يتقهقر بالندم ، تضربه
الحسرة والكمند ..

أذكر أننا كنا في أول أيام رمضان ، عندما خرجت بعد الإفطار مباشرة
على صوت لغط ليف من الناس ، أتساءل عن علة تلك الجلبة ،
لأصطدم بمشهد شيخ جاوز السبعين ، وقد أسدلت أساريه بخيوط
من الدماء ، وثمة فجوة غائرة برأسه ، فوقفت حائرا أتساءل عما
حدث ..

وكانت الفاجعة !! ، لقد صفعه ابنه بعصا على رأسه بسبب علبة
سجائر ..

شدهت مصعوقا .. لا أصدق ما سمعت؟! ، أكان حقيقة ما رأيت؟! ، كلمات كانت تدور وتثن في رأسي ، نعم حقيقة .. وفي أول أيام الشهر الكريم ..

وفي غمرة صراخنا في وجه الإبن الفج العاق ، هتف العجوز وانتصب مدعورا ..

- متضر بهوش ، ملوش ذنب .. أنا اللي غلطان ، مدريتش بحالى وأنا بتكعبل من عتبة الدار ..

ذهل الجميع ، وطفقوا يصطفقون في أسف .. ويتمتمون في أسى ، لا عجب في قبلة الشيخ فهو بالنهاية أب ، لو ذبح بيد إبنه لقال أنا الذابح ، أما الإبن؟! .. فلا أجد ما أعلق به ، فتلك لحظات تشتد بها لحم الألسنة ..

وهنا لا بد وأن أذكر .. إن بعض أنماط التربية هو ما يصل بالإبن إلى هذا النهج من الغلظة ، وجحدان المعروف في الكبر ، لا يلتفت كثيرين إلى أسباب ردود أفعال أطفالهم الفجة في الصغر ، وهو ما يتفاقم مع مرور الزمن ، فمثلا نرى من يشتكى بأن طفله يكذب كثيرا .. ولم يلتفت أنه شديد المحاسبة معه ، فلكل رد فعل للطفل فعل سابق يصدر من الوالدين ..

إعلم إن كان طفلك لا يطيعك .. فأنت تكثر الطلب منه ، وإن كان يعتدى على أقرانه .. فأنت عنيف معه ، وإن كان طفلك جبان .. فأنت تدافع عنه كثيرا ، وإن كان ضعيف .. فأنت تستخدم لغة

التهديد في محاسبتة ، وإن كان منطوى .. فأنت دام الإنشغال عنه ،
وإن كان لا يحترم الآخرين .. فأنت لا تخفض صوتك معه ، وإن كان
دائم الغضب .. فأنت لا تمدحه ، وإن كان يغار .. فأنت تهمله ، وإن
كان بخيل .. فأنت لا تشاركه ، وإن كان ضعيف الكلام .. فأنت لا
تحاوره ، وإن كان طفلك غير واثق بنفسه .. فأنت لا تشجعه ،
وأخيرا إن كان طفلك دائما ما يزعجك بأفعاله الحمقاء .. فإعلم أن
ذاك بسبب أنك لا تضمه ولا تقبله ، وكذا تسير الأشياء ..

وما سبق ليس محض وجهة نظر ، وإنما هي توصيات أطباء نفس
الطفل والمتخصصين في هذا المجال ، فقبل أن تلقى اللوم على إبنك
الغليظ الفظ .. الجاحد ناكر المعروف ، تذكر ما إقترفته بحقه في
صغره ، إنها مجرد أسباب ونتائج ، ونادرا ما تحيد القاعدة

جاءنى أحد زملائى ذات مرة ، وقد كان غاضبا بشدة ، يشعر بغصة
ومرارة دفيئة ، فقد تعرض للظلم المجحف من والدته ، التى قامت
بتقسيم أملاكها فى حياتها ، وكان عبارة عن منزل متواضع ، فقامت
السيدة بإعطاء أخيه نصف ثمن المنزل بعد بيعه ، وإستقطعت من
نصيب زميلى مبلغ كبير ، لشراء سيارة أجرة لأخيه العاطل ليتقوت
منها ..

وكان ذاك بحق ظلم بين ..

فكرت فى أن أساعده ، فقررت الذهاب معه لأمه .. لأقنعها بأن هذا
التصرف يعارض الدين ، خاصة وأن المبلغ فى حوزة أخيه .. لم

يتصرف به بعد ، فلنلحق الكارثة قبل أن تقع ..
وبالفعل ذهبت معه لأعقد جلسة خاصة مع والدته ، وإشترطت أن
تتم في عدم وجود أى من الأخين ..

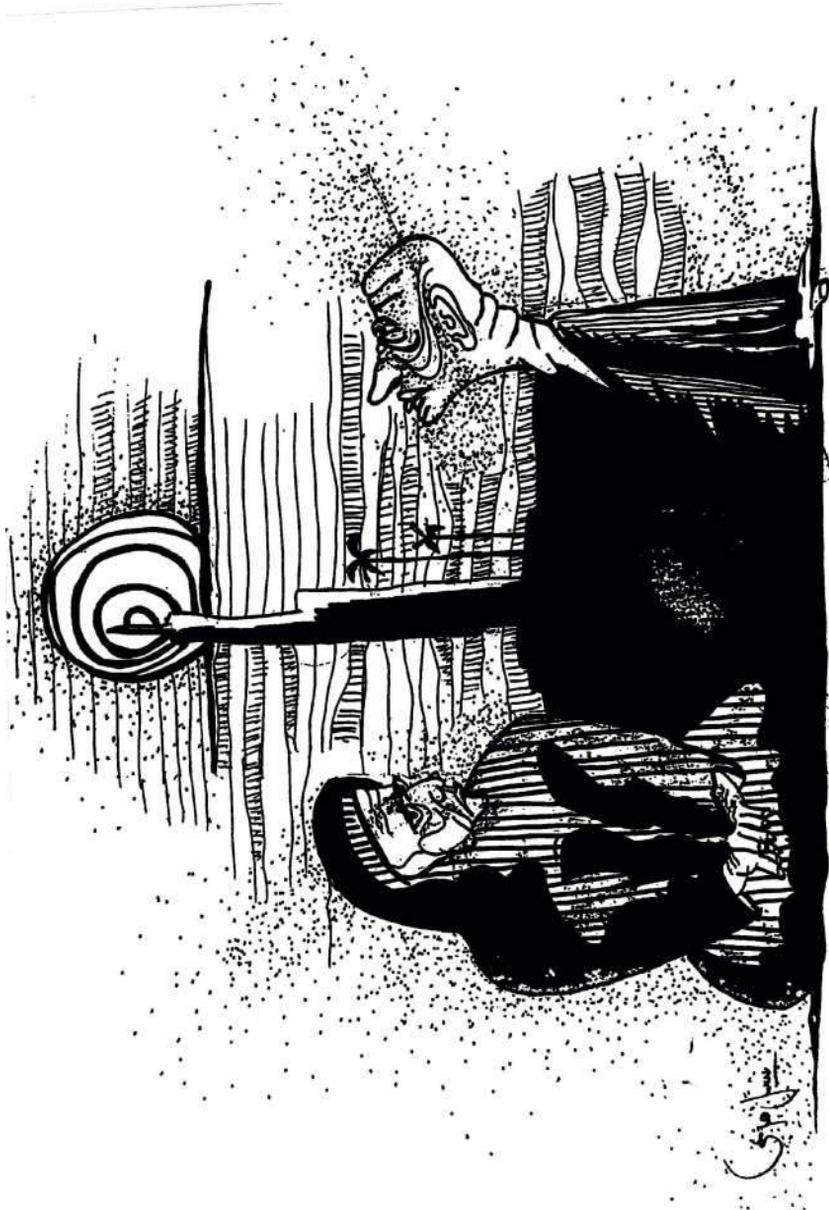
رحبت بي السيدة شديد الترحيب ، وضيقتني بكوب شاي ، وبعد
برهة بدأت وفتحت الموضوع معها ، أفهمتها أن الله أمرنا بالعدل في
الموارث حسب الشريعة الإسلامية ، وأن عقوبة من يخالف أوامر
هذا الصدد وخيمة للغاية ، وظلت أعيد وأزيد ، على أستقطب
تفهمها وتعقلها ورحمتها ..

إلا أن السيدة صدمتني برد يقهر أعتى القلوب ، قالت ..

- أنا بخاف من إبني الكبير " صاحب فكرة سيارة الأجرة " ،
بموت في جلدي من رد فعله .. عصبى وبتنرفز بسرعة ..
وبمجرد ما أخالفة في حاجة .. يفزع في وشى ويفضل
يشتمنى " ويسب لى الدين " .. في مرة منهم لما عارضته
لطمنى على وشى لحد ما شر بالدم ..

- يابنى أنا عديت الستين سنة .. ومعادش عندى إحتمال
للبهدة دى .. قولى بالله عليك .. لو كنت مكانى كنت
هتعمل إيه ؟ .. إنت متعرفش المرة دى لو وقفت في وشه
هيجرالى إيه ؟ حتى صاحبك مش هيقدر يوقف قصاده ؟
فقلت في أسى ..

- مفيش كبير للعبة .. يوقفه عند حده ؟ .. وينصحه إن ده



حرام ومينفحش ..

- هانهم كلهم .. وطردهم من البيت .. بسببه معادش بيزورنا
لاقريب ولا غريب .. الكل بيعفى نفسه من الإهانة
والإحراج .. يابنى ماتفتحش عليا نار جهنم .. أنا عارفة إن
نهايتى على إيده .. هموت بحسرتى ..

توقف الكلام فى حلقى ، وذهبت نفسى شعاعا ، أكظم ثورة وحنقا
.. تكاد أن تفجر وجهى غيظا وترحا ، أتقهر على أبناء تلك الأيام ، ما
عادوا يصونون للوالدين كرامة ، وبعد موت الأباء .. تنسحق
الأمهات تحت رحي فجاجتهم وقسوتهم ، وأحيانا تحت أنظارهم
وعلى حياة أعينهم ..

.....

لقد قرأت تلك الكلمات " بمحض الصدفة " ، لفتاة تلتاع لفراق
أبيها حين تذكرته .. فى ذكرى وفاته الأولى ، ولا أعرف من تلك
الفتاة التى سردت هذه الكلمات الأنيئة ، بيد أنها أصابت جأشى كل
مصاب ، وأرجو أن تسامحنى ، إذ أوردت كلماتها فى كتابى ، عمدت
إلى إدراجها ، ليقرأ كل مضطلع أنات فتاة فقدت أبيها ، وليعتبر كل
متبصر ، ولقد إستقطعت بعض العبارات ، وقمت ببعض التعديلات
.. بما يناسب السرد ، ولا يشوه فحوى رسالتها إلى أبيها الغائب ،
الذى لا أشك أنه بمكان ما يتسمع كلماتها ..

" أبى .. نعم إشتاقت أذنى لسماع صوته ، رحم الله البعيد عن العين ،

والقريب من القلب ، فأنا لا أجد التحدث مع الناس ، وكان أبي الشخص الوحيد الذي أستطيع التحدث معه ، ولكنه توفي ... أشد ساعات الألم .. حين تضيق بك الأرض شوقاً لغائب تحتها ... كانوا يسألونني عن الأمان ، فأقول حذاء أبي عند الباب ..

في مثل هذا اليوم " قبل سنة " .. توفي والدي ، واليوم هو ذكرى وفاته ، لقد ترك فينا وجع لن يشفيه أحد ... أن تفقد أباك معناه .. أنك تخسر الجدار الذي تستند إليه ، ويجعلك في مهب الريح ، أن تفقد أباك معناه .. أن تفقد السماء التي تجود بنبع الحب والحنان ، أن تفقد أباك معناه .. أن تفقد المظلة التي تحميك من الشرور ، فتغدو وحيداً في مواجهة العالم ..

ما زلت أشعر بنقص عند رؤية فتاة تحضن أبيها ... لكل منا سر يبكيه ليلاً ، وأبي كان سري ، كم هو مؤلم أن تشتاق لشخص وهو نائم بقبره ..

إنتظرنا يا أبتى عند باب الجنة ، وقل يا رب .. بنياتي يتهن في الزحام ، فسقهن إلي ، أبي إن قلبي قارب النهاية ، فلقد تعبت من الانتظار .. عل يوماً تأتيني فيه ولو في حلم ، لعلك يوماً تأتي إلي وتضميني إلى صدرك الحنون ، فقد انتهت الدموع من فرط البكاء ، دون جدوى .. توفي والدي فأظلم العالم من أمامي ، توفي والدي فإنكسر قلبي ، ولم تجف دموعي ، وأصبح قلبي لا يعرف معناً للفرح .. رحم الله وجهاً كلما تذكرته .. بكيت ، ولو عاد بي العمر تارة أخرى

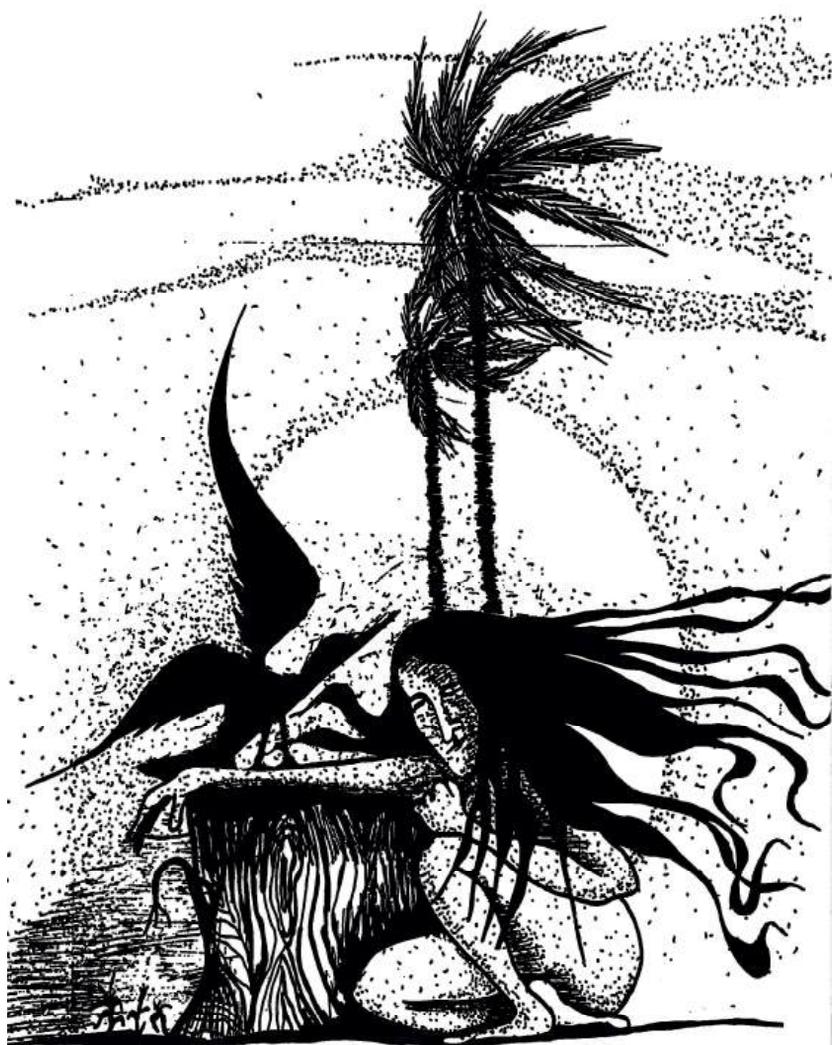
ياأبتي .. لبكيت بأحضانك ، وأخبرتكم كم كان رحيلكم مؤلم ، أبي
لقد أوجعني غيابك كثيراً ..

لو أملك أن أهديك قلبي .. لنزعه من صدري ، وقدمته لك ، ولو
كنت أملك أن أهديك عمري .. لسجلت أيامي باسمك ، ولكني لا
أملك .. سوى كلماتي الصادقة ، فلتكن هي هديتي إليك يا أبي ..

لقد تركتني وحيدة في الدنيا ، لقد تركتني أحتاج إلى غيرك ، لقد
تركتني أبكي الليلي ، لقد تركت قلبي يتقطع شوقاً للقياء ، أبي طاب
منامك الطويل ، ورحم الله جسدك الذي امتلاً طهراً ، وغاب عن
الدنيا ، مؤلم أن ترى وتسمع حديثهم عن آبائهم ، وأنت مريج بين
غصات الفقد ، فتغمض عينيك .. وتقول اللهم لا تذقهم ما ذقت ..
أبي ، إني أشتاق لك شوقاً لا يقاس ، شوقاً لا أستطيع التعبير عنه ...
رحمك الله يا قطعة من قلبي كساها التراب ، وما أصعب أن أذكر
اسمك يا أبي .. ثم أتبعه برحمه الله ، ومن أنا دونك يا أبي ؟ .. قل لي
.. أيعدو البحر بجرماً دون ماء ؟ ، أبي لذكرياتك رائحة .. تستنفز
حنيني فأبكي ، اللهم بقدر إشتياقي لأبي برد عليه قبره ، وعطر
مسكنه .. وأنس وحشته ..

بعد رحيل أبي .. أدركت أن هناك بكاء دون دموع ، وصراخ يمزق
الحنجرة .. دون أن يسمع له صوت ..

إن رحيل أبي كسرني ، فبت أحن لملاحي ، وأشتاق إليه .. بكل ما وراء
الكلمة من لوعة فراقه ، وألم فقدته ، لكم أشتاق إليك ياأبتي ... لما



نسیل مرعی

مرض أبي .. أحسست بأن قلبي يتمزق بوجعه ، ولما توفي أبي ..
أحسست أن قلبي قد إنتهى بفراقه ، فأنا فقدت طعم السعادة وطعم
الفرح برحيله ..

عندما يرحل الأب .. تصبح الدنيا برداً وصقيعاً ، تصبح بلا شمس
.. بلا دفء أو نور، لم أكن أعرف معنى الغياب .. إلا بعد أن غبت
ياأبتى ، سيظل أبي حباباً يحكيه دعائي ، اللهم لا تحرم أبي من الجنة ،
فهو لم يجرمني شيء في الدنيا ، أبتى ما زالت ذاكرتي مليئة بك ، وما
زلت أتجرع مرارة فقدك ، أشتاق لأب لن يعود لي أبداً ..

ولكن وإن غبت عن عيني يا أبتى .. ففي القلب عين لا زالت تراك
... تحدثني عن أبي ، أحدثك عن أعظم نعمة رحلت ..

فقدتك .. وفقدت جمال الحياة من بعدك ، فرحي نائم منذ ذلك
الصباح الشنيع .. الذي حمل نبأ وفاتك ، وكلما تذكرت رحيلك ،
إنهمرت دموعي وكأني أسمعهُ للـتو " ..

إنتهت رسالتها .. ولا أخفيكم كم من العبارات إستقطعت منها ، فما
سبق لا يعدو خمس سردها ، كان حديث الفتاة فياضاً مألوماً ،
مدفوعاً بلظى حرقه الوجد في القلب ، ولو كان بيدي لأوردتها
بالكامل ..

إن شعور أن يكون والديك تحت مرآك لا يضاهيه شعورا ، وإسأل
من مات أحد والديه عما فقد ، إنه الفقد المطلق ، ولا أدري حال تلك
المضغة .. بصدور من يعاملون والديهم بصلف وغلظة ، غير أنها ما

عادت تختلج ، ماتت وواراها الزمن ، كما لا أدري حال كل أب وأم إن سمعوا بقصص هؤلاء الجاحدين ، رغم درايتي الكاملة بأن مشاعرهم لن تتغير تجاه أبناءهم ، فمهما كان الوضع يظل الأب هو الأب .. وتظل الأم هي الأم ، ولقد وصاهما رسول الله " صلى الله عليه وسلم " .. بألا يدعوا على أبناءهم مهما كان من جحودهم ..

- قال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " .. " لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على خدمكم ، ولا تدعوا على أموالكم .. حتى لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم " صدق رسول الله " صلى الله عليه وسلم " ..

ووصى رسول الله " صلى الله عليه وسلم " بالوالدين في أحاديث كثير ، ناهيك عن أمر الله سبحانه وتعالى بعدم عقوق الوالدين ، وقرن الإحسان إليهما بعدم الشرك به ..

- { وَقَصَى رَبُّكَ أَلَّا تُعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا }

الإسراء ٢٣ - ٢٤

- { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ

جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمَهُمَا
وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ
مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ {

لقمان ١٤ - ١٥

- { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا }

النساء ٣٦

- { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ }

الأحكام ١٥١

- عن أبي بكر قال : قال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " ..
" ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا الاشرار بالله ، وعقوق
الوالدين ، وقول الزور .. وكان رسول الله متكئا فجلس فما
زال يكررها حتى قلنا ليته سكت "

- وعن عبد الله قال : قال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " ..
" أفضل الأعمال الصلاة لوقتها وبر الوالدين "

- وقال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " .. " رغم أنفه .. ثم
رغم أنفه .. ثم رغم أنفه ، قيل من يارسول الله ، قال من
أدرك والداه عند الكبر أحدهما أو كلاهما .. ثم لم يدخل الجنة "

عن عبد الله بن عمر " رضى الله عنهما " أن رسول الله " صلى



نبيل مرعى

الله عليه وسلم " .. قال " رضى الله من رضى الوالدين ..
 وسخط الله من سخط الوالدين "
 صدقت يا رسول الله ، وعشرات من الأحاديث النبوية الأخرى الى
 توصى بالإحسان للوالدين وعدم عقوقهما ، وإذا كنت من المقصرين
 فى حق أبائك أو تسيىء إليه فأهديك هذا الحديث ..

- قال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " .. " لا ترغبوا عن
أبائكم .. فمن رغب عن أبيه فهو كافر " صدق رسول الله "
صلى الله عليه وسلم " ..

أما إذا كنت من المقصرين في حق أمك ، فلتعلم أن رسول الله حذر
من الإساءة إليها وأوضح فضلها في عشرات اللقاءات ..

- عن المغيرة بن شعبة قال : قال رسول الله " صلى الله عليه
وسلم " .. " ان الله حرم عليكم عقوق الأمهات منعا وهات ،
ووأد البنات ، وكره لكم قيل وقال .. وكثرة السؤال ..
واضاعة المال "

- قال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " .. " الجنة تحت أقدام
الأمات " صدقت يارسول الله

ولكم تهبج مشاعري ، ويتهزج قلبي ، وتقبضه قبضة عتية وأتشبث
برداء أُمى .. كلما جال بخلدي أنه حال موت الأم .. ينزل ملك من
السماء يقول .. " يابن آدم .. ماتت التي كنا نكرمك لأجلها ، فإعمل
لنفسك نكرمك " ، ورغم الاختلاف حول صحة تلك المقولة .. إلا
أن لها أثرا قويا بالنفس ، بما تمس شغاف القلب من إتياع وألم ..

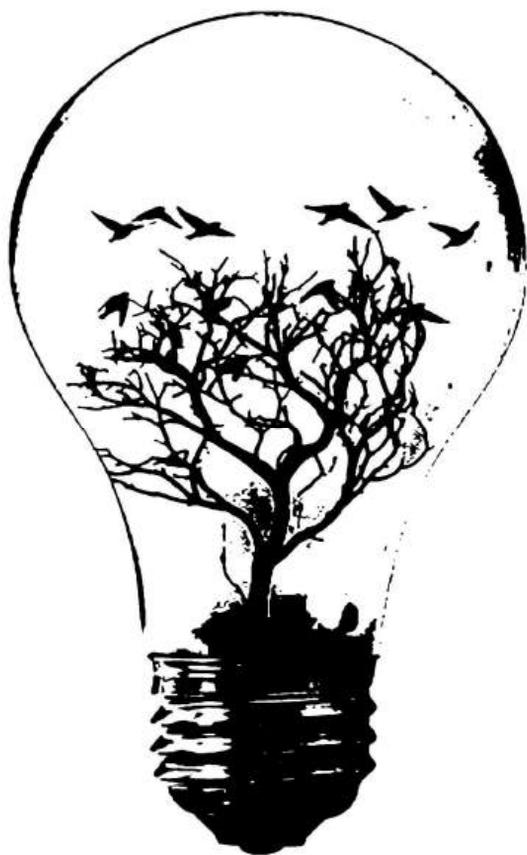
وكم يحزن قلبي ، ويئن جأشى .. وأن أسمع تلك القصص المؤلمة
عن حكايا العقوق والجحود ، وكأن الأبناء قد إبتدعوا أفانين تفوق
أفانين العقل .. في إذلال والديهم في آخر سنى أعمارهم ، يرققونها
فوق ترققهما ، ويعضدون يدا الأيام لإضعافهما ، وإسقاط الوهن في

قلوبها ..

كنت دوما لا أنتظر خيرا ممن أذل والديه ، أو أنكر معروفهما ، أتخذ منه موقفا معاديا ، رغم توجيه الكثيرين حولى .. بأن أتعامل بحيدة مع الأمر ، بيد أنى لم أكن أستطيع السيطرة على مشاعرى المستنفرة ، فمن أنكر على من أوجدوه للحياة ، وبذلوا لأجله زهرة أعمارهم .. لا أمان له فى جيرة أو صداقة أو معاشرة ، لأن كل تلك العلاقات لا تضاهى جزءا من رباطه بأمه وأبيه ، لقد بتروا رباطهما ، فأى علاقة به تلك التى يؤتمن عليها ..

وليعلم هؤلاء .. أن الله لن يوفقهم فى عمل أو سير ، ودائما ستبوء تدبيراتهم بالفشل ، وتنتهى مساعيهم بالضياع ، ويظلوا مشردين تتقاذفهم الدروب ، وتشتتهم المسالك .. لينحدروا إلى درك الدنيا ، ضعفاء أذلاء .. وقد ضربهم الوهن وأخذ العمر منهم كل مأخذ ، وسينتظرون يوما ما أيدى أبناءهم .. لتقيم عجزهم ، فما يجدوا إلا ما قدموه سالفا ، إنه وعد .. كان مقضيا .

وَسَاءُ مَا رَدَّ نَسِيعَ



تساؤلات تتسع

" العنوان مستوحى "

هل يمكن للإنسان أن يفقد السيطرة على أفكاره؟! ، أن يصبح العقل ألعوبة .. لأية أفكار تدخله ولا تبرحه ، وتظل تعربد وتعث ، ولا تخرج إلا إذا حلت مكانها .. فكرة أخرى أكثر سخافة أو إنحرافا ، وربما أكثر عمقا ، وتظل الفكرة تجر ورائها مجموعات من الأفكار اللاتمائية .. فى صورة أسئلة يجب أن يجيب عنها ، إلى أن تنبو بالعقل فكرة مجنونة فتحكم أصفادها حول العقل والحواس ..

" اليوم أول أيام عيد الفطر المبارك ، ومازالت القاهرة هى ملاذ الزائرين فى الأعياد والمناسبات .. رغم تحذير المسؤولين من السفر ، كانت الحكومة قد أصدرت إجراءات إجبارية .. لما يزيد عن ثلث سكان الدولة ، وخاصة المتوجهين للقاهرة والإسكندرية والجيزة .. بعدم الظهور إلا لعدد ساعات معين من النهار ، بعدها يتم الإعتماد على تقنية " الإختفاء الذاتى " ، وذلك بتناول قرصان من أقراص الإختفاء .. الصادرة عن وزارة الصحة ، والتي تبدى مفعولها بعد حوالى نصف الساعة ..

حالة إختناق شديدة فى ميدان التحرير ، أكثر من خمسة عشر حالة تصادم وسط الميدان ، الأفراد فى كل مكان ، على الأرصفة ووسط الطريق .. حتى فوق السيارات والحواجز المرورية ، لا تتعدى المسافة بين شخص والأخر النصف متر ، حركة المشاة متعطلة تماما .. والحر

يكاد يصهر المارين والواقفين ، لا يوجد مكان حتى لمرور رجال الإنقاذ .. لمحاولة العثور على حالات الإصابات وإسعافها ، حتى تحولت دماءهم إلى ذرات متجلطة على قارعة الطريق ..

لقد قرر فجأة عدد كبير من المتواجدين في الميدان .. عدم إستخدام أقراص الإختفاء ، كنوع من الخروج عن اللوائح وإستخدام مساحة حرية أكثر ... " ..

هل يمكن أن يحدث ذلك يوما ما ؟! ..

هناك بعض الأفكار .. تنهض باهتة غير مكتملة .. كسيحة ، وهناك أفكار تنهض مشتعلة .. تكاد تفجر الرأس ، ملهمة مبهرة ، وقليلة تلك المرات .. التي توافي تلك الأفكار عامة الناس ، فإما أن تلتقطتها .. وإما أن تطير فتطفئ الرياح نارها ونورها ولهبها ..

كانت الفقرة .. لكاتب شطح بعقله من أرض الواقع إلى المجهول ، ثم هبط بفكرة مجنونة ، وكم من الأفكار المجنونة ! ، ولكن ليست تلك القضية ، القضية الأساسية منذ خلق آدم .. أن الأفكار مهما بدت مجنونة .. فإنها تتحقق ، وإن التلفاز والراديو والموبايل والطائرة إلى آخره ، لأكبر دليل على تجسيد شطحات العقل وخيالاته ، وكم يدين العلم للأدب والفن ، في أنه يحول أفكار الكتاب والفنانين من شطط الخيال .. إلى واقع ملموس ، مهما حاول مؤرخيه ردها إلى قانون الصدفة ..

هل تعرف أن كلمات مثل المستحيل عدم الإمكانية العجز وما

يضارعها .. هي محض كلمات من صنع البشر ، ولا وجود لها على الإطلاق ، وأن كلمات مثل المعجزة والحارقة .. هي إمتداد لها ، فمذ أن رسخت بالعقول كلمات الإستحالة .. قبلت أن تجعل لها إمتدادا ، فأسمينا كل غريب بالمعجز .. وما أكثر ما نستعمل تلك الكلمة .. والحديث عن الصدفة وحدها .. يعد سذاجة علمية مفرطة ، فتفاحة الجاذبية .. لم تكن صدفة ، إندلاع البارود في معمل صيني .. لم يكن صدفة ، وجناحى إبن فرناس الذى هوى من قمة الجبل .. لم يكونا صدفة ، وكذا فأر والت ديزنى ، ومصباح إديسون ، وطائرة الأخوان رايت ، وسفينة أرشميدس .. الذى هرع عاريا كالمجذوب يصيح " وجدتها وجدتها " ، كل هذا وغيره الكثير .. لم يكن صدفة ، إنما كان يوما ما فكرة تجول فى خلد أحدهم ..

ومع كل إختراع أو إكتشاف جديد يفرح الكثيرين ، ويعتقدون أن العلم قد حل جميع ألغاز الوجود ، فيتسلح بعضهم بألفاظ هي أقرب إلى التدليس ، وتنطلق ألسنتهم بإجابة كل سؤال ومحير ، وكأن الإنسان قد ملك تمام المعرفة .. لم يبقى من شئى مستحيل ، وكأنه يقول الإنسان لا شئى .. والعلم بل المادة .. هي كل شئى

وقبل أن يفيق هؤلاء من جهلهم وغيبتهم ، تموج وتتسع أسئلة أخرى .. فى وعى إنسان آخر ، تقوده الى البحث والتنقيب والتفكير ، فتنبو فى رأسه أفكارا أخرى ، وتنبوءات وأحلام أخرى ، قد تتخطى الحدود الآنية التى تسمح الطبيعة بها ، وتتوالد الأفكار بتوالد

المشكلات ، فما نلبث أن ننام وقد قضينا على مرض ، حتى نستيقظ على ولادة مرض جديد ، فتتوالى الإقتراحات والحلول جديدة ، في صورة أفكار منفصلة أو متصلة ، وتستشرى الأمنيات والطموحات بدوام المشكلات ، وعجز الإنسان عن إيجاد مخرج منها ..

ويظل العقل يمجج الأفكار ، الفكرة تلو الفكرة ، " وتخيّل أن العقل ينتج ٦٠ ألف فكرة في اليوم " ، لتتصافر في متتاليات أفكار ، وكأنها أسراب عظيمة لطيور تحلق إلى مالا نهاية ، ويصبح السكون والبلادة منية بعيدة المنال ، والنوم في آخر نقطة في مجرتنا ، وهذا ما كنت أدعوه دوما .. بسرطان التفكير ..

ولا أصعب على الإنسان قضاء من ليلة .. تتنازعه فيها الأفكار ، وتسلبه سيطرته وقياده على الأمور ، فلا النوم يأتي ولا الأفكار تخمد ، عراق محموم ، وتخيّل .. قد يكون نتاج ليلة مؤرقة كهذه ، فكرة ، قد تغير التاريخ ، أو تبدل مسار العالم كله ..

عزيزى القارئ .. إنها قوة الأفكار المرعبة !! ..

ولقد غدت الأفكار .. تحلق تحليقا خرافيا ، مريعا ، وتقفز قفزات هائلة في سماء المجهول ، ولم يعد من حدود لشططها ، وأسفارها الغير مأمونة ، قد تتخطى الغلاف الأرضي ، وتعلو على مجرتنا ، وتصل إلى نهاية الكون ، وربما إلى ما هو أبعد من ذلك .. إن وجد أو لم يوجد ..

وإن الأسفار الأرضية للأفكار ، لهى أكثر بعدا لمن يدرك ، فالعقل قد يتعمق في أصل ونهاية كل شئ داخل أرضنا ، وربما داخل نطاق



مجهرى لا يتعدى النانومتر ، أو يتبحر داخل أعماق إنسان ، لا يهم الحيز ولا الحجم ، ولا الموقع الزمانى أو المكانى ، فليس للأفكار محددات ..

كل فكرة تنتج من رحمها فكرة أخرى ، أكثر عمقا وربما أكثر جنونا ، دون أن تأبه أو تلتفت لشيء ، مما جعل خارطة المحيريات فى هذا العالم .. تختلف وتختلط وتتبدل مرارا ، فتتأجج الأفكار وتنامت إلى حد مفرع ومزعج فى آن ، حتى غدا الأمر بمكان متقدم من الخطورة ، فما بات الناقد يحمى أو يكره ، ما عدنا نسمع غير رقعاته وصرخاته من أن لأخر ، البشرية فى خطر ..

وقديما .. كان العقل ينتج كل عدة سنوات .. فكرة خيالية وملهمة قابلة للتفيذ ، وبدأ الأمر يتسارع شيئا فشيئا ، وخاصة بعد أن صارت السرعة ومسح الزمن وإفتراسه .. هما لعبة العالم المقبلة ، فبتنا فى عصر الانقلابات السريعة ، وصار الزمن يحسب بأجزاء الثوانى .. بدلا من الشهور والسنين ، وكأن الأرض قد ضاعفت سرعتها فى الدوران ، فدار أهل الأرض فى دوامة التغير المتوالى والمذهل ، ففقدوا القدرة على إستيعاب الأمور ، ولم نعد نرى خلفية الأحداث ولا موقعها .. واليوم تكاد كل لحظة تتمخض بفكرة ، تهبط على أرض الواقع كالصاعقة ، فتنمحي نظم وتغير خرائط ، وتنسحق طرائق قديمة .. قد لا يمضى على مولدها شهر ، لتحل محلها أساليب أكثر ذكاء وسرعة وفعالية ..

ولكن السؤال الأهم ..

إلى أين ؟ ..

إلى أين سيصل بنا هذا التحليق المحموم ؟ ، أليس من نهاية لتوالد الأفكار وتناجها ؟ ..

أعتقد أنه لا إجابة لهذا الضرب من الأسئلة ، ولا معنا له أيضا .
فحيثما كان الإنسان ، أينما كانت الملغزات والمحيرات ، إنه إرتباط لا يفض ، وصلة لا تبتز ، خلق الكون ليبحث الإنسان فيه وينقب ، ولأن الدفائن والأسرار وفيرة ، لن يهدأ الإنسان عن التفكير ، والإنبهار بأفكاره المجنونة ، وعدم تصديقها ، ثم البحث والتنقيب ، ولا نهاية للرحلة مادامت الحياة في أرضنا قائمة ..

يقول الله سبحانه وتعالى { وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ } صدق الله العظيم
فغدا الإنسان في صراع مستفز .. بين الملغزات التي تتبين تباعا كلما مر الزمن " أمثال عالم ما وراء الطبيعة وعالم الأطياف وكائنات الفضاء وألغاز الماضي السحيق ... إلى آخره " ، وبين ما يفرزه عقله من أفكار تنافي قوانين اللحظة الآنية ، إلا أنه يتناوح بين اليقين والريبة .. حول أنها يوما ما ستصبح واقعا .. لتفرز وتمج أفكارا أخرى إلى مديات أبعد ..

إن العقل يتبع باطنه ، فيفرط في إنتاج الأفكار المهووسة .. حتى أنه قد يلحد أو يقترب من حافة الجنون .. بدعوى أنه إبداع أو أدب أو فن .. أو أي شرود آخر ، كل الحكاية أن القياد ينفلت .. وبعدها يفر العقل

الباطن من سجنه ويتحرر من محبسه .. وتفر حوله الألاف والألاف من الخرافات والإجترارات والوقاحات " مما لا يتصوره العقل الواعى " ، هى غفلة ولحظة غياب عن الواقع ، فتموج بحاره وتعلو أمواجها .. وقد تصل إلى السماء من فرط شعورها بالتحليق والحرية .. والإمتلاء الخرافى ، فتغرق كل أرض خصبة ولادة ، أو قد تستخرط فى خصوبتها وتنتشر وتتعلمق .. لتنتج أعوادا كالمردة ، وأوراق رحبة كالفيافى والصحارى ، ويصبح الأمر فضفاضاً .. محض سيلان للأفكار ..

إن تلك السدود التى يقيمها العقل الواعى على أنهار العقل الباطن .. ما هى إلا أعرافا وتقاليدا حتى لا ينفجر مجراه .. ويكون الطوفان الذى قد يغرق كل شىء ويغرقنا معه ..

إلا أن العقل الباطن أذكى وأدهى وأكثر صدقا ، يتلقف كل ما لا يقبله العقل الواعى من أفكار ، ويساعدها فى أن تلبس قناعا لتعاود الظهور .. بشكل مقبول ، بينما يموج الجنون والهوس فى عمقها ، ولأنه الأصدق تتحقق كل شطحاته .. تغدوا فى يوم ما واقعا ، فى سخرية محزنة من عقلنا الواعى .. الذى تكبر ونعيش ونتعلم ونزوج ونعمل بأفكاره المتبورة ، العاجزة عن تحقيق شىء ذا أهمية ..

وبتتبع بعض تلك الأفكار .. التى تبدو للوهلة الأولى ضرب من المستحيل والخبال ، والواردة إلينا فى الغالب تباعا عبر وسائل الإعلام المرئية والمقروءة .. أو عبر لمسات الكتاب والفنانين ،

سيصيبك ذهول محقق ، ولربما شعرت بأنك في مشفى للمجانين بحجم الأرض ..

فهل سمعت يوما .. عن الرحلات السياحية التي روجت لها أمريكا " منذ عدة سنوات " .. للسفر إلى المريخ ، ويمكن أن يقوم بها مواطنون عاديون ، فتلك أيضا كانت في الأصل فكرة في رأس أحدهم ، وبالأدهى من ذلك .. أن قامت كل من اليابان وكندا وبعض من الدول الأخرى بذات الفعل ، وما يدعو للضحك أن بعض الإحصائيات .. أظهرت رغبة ٧٠٪ من المواطنين لخوض هذه المغامرة مقابل ١٢٠٠٠ دولار ..

فما رأيك إذن في هذا النوع من الجنون ؟ ..

إبق مع سطورنا للحظات ، وحاول أن ألا تفقد صوابك ، فكلها أفكار وقعت ، ومنها الكثير مما تحقق ..

ألم يحدث لك مرة من المرات .. أن أصدرت أمرا لجهاز الكمبيوتر الخاص بك " بضغطة بسيطة على أحد أزراره " ، ويفاجئك بتلبية أمر آخر ، كإعادة التشغيل مثلا ، في تحد واضح لإرادتك ..

ألم تفكر لحظة في هذا النوع من التمرد غير الواعي ؟! ..

ماذا لو تقدمت التقنية العلمية " كما تواتينا أفلام الخيال العلمي " ؟ ، وأصبحت إرادة هذا الجهاز واعية ؟ ..

وماذا عن الإنسان الألى ؟ ..

توقع أن يرفض أوامر ، وربما ينفذ عكسها ، وربما تطور هذا التمرد

إلى نزعاته الذاتية .. للم شمل بنى جنسه ، لتحدى الجنس البشرى .. هل يمكن أن يحدث تطورا مضاعفا .. لتحويل الحياة فى عشيرة الإنسان الألى .. إلى حياة تحركها النزعات ؟ ، كتكوين فئات وأحزاب ، وربما لمنافسة الإنسان فى الحياة السياسية والإنتخابات وغيرها .. هل يمكن أن يحدث هذا ؟ ..

جالت أيضا تلك الفكرة برأس أحدهم ..

وبنظرة عن كذب ، وربط الفكرة السابقة بما يواتينا فى الواقع ، سنرى العديد من الإعتمالات المستفزة .. لبرمجيات الأجهزة الإلكترونية ، مثلا عندما تخادعنا أحيانا الأجهزة الذكية .. بالردود والرسائل الوهمية ، أليس هذا بإجراء يضلل إدراك ووعى الإنسان ؟ ، وسواء كان هذا بسبب عطل ، أو إجراء إحترازى قام بتنصيبه المبرمج .. فإنه يناهض إرادته ، وما من أحد على وجه الأرض " يتعامل مع تلك الأجهزة " .. إلا وطالعتة رسالة زائفة ، عن حالة الملف مثلا ، أو أعداد الملفات ، أو مساحة التخزين ، أو فعالية البرنامج المستخدم ونسبة عمله ... إلى آخره

وفى نوع آخر ، قد يتحالف البرنامج لحساب مستخدم .. ويقوم بخداع مستخدم آخر على الطرف البعيد ، عن طريق البريد الدعائى مثلا ، أو برمجيات التجسس ، أو إيراد بيانات وهمية ، أو السطو على مخصصاته إلى آخره ، ألا يمكن أن يتطور هذا الوضع ضد الإنسان ؟ ، إذا كنت تتشكك فى الأمر ، فأنت لم تتعامل مع تلك

البرامج يوما ما في حياتك ، فما عاد الأمر يخفى على صغير أو كبير ، فلا حديث لأوساط المتخصصين .. سوى عن التجسس وإختراق الأنظمة والجرائم الإلكترونية ..

فلو إعتبرنا ما سبق إرهابا أو تكهنا بإمكانية حدوث التمرد .. ولو بنسبة واحد في المليون ، مع الأخذ في الإعتبار عجلة الزمن التي تتسارع بوتيرة مذهلة ، وأن البرمجيات تتطور كل لحظة وليس كل ثانية ، إذن فهي فكرة قابلة الحدوث يوما ما !! ..

أما عن أقراص الإختفاء ، ففي تاريخ العلم مايشبه ذلك ، فلقد إقترح عالمى الرياضيات " نيكولاى نيكورو فينشى " و " غرايمى ملتون " .. منذ عدة سنوات .. فكرة صنع جهاز لإخفاء الأجسام ، على غرار أجهزة أفلام الخيال العلمى .. مثل ستار تريك وغيرها ، التي تخفى المركبات ..

وإقترح العالمان فكرة .. مفادها أن وضع أجسام قرب جهاز يدعى العدسة الجبارة ، يمكن أن يجعلها تبدو مخفية عن الأعين ، عن طريق تأثير فيزيائى يعرف " بالرنين الشاذ المتمركز " ..

ولقد قرأت ذات مرة .. أن إحدى دول شرق أسيا قد أنتجت نوعا من البذات ، يمكن لمن يرتديها أن يختفى تماما عن الأعين ، وتستخدم فيها ظاهرة إنعكاس الأشياء الخلفية للبذة إلى الأمام ، فلا يشعر الرائى بوجودها ، والغريب أنه تم طرحها بالأسواق ، ولكن بسعر غال جدا ، فلم تحقق الزواج المطلوب ..

وتلك أيضا كانت فكرة !! ..

.....

في عام ١٩٥٩ م .. تنبأ العالم الفيزيائي " الحاصل على جائزة نوبل " ريتشارد . ب . فيمان " أن العلماء سوف يتمكنون يوما ما من صناعة أدوات بالغة الصغر " في حجم ذرات التراب " ، ثم يستخدمونها في صنع أدوات أصغر منها ، ولم يكن لديه أية فكرة عن كيفية تحقيق ذلك ، وبدت أفكاره وتصوراته للكثيرين .. نوعا من الخيال الجامح غير القابل للتطبيق ..

لكن مع قدوم ثورة الإلكترونيات الدقيقة في صناعة الكمبيوترات ، " في السبعينات من القرن العشرين " ، بدا ما كان خيالا قبل ذلك .. قريبا جدا من الواقع ..

واليوم قد نرى أحد الجراحين .. يحقن محلولا داكنا في وريد ذراع المريض ، هذا المحلول يحتوي على آلاف من الروبوتات المجهرية " في حجم النانومتر " ، كل واحد منها مزود بمحرك دقيق لدفعها خلال مجرى الدم ، ولها مجسات كيميائية لتحديد الجلطات التي تهدد الحياة ، ومشارط بالغة الصغر .. لإستئصالها تماما ..

وفي غضون نصف ساعة ، تنتشر قوافل الروبوتات المجهرية في جميع الأوعية الدموية للمريض ، حتى تصل إلى قلبه ، وتحدد أماكن المتاعب ، ثم تبدأ في إزالة الكتل المترسبة من " الكوليسترول " من على جدار الشرايين ، إما بواسطة أدوات الحفر الدوارة ، أو بتوجيه

أشعة الليزر عليها ، ومن ثم يمكن إعادة تدفق الدم إلى معدله الطبيعي ، وإنقاذ المريض ..

ولهذه الآلات إستخدامات ومهام مذهلة ، قد لا يتصورها العقل ، فيمكن أن تهبط على معسكر للأعداء " كسحابة من الجراد الغاضب " ، فتدمر الأسلحة والمعدات ، أو قد تستخدم لتفتيت الملوثات الجوية .. وتحويلها إلى مركبات غير ضارة ، أو قد تتصافر وتعمل في تجمعات فتقوم بصنع اى شئ ، بدءا من الجسور التى لا تتأثر بالزلازل .. إلى ناطحة السحاب ، وما خفى أعظم ، فلا يعرف على وجه الدقة .. حجم المهام ونوعيتها ، التى تستطيع تلك الآلات الدقيقة القيام بها .. وكانت فى الأصل فكرة هامشية ، لا يعرف كيف يمكن تحويلها لواقع فما رأيك إذن ؟ .. فى غضون ما لا يعدو الخمسين عاما ، أمكن تحويلها إلى واقع ملموس ، الخيال إلى حقيقة ! ، والمستحيل إلى متاح وممكن !!

عندما سئل الدكتور " أحمد مستجير " رحمه الله .. ذات مرة .. حول إستنساخ الإنسان ، رد قائلا .. " لقد تم إستنساخ الأغنام والإبقار والجاموس والخيل والغزلان والدجاج ، وحتى القطط ، ثم إن المتوقع أن يكون إستنساخ الإنسان أسهل فى إجراءه " ..

لقد كان الهدف الأساسى من الإستنساخ هو تعديل الصفات الوراثية ، وتطويرها ، وتحسين السلالات ، وإيجاد حلولاً للمشكلات المتعلقة بالهندسة الوراثية ، وإنتاج مواد طبية هامة ، إلا أن الأمر حاد عن مساره ..

فتمذ أول عملية إستنساخ لكائن حى ، تبدل الحال تماما ، وذلك عندما قام المدعو " إيان فيلموت " بإسكتلندا فى فبراير ١٩٩٧م .. بإنتاج نسخة طبق الأصل " لحيوان مات قبل سنوات " وأسماها " النعجة دوللى " ، وكان نتاجا فريدا لم يحتضنه رحم أم ، أو حبوب لقاح الأب ، وإنما تم تخليق الجنين صناعيا ، وزرعه فى رحم أم " فى مرحلة لاحقة " ..

أبدى العلماء إنبهارهم ، وأعربوا أن ما حدث .. ثورة فى التطور السائد عن التكوين الطبيعى وزوال الحياة ، سواء من ضرورة وجود أوبوين والتزاوج والموت ، وكان قد أعلن " إيان " إثر تجربته ، أنه لا مجال لتطبيقها على الإنسان ، ولكن سرعان ما أيد فكرة إتاحة الفرصة لإستنساخ أجنة بشرية ..

إلى أن أعلن طبيبا بريطانيا يدعى " د . ريتشارد داوكن " .. وهو أحد علماء الإستنساخ المشهورين .. أنه بصدد إستنساخ إبنته ، وقال أنها ليست سوى عملية لإنتاج توأم ، ومن أنها إنطلق سباق الإستنساخ ، ولم يتوقف ..

ورغم القوانين والقيود .. التى فرضت لمنع تلك الممارسات ، إلا أنه تم التحايل والإلتفاف حول الأمر ، بوازع أن تجارب الإستنساخ البشرى .. إنما هى مستمرة لأغراض علاجية ، أو للحصول على أعضاء وخلايا وأنسجة بشرية ، فى حين غابت حقيقة الأمر .. وما يجرى فى المعامل عن الأنظار ، وتم التكتم عليه ..

وطاحت التطلعات بعقول العلماء ، فهم يتوقون لتوليد جنس بشرى .. وفق مواصفات يتفوق بها على الإنسان الحالى ، أى تخليق الجنس الأفضل ، أو السوبر ، إلا أن بعضهم يخشى من إنفلات السيطرة على الأمر كله ..

والغريب ، أن بعضهم أعلن أنه من الممكن " فى الغد القريب " إنتاج أول بشرى مستنسخ ، بل وطرح تلك الخدمة بصورة تجارية ، ويمكن أيضا التفكير فى نسخ بعض الشخصيات العظيمة ، إذا ما تم الحصول على بعض خلاياها ..

ورغم أنه لم يتم إستنساخ إنسان بالكامل إلى الآن ، " وهذا على حد ما نعلمه .. فلربما تم ذلك فى الخفاء ، وذاك ما عهدنا دوما عن ممارسات علماء الغرب .. حول التجارب ذات الحساسية الخاصة " ، إلا أنه تم إستخدام الإستنساخ فى إنتاج كائنات غريبة ، ذات صفات خاصة ، كخروف برأس ماعز مثلا ، أو تهجين الفصائل الكلابية مثل الكلاب والذئاب والثعالب والضباع ، أو الأسود والنمور والفهود ، وأظن أن أغلبنا قد شاهد الفيديو الشهير للأسد الأبيض ..

والخيال الخصب للإنسان قد يؤتى بثمار خرافية ، وبمرور سريع على أفلام الخيال العلمى لبعض الكائنات المبتكرة .. ستعرف مدى خطورة الأمر ، فتلك الكائنات المجمععة مع مرور الزمن .. قد تنتج وحوشا مما نراها على شاشات السينما ، ولسنا بمنأى عن ذلك المنحدر الوعر ، عن طريق تجميع الشرس مع الضخم مثلا ، أو الأكثر قبحا

مع المفترس ... وغير ذلك من الاحتمالات ، ولم يعد الأمر بمكان من الصعوبة ، فالأمر لا يتطلب مثلاً سوى زرع جنين أسد في رحم أنثى الفيل .. ليأخذ من صفات الإثنين معا ، فقد نرى يوماً ما فيلا برأس أسد ، أو العكس ..

وهكذا تظل الأفكار في تنامى وتوالب مع كثرة التجارب ، لنرى بأعيننا ما هو أكثر شراسة وغبابة .. مما نرا حتى في كوايسنا ..
وكم من تراكيب البشر التي تنتج أفكارا مذهلة ، فقليل من الذكاء وخيال خصب .. قد يلدنا من رحم المجهول أفكارا قد تدمر العالم في لحظة ، أو تنقله لعدة أجيال من التطور أيضا في لحظة ..

وما يثيرك أنه في خضم هذا التوالد الذى بات خارج السيطرة ، أن أمريكا القوة الأولى في العالم .. والتي تمتلك أعلى مستويات العلم والتقدم ، هى التى تصدر لنا دوما فكرة دمار العالم ، وإنتشار الكائنات الخرافية .. لتقضى على البشر ، فى حين أن العلم لا بد وأن يسعى لتأمين الإنسان على الأرض وتيسير حياته ، وما أكثر ما تعجب به أفلامهم من مصاصى الدماء والأحياء الأموات وكائنات الفضاء والخارقين وأشياء أخرى لا تفسير لها ، إلا أنها بالنهاية أفكار ..

إنهم يسعون على مستويين ، أولهما الوصول بركب الحضارة والتقدم إلى أعلى مستوياتها ، وتبنى الأفكار المبتكرة ، مهما كلفهم الأمر ، فإن لم يستطعوا إحتواء الأفكار والسيطرة عليها ، فتدميرها هو البديل ..
وفى ذات الوقت تحولوا إلى آلة ترويج للحرب العالمية ودمار الأرض ،

وكأنهم يصدرون العلم لدول العالم المتقدمة ، ويصارعونهم به ، أما أفكارهم المدمرة .. فقد صيغت خصيصا لدول العالم الثالث والفقيرة والضعيفة ، إذ يرون أنه لا فائدة من وجودها ، فهم محض عائق في طريق الأدمية ..

وهذا نوع آخر من إعتمال الأفكار !! ، فإما التحليق والإرتقاء ، وإما الهبوط والتدنى ..

وما فاق الحد ، أن أحدهم جالت بخلده ذات مرة .. فكرة تسجيل أصوات الموتى .. عن طريق التواصل مع أرواحهم وهى " ليزا بتلر " ، التى تساءلت يوما ما .. هل يمكن سماع أصوات الموتى على أشرطة كاسيت عادية .. مسجلة فى غرفة يخيم عليها السكون ؟! ..

وقبل ذلك اليوم بثمانية عشر عاما ، كان مخرج الأفلام الوثائقية والفنان السويدي " فريدريك يورجنسون " قدم بحثا رائدا حول ما يعرف بإسم ظاهرة الصوت الإلكتروني ، التى تعرف إختصارا بإسم " IVB " ، وهى طريقة للتواصل مع الأرواح ، ولكن ثمة من تشكك فى الأمر كله قائلا .. " أنها محض موجات للراديو " ..

ولكن بفضل فيلم " وايت نويز " ، الذى يتلقى فيه البطل " مايكل كيتون " رسائل من زوجته المتوفاه ، قامت " ليزا بتلر " بإدارة موقعا على الإنترنت " للجمعية الأمريكية لظاهرة الأصوات الإلكترونية " مع زوجها توم من منزلها فى رينو بولاية نيفادا ..

والغريب في الأمر .. أنه بعد ظهور " بتلر " على إسطوانة رقمية DVD مع صناع فيلم " وايت نويز " ، يشرحون فيها كيفية تسجيل ظاهرة الصوت الإلكتروني .. إنضم إلى الموقع ٨٨ ألفا من الأعضاء ممن قاموا فيما بعد بتلك التجارب ، وجاءت نتائج ملفتة ..

ويقول " أل بتلر " أنهم تمكنوا من تسجيل أصوات والد توم ووالدة ليزا وجدتها لوالدتها ، وطوال ١٥ عام وهم يتلقون أصواتا لأحبائهم ، عن طريق تسجيلها أولا ثم سماعها فيما بعد ، إذا أنها أصوات لا يمكن للأذان إستقبالها مباشرة ، وغالبا ما تكون الرسائل قصيرة حسبما يقولون مثل " إفتقدتكم " أو " أحبك " ، وعادة ما تكون الأصوات أعلى من مجرد الهمس ، وقال أحد المجربين إن رسالة واحدة من كل ١٢ رسالة من الموتى " شديدة الخطورة " ..

وقال " توم " بهذا الصدد .. " دائما هناك على الجانب الآخر من هو مستعد للحديث إليك ، لكن الوصول إلى محبوب أو شخص بعينه .. هو أمر يمثل أكثر من تحد "

وما تمخض به المشككون .. لكان كاف لأن يبعث الريبة حول مصداقية الأمر ، إذ علت أصواتهم بأن الـ " IVB " .. هي عرض جانبي لموجات راديو شاردة ، أو أنها نتيجة خيال إنسانى زائد عن الحد ..

وقال أحدهم .. " إنها فكرة سخيفة .. ببساطة العقل البشرى خلق كى يعثر على أنماط ذات معنى ، حتى عندما لا يكون هناك سوى

العشوائية ، من ثم فإنها ليست مفاجأة .. أن يعتقد بعض الناس أنهم سمعوا شيئاً في الصخب " ..

ورشتهم الإتهامات من كل جانب ، أهمها كان من جانب الجماعات الدينية الذين قالوا بأنهم يعبثون مع الجن ..

ولكن الناظر للأمر من بعيد ، يرى أن ٨٨ ألف شخص " من كل الأوساط العامة والمتعلمين " ، جربوا الأمر .. وأعلنوا وقوعه ، وشهاداتهم هي الأمر الوحيد البائن والصريح ..

أما عن صدق حدوث الأمر من عدمه ، فليس بمحط تصديق أو تكذيب ، كما أن أحداثاً مماثلة قد جرت بعد ذلك .. لأشخاص قاموا باختراع أجهزة لإستقبال الأصوات من العالم الآخر ، عبارة عن مسجلات بالحجم الكبير ، يعلوها هوائى تلسكوبى .. مزود بميكروفونات ، تم إختراعها من قبل مجموعة من مهندسى الإلكترونيات ، وقد تمكنوا من إنتقاط أصوات لحوادث وجرائم معروفة ، تم التحقيق بها مسبقاً ، ومسجلة بالسجلات الرسمية

وقد إطلعت بنفسى ذات يوم ، على ما يشابه ذلك فى أحد الكتب التى ترصد الغرائب حول العالم ، عن واقعة حدثت فى منطقة مثلث برمودا الشهيرة ، فقد سجلت الأجهزة أصوات إستغاثات لمن إبتلعهم المحيط فى تلك المنطقة ، وما يثير التساؤل أنه فى إحدى هذه المرات ، سجلت الأجهزة بالصوت والصورة حوادث طيران .. قبل وقوعها بعدة أيام ، وحرار العالم فى إيجاد تفسير لها ..

ولا عجب في ذلك ، فما عهدنا عبر التاريخ أنه ما من مستحيل ، لقد تكلم الجهاد ، ولو جلست لبرهة .. وتخيّلت تلك الحقيقة ، لقلت أنه قمة الجنون ، هل يمكن لحجر أن يتكلم ؟ ، لقد حدث بالفعل ، فأجزاء منه أدرجت في صناعة دقائق الإلكترونيات .. فتكلم ، وتحرك ، وركض ، وحلق .. وما يخفى لهو مستحيل اليوم .. وحقيقة الغد ، وهذا كله نتاج قوة الأفكار وتظل التساؤلات تتسع ، حول ما يمكن أن تفعله الأفكار في الغد القريب .. والمستقبل البعيد ، وما يزيد من هول هذه الإستفهامات .. أنه بات جليا أن كل فكرة ، مهما بدت خرافية ، فهي جزء من حقيقة بالغد ..

ولك أن تتخيل حجم الصراع في رأس لا تنتج إلا أفكارا مريعة ، وحتى الأفكار التطورية والتقدمية ، باتت نشعرنا بنوع من الرهبة والوجل ، عندما تدرك أن عالم اليوم بمعطياته ، بكل ما تحب أو تكره .. وما يكرهه فؤادك من إمتنان وإعتزاز وفخر به ، لن يكون له وجود بعد عدة سنوات ..



الْحَزْرَاءُ يُوسُفَ



أحزان يوسف

قصة يوسف ، لكم أثرتنى تلك القصة .. وإستفزت كل مشاعرى الإنسانية جملة واحدة ، ترح وفخر وأسى وإمتنان وطمأنينة وقلق ... إلى آخره ، ولكل موضعه ، وأظن أنها القصة الأكثر تأثيرا فى ضمير الديانات الثلاثة ، بها حملته من معاناة وجزاء ، وقهر ونصرة .. وعبرة لمن يعتبر ..

يقول الله سبحانه وتعالى { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ }
يوسف ٣

ولم تكن مصادفة أن تكون القصة الأولى التى تسمعها أذنى .. فتأخذنى من جملة قصص الأنبياء ، وأتذكر أن أحد شباب جيرانا وكان يدعى " شريف ج " .. هو أول من حكاها لى بعد أن أهاننى والدى بشدة .. إثر خطأ إرتكبته دون قصد ، فقد كنت صغير السن .. ولم أمر عليها بسور القرآن بعد ، فجاءت سيرة نبى الله يوسف شافية لى ، أنا من ربيت فى أحضان زوجة أب ، وكل من لاقوا مثل هذا الظرف .. يعرفون جيدا كيف تكون مشاعر طفل ربى بعيدا عن أمه . كانت كل كلمة توجعنى ، وكل توبيخ يهزمنى ، وكل مدح .. كيدٍ حانية تربت على جدار قلبى ، وفى ذاك الموقف على وجه التخصيص ، أحمدهم حكى جارنا عن النبى الكريم نارى ، وأهدأ ثورتى ، فلقد نفرت من والدى راكضا بكل ما أوتيت من عزم .. أنتوى ألا أعود إلى المنزل أبدا ، فتلقفتنى آياته كأحضان من الرحمة والمواساه ..

قص لى الحكاية من أولها .. من الرؤيا إلى السبع سنوات العجاف ..
وتحقق الرؤيا بالنهاية ..

{ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ }
يوسف ٤

{ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ
سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ
لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) } قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ
بِعَالَمِينَ (٤٤) } وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ
فَارْسُلُونِي (٤٥) } يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ
يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ
إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) } قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا
حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) } ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) }
ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ }

يوسف ٤٣ - ٤٩

{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا
مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) } قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ
(٥٥) } وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }

يوسف ٥٤ - ٥٦

{وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ
رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ
السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ
إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ }

يوسف ١٠٠

ولا أدري كيف أصف شعوري .. وأنا أنتقل مع يوسف من حدث
إلى حدث ، ومن أزمة إلى أزمة ، وكأني عشت معه الحكاية من مبدئها
، قهر الإخوة ومكيدتهم ، وسنوات الفراق والعبودية والسجن ، إلى
أن أذن الله بإنهاء سنوات العذاب والذل ، فيصعد نجم يوسف ..
ليعتلى عرش عزيز مصر ويؤتمن على مخازنها ، إلى أن يدين له أهل
الأرض بالنجاة من القحط والجفاف ، ليتصب يوسف بالنهاية ..
ليسجد أمامه أحد عشر أخا يأمهم يعقوب الكريم وزوجته ..

ومع كل إنتقال واكب يوسف .. أحداثا مغايرة ، وربما بشخص
أخرى .. كان يلتقيها في نهاية كل مرحلة .. ليودع آخرين ، وهناك من
صاحبه لردح طويل من الزمن خلال رحلته ، وعاشوا معه وصوله
ونجاحه ، ولكم كانت كل نهاية .. بداية طريق ، وكل مفترق ..
إنحسار عن إختبار أشق ، وكل باب مغلق .. مولج أمل جديد ..

وفي القرآن كرمه الله عز وجل تكريما فريدا ، إذ أورد إسمه صراحة
٢٧ مرة .. مرتببا بأنبياء الله العظام إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وكأنه
يكلل رحلة الأنبياء القدامى .. من رسخوا للعقيدة والإيمان بالله ،

وإصطفت سورة كاملة بإسمه .. علما بأن السور التي حملت أسماء
الأنبياء أو الرسل قليلة " آل عمران ، ويونس ، وهود ، ومريم ، وطه
، ولقمان ، وياسين ، ومحمد ، ونوح " ، من أصل ١٤٤ سورة ..
وأنبياء لم يعرف عددهم حتى الآن لكثرتهم ..
وللإنصاف .. لم أسمع إلى الآن ما يملك لبي .. مثلما فعلت سيرة
يوسف ، ولا أدري كنه هذا الشعور بالإنجذاب ، فقصص أنبياءنا
كلها معبرة .. ومتخمة بالمعاناة ، إلا أن شبا مبهما ينشب في خلدي ..
بين ما عانيت في حياتي " ومازلت أعانيه " وبين ما عايشه يوسف ،
بيد أنني لا أجد رابطا واحدا .. سوى الخطوط العريضة ..
كنت أقول في نفسي دوما " لا بد وأن كل من عاش مقهورا على وجه
هذه الأرض .. يجد هذا الشبه ، يستشعره ، وربما كان رجاءنا جميعا في
الله .. أن يزرغ على أديم حياتنا المنسحقة نجم الخلاص ، والمتتبع لسيرة
يوسف .. سيجد لمحات عدة تكشف عن عمق التجربة وشراسة
معاناته ، وإنني لأعتبر أن اللحظة التي غدر به إخوته .. لهي بقدر
مأساوي يضاهي ضراوة غدر قابيل بأخيه ، ولتيني أعلم ما جال
بصدر يوسف .. وإخوته يوثقونه ويلقونه إلى بئر مهجور " بغية أن
تتلفه أي من القوافل المارة " ، وما طوته أنفسهم كان أفدح ..



{ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ
السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } يوسف ١٠

ولم أعلم من قبل .. برباط رحم تم بتره بهذه الفجاجة والغلظة ، دون
لحظة تقهر أو ندم ..

{ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } يوسف ١٢
{ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ
بَأْمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } يوسف ١٥

{ وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ } يوسف ١٦
{ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ
وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ
كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى
مَا تَصِفُونَ }

يوسف ١٧ - ١٨

وإن القتل غدرا هو أرحم .. من أن يهملوه يياشر وزرهم في حقه ،
تلفحه ضغائنهم وحسدهم الأسود ، ويفطر قلبه قسوتهم وصلفهم ،
وما أقساها من برهات على نفس بشرية ، بيد أنى أظن أنه لولا
إطمئنانه بنبوته .. وبقينه بأن الله لن يضيعه .. لمات الرجل كمدا قبل
أن يصل إلى قاع البئر ..

وما تحمله يوسف في الأيام اللاحقة وتحولاتها ، من ربيب أبيه وعزيزه
.. إلى ساحات الرق والبيع بأبخس الأسعار ، ليعدو الوصف ويفوقه

{وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا عَلَاقٌ
وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرُّهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ
دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ }

يوسف ١٩ - ٢٠

لقد قرأت كثيرا في التنمية البشرية وتوصياتها ، وإطلعت على العديد من قصص النجاح عبر التاريخ ، إلا أنه لم يأتيني يوما .. ما يضاهاى رحلة يوسف التى كللها الله بالجزاء الأسمى للصابرين المحتسبين ، فهى رحلة تحمل بين طياتها .. كل ما أنتجته قرائح الفلاسفة والحكماء حول الحياة وصعابها ، وكيفية المرور عليها وتخطى عثراتها ، إنها بحق الوصول من رحم المعاناة والقهر .. إلى مراسى الناجين ، الناجحين بتفوق ، إنها الرحلة المثلثى التى لم يقطع سيرها قنوط أو يأس .. وما يبهرك أن يوسف من البداية .. كان يعلم أنه ماض فى طريق آخره نجاة ، فبدأت رحلته مذ أن عرف الطريق .. وعلى وجه التخصيص مذ أن قص لأبيه رؤياه ، فأمره يعقوب بالأى ينطلق بها لسانه مع أحدهم ، كان يعرف أن يوما ما .. سيسجد له أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ، وأزهد الرجال ذكاء لو سمع برؤياه .. لكان سيعى بكل سهولة ويسر أن الأحد عشر كوكبا .. هم إخوته الأحد عشر ، وما بقى إلا أباه الذى مثلته الرؤيا بالشمس .. ورغم ما تكهنته نفسه .. " ويعلم الله إن كان يعقوب النبى قد أفصح عن تأويل الرؤيا .. أم أنه كان يتكهن أيضا " ، سار يوسف فى رحلته

وعاشها لحظة بلحظة ، دون تعجل أو ترقب ، لم يشغل باله بأمور جانبية لا تجدى ولا تؤتى ثمارها ، صعدت به الأيام في قصر العزيز .. لتتهدر أخريات إلى غياهب السجن ، ثم صعود آخر إلى أن ناهز ما قدر له ، وبين طيات كل إنتقال الكثير من الشقاء ، والكثير من التعلم والنضوج ، إستقبل أيامه برضى وإحتساب

، فغدت السعادة نتاج تعاسته ، والراحة نتاج آلامه ، والغنا نتاج فقره ، والوصول .. نتاج شتاته وضياعه وتعثره لمرات ومرات ..

أذكر أنى قرأت قبلة ذات مرة للدكتور " إبراهيم الفقى " .. بعد أن إجتاز رحلة مبهرة من النجاح والوصول يقول فيها .. " ما كان يبدو مؤلماً وجدته مريحا ، وما كان مخزنا وجدته مفرحا ، وما كان يبدو صعبا وجدته سهلا ، وما كان يبدو فشلا وجدته نجاحا ، وما كان يبدو مظلما وجدته مشرقا ، وتعلمت ألا أنظر إلى الأمور من ظواهرها .. "

وبعضهم شبه النجاح في الحياة .. بجبل الجليد الطافي على سطح الماء ، لا يرى إلا قمته .. بينما يغوص بكتلته العظمى إلى العمق ، وكان وجه التشبيه .. أن تلك القمة لا تمثل إلا نهاية الرحلة ، أما جرمه العظيم فهو ما لا يراه الناس .. ويمثل معاناة ومشقة الرحلة ، والصبر ، والمداومة ، وخيبات الأمل ، والتضحيات ، ومرات الفشل ، والإصرار على المضى لنهاية الطريق ..

ولكم يبهرك .. أن الشخص الأكثر حفا في الجمال والحسن على وجه

البسيطة ، كان الأكثر حفا من القهر والشتات والذل ، بيد أنه طوى مسيرته راضيا ، ليعرف كل إنسان أن المقادير .. لا توزع عبثا ، وأنه لا قاعدة ثابتة فى الأمر ، فليس كل راض .. هو موفور حظ من الجمال أو المال أو الصحة أو الذرية ... إلى آخره ، إنما هى قسمة عدل .. تسوقنا من قدر إلى قدر ، فكان يوسف البهى .. خير مثال للصلافة والعزم ، فلا يقلل من صلافة الرخام .. كونه لامعا مصقولا ..

وإن فكرة الإذعان الدائم والمستمر لمسئولية النبوة والرسالة " دون كلل أو ملل أو ضعف " .. لهو أمر داع للتأمل الطويل ، لقد كان يوسف يعرف أنه ابن النبى يعقوب .. وأن منشأه كنعان " أى أنه ليس بطفل تائه .. لا يعرف له آل " ، ورغم ذلك لم يفكر فى الفرار من أسرهِ ولو لمرة واحدة ، حتى بعدما صار يافعا وذى قرار صائب ، كان من اليسير .. أن يلتحق بأحد قوافل التجارة المغادرة إلى كنعان ، ولم تكن أى من القوافل ستنمىع من إصطحابه .. إذا ما علمت أنه يوسف قرة عين نبيهم يعقوب .. الذى قتل ألما وبكاء على فراقه ..

إلا أن يوسف كان ملتزما مسئولا ، يعلم أن الله سيهبه النبوة " من جملة ما أخبره به يعقوب النبى إثر حلم الأحد عشر كوكبا " ، فإنصاع راضيا ، وذاق فى سبيل ذلك من الإذلال والرق والتحكم فى النفس .. ما يفوق الوصف ، دون أن يملك القدرة على التذمر أو الإحتجاج ولك أن تتخيل كيف أمرته زليخة " امرأة العزيز " .. أن يذعن إلى أمرها مرتان فى معصية الله .. دون أن يملك رفاهية الرفض أو الإبتعاد

، كانت أولاهما عندما دعته إلى قاعتها .. وراودته عن نفسه .. وهو يعلم أن دعوتها كانت ليقاسمها وزر عظيم ..

{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)
وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ
قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ
هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ
وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ
قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ
بَأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ
نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ
وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ
الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ
كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ
كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ } يوسف ٢٢ - ٢٩

والمرّة الثانية .. عندما دعته ليدخل على نسوة المدينة .. " اللائى
سلقنها بألستتهن الحادة ، وسخروا من هيامها بيوسف وولها ..
وولوعها بحسنه وجماله " ..

{وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةٌ الْعَزِيزُ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا
حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ

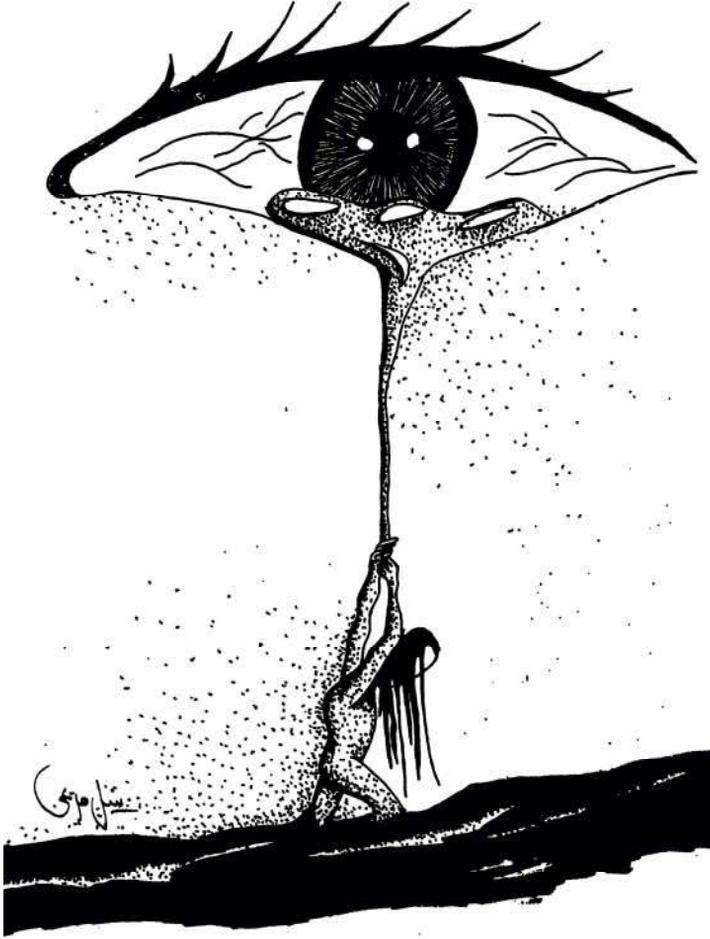
إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ
عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أُكْبِرَتْهُ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ اللَّهُ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ
هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ
عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسْجُنَنَّ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ
الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا
تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)
فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ
بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسْجُنَهُ حَتَّىٰ حِينٍ {

يوسف ٣٠ - ٣٥

لكن عناية الله تعمدته .. فنصره الله بنصره ، وأظهر براءته على مرأى
من الملك ، ومن ألقوا به إلى غياهب السجن ..

{ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوتَنِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا
بِالْ نَسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا
خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يَؤُسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ
سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ
لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا
رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ }

يوسف ٥٠ - ٥٣



وسر النبوة الذي حمله يوسف بين طياته ، ووطنه بين وشائجه
لسنوات طوال " دون أن يعلم بأمره أحد " .. لهو أدعى أيضا للتفكر
مليا والوقوف طويلا ، فكل دعوة لنبي أو رسول .. دوما ما كانت

تبدأ في الخفاء إلى أن ييسر الله لها سبل الظهور والإعلان ، إلا أن أنبياء الله ورسله لم يدعنهم أسر أو عبودية ، " إلا موسى - عليه السلام - الذى ربه فى قصر فرعون .. على ما أظن " ، أغلبهم إما كان متعبدا ، أو حر طليق بين الناس ، أما أن تعيش عبد فى قصر يدين للأوثان بالعبودية ، ولست حرا فى قرارك .. فوقتها يدعونك لأمر ليس لك إلا أن تلبى .. هو أمر ضليع يهزم أعتى الرجال وأكثرهم جلدا ، حتى أنه يقال أن سنوات السجن .. كانت أرحم من عبودية القصر ، فكان

السجن مكانا لاثقا .. لإطلاق الدعوة لعبادة الله والإعلان عنها ومن أحد المشاهد المؤثرة .. ذاك الذى لقى فيه يوسف إخوته .. بعد أكثر من نيف وثلاثين عاما " فى أغلب الروايات " ، وأنى للمظلوم أن ينسى ظلمه ، عرفهم فى حين لم يعرفوه ، لم يتذكروا ذاك الوجه الذى أبكوه بحسرة وفطروا قلبه كمدا منذ سنوات مديدة ، لقد تاهوا عن أخيهم .. وكأنهم أجمعوا أن يسقطوه حتى من ذاكرتهم " لشدة مقتهم وبغضهم له " ، رغم أن وجع الوزر الذى إقترفوه بحقه ، ونار أبيهم التى لم تحمد ليلا أو نهار .. لكان أدعى بأن يكون وجه يوسف محفورا فى ألبابهم ، كلما تذكروه .. كلما تذكروا وزرهم العظيم ، وتذكروا أبيهم .. الذى إعتصره الحزن فبراه وأذهب بصره ..

{ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ }

يوسف ٥٨

ولربما تكون تلك الأجواء التى عاشها يوسف فى نهاية مدته بمصر ..

قد كست ملامحه عزا وثرءا " بما يخالف ملامح الكنعانيين .. المتأثرة بالحرور وقسوة الفياى " ، علاوة على مكانته أنها كعزىز مصر .. قد إستحالت فى عقولهم أن يكون الرجل .. يمسهم من قرىب أو من بعيد ، وربما كان تنامى حسنه وبهائه عبر السنين .. إلى أن صار شابا يافعا ذو طلعة وضاحة " تفوق الوصف " .. قد أزالآ من خلدهم أية إرتباط بين ملامح يوسف الصغىر وعزىز مصر ..

وإنى لأرى بعىنى صدمتهم ، وعدم تصدىقهم لما رأوا أخیهم علىه .. من حسن الطلعة ، والمكانة المرموقة " والعز الذى يفوق كل عز " ، وإعتلائه أرزاق العباد فى أزمان القحط ، أراهم يحملقون .. شاغرى الفاه .. فى بلاهة وبلادة ، تكاد أعىنهم أن تطفر الدموع قهرا .. على مكانته ومكانهم ..

أما عن معرفته السرىعة لهم .. فىمكن إستىعابها بسهولة وىسر ، ولأسباب عدة ، أولها أن يكون قد تحرى سالفًا عن أحد عشر أخوا سىقدمون من أرض كنعان لمصر .. للآزود فى السبع سنوات العجاف ، فأخبره حراسه .. وقت قدومهم ، والسبب الثانى .. هو تنامى وتبدل شكله الجذرى .. على عكس هىئات إخوته ، ولا أقصد هنا الإلتقال من حىاة البادية لىاة المدىنة ، أو حىاة السجن والتحرر ، وإنما أقصد الخلقة والملامح ، ففى مراحل الإلتقال من الطفولة إلى المراهقة إلى الشباب .. تبدل الخلقة تماما .. فىصعب أن تتعرف على شابا فى طور الثلاثىن .. لم تره منذ الطفولة ، أما عن تغىر الخلقة من مرحلة

الشباب وحتى الشيخوخة .. فهي تغيرات طفيفة وبطيئة ، لذا فلا بد وأنه عرف بعضهم " كبار السن " .. الذين بقيت نتفا من ملامحهم القديمة

ومن المشاهد المؤثرة في سيرته .. الألم الذي لحق بقلب يعقوب النبي .. عند معاودة الكرة وفقده بنيامين ، إذ جاءوا أبيهم يرغبون في إصطحابه إلى مصر ، فجددوا بقلبه الذكرى القديمة المؤلمة .. ذكرى خيانتهم الأولى ، مستخدمين ذات الوعود والعبارات ، فقبل نيف وثلاثين عاما قالوا ..

{ أَرْسَلُهُ مَعَنَا عَدَا يَزْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ }

يوسف ١٢ - ١٤

{ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ }

يوسف ١٨

وعاودوا الكرة للمرة الثانية ..

{ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ }

يوسف ٦٣ - ٦٤

{ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتِنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ }

يوسف ٦٦

{ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَإِصْبَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ }

يوسف ٨٣ - ٨٤

ومن المشاهد التي أتخيلها على الدوام .. ولا تغيب عن خلدی لقاء ان ، لقاء يوسف بأخيه بنيامين ، ولقاءه الثاني بأبيه يعقوب النبي .. أما عن لقاء بنيامين .. فهو لقاء محير للغاية ، فلقد كانت أعمارهما متقاربة .. وطويا مراحل الطفولة والمراهقة والشباب خلال سنوات البين والفرق ، أى أن شكلهما تغير بالكلية .. مما يعنى أن كليهما لن يتعرف على الآخر ، كيف إستقبل يوسف أخيه ؟! ، كيف رأى كبره ؟! ، وهل ملأت طلته الغريبة عنه .. عظيم شوقه وإحتراقه لأكثر من ثلاثين عاما ؟! ، وهنا أقصد تأثر اللقاء .. هل طفرت دموعه ؟ .. أم صدمته أساريره وقسماته ونماء جسده وعلامات الكبر ؟ ، " وهذا عرض نفسى يعرفه الأطباء النفسيين جيدا " ، كيف تلقى كليهما الآخر ؟ ، ترى من سبق الآخر فى التأثر والبكاء ؟ ، يوسف الذى تاق شوقا طوال سنوات مديدة لضممة من أخيه ؟ ، أم بنيامين الذى تمزق فؤاده مرارا على أبيه .. الذى لا يكل عن ذكر يوسف والبكاء عليه ؟ ،

علاوة على قهره لضيقه الأكبر؟ ، ترى من كان أكثر إنفعالا؟!
، كلها أسئلة توج بالأس ..

{وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
يوسف ٦٩

كما أن ثبات يوسف حيال إتهامهم له بظاهر الغيب بالسرقه في صغره .. عندما أتهم بنيامين بسرقة صواع الملك .. هو أدعى للتفكر أيضا ، فما كان يصعب عليه أن يقارعهم ، أو حتى أن يأمر حراسه بسجنهم ، إلا أنه ظل ثابت الجأش .. يعلم ما ينبغي أن يفعله على وجه التحديد ، وجانب آخر للموقف .. هو إصرار إخوته على إحياء الكره الواطن في قلوبهم .. لم تزحزحه الكروب وسوء الأحوال ، والحزن الذي ما ينفك يفترس عافية أبيهم ..

{قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ }
يوسف ٧٧

أما عن اللقاء الثاني ، لقاء يوسف بأبيه ، فأكاد أتميز ترحا ، وتضربني الحيرة .. بمن أبدأ ، كلاهما عاش ينظر فؤاده على الآخر ، يوسف الذي عاش يحمل هم أبيه الشيخ .. الذي حتما لن يقوى على فراقه " فهو يعلم قدره في قلب أبيه " ، متناسيا كروب رقه وأسره ، ويعقوب الذي إبتلاه الله بالشتات والحيرة ، فتمزق قلبه ما بين موت ابنه .. و يقينه بأنه مازال على قيد الحياه " رغم هزة آله به .. وإتهامهم له

بالضلال المستقيم " ..

{ يَا بَنِي آدَهْبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْسُّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ }

يوسف ٨٧

{ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ }

يوسف ٩٥

كلاهما عانى أشد المعاناة وأقساها ، وأصل الإبتلاء الأقوى .. كان لكليها .. النبي الأب والنبي الابن ..

ولقد كان الإختبار عسيرا ومؤلما للغاية ، فمن يتحمل فراق قره عينه لكل تلك السنوات المديدة .. دون أن تبرد ناره أو تخرج معزته من قلبه ، هو لم ينسأه ، مازالت أيام العام الأول .. هى ذاتها أيام العام الثلاثين ، نفس القوة والحدة والوجع ، وخبا العمر والعافية بين ذلك وذاك .. إلا أن الإشتياق لم يجبو ، وكذا يوسف ظلت أوجاعه وألامه فى

أوج إيلامها طوال الرحلة ، لم يقدر الله أن ينسى أحدهما الآخر ، لأن لكل درس يتعلمه ، علم الله يعقوب أنه لا يجب أن يحوز يوسف كل قلبه .. فالله الأولى بمحبته ، يليه يوسف وإخوته على السواء ، أما درس يوسف فكان درس نبوة .. ليقوى عوده ويشتد جلده .. وتزداد بصيرته وحكمته ، وليبلغ رسالة الله .. ولم يكن ليتأتى كل ذلك إلا عبر رحلة قاسية من الأسر والعبودية والسجن .. والظلم والفراق .. ولقد جازى الله كليهما فى نهاية الرحلة .. خير الجزاء ، فهذا يعقوب

الذى فطن لمقصد الدرس .. ورد إليه حبيبه بعدما ظن أنه لا لقاء .. وإرتد بصره كأنها لم يبك يوما ، وجمع الله شمل الأشتات تحت مرآه وبين ذراعيه ، أما يوسف النبى .. فلقد كان أسمى جزاءه أن إستطاع أن يبلغ رسالته إلى أهل مصر " الذين تشوهت عقيدتهم ، وماجت عبادة الأوثان من أقصاها لأدناها " ، وحاز عزا وشرفا لم يكن ليحلم أن يناله يوما ، وبیده تبدلت الأحوال رأسا على عقب ، أعز الأصدقاء وأذل الأعداء .. ثم ساوى بين الرؤوس عبادا لله وحده ..

ومما دعانى للتفكر كثيرا .. تلك الإنتقالات الكبيرة والجذرية فى حياة يوسف ، من رضيع آمن ، إلى طفل يتيم ، إلى الضياع والفراق ، ثم حياة الرق بأشكالها ، ثم الظلم والسجن ، ثم الجاه والعز .. ليتهى الشتات والفراق ليجلب ذويه إليه .. راعيا ونبيا وسيدا ، ولكم ذبح يوسف على أيدي رفقاء الرحلة ، إلا أن جلده وصبره ومثابرتة وإصراره وإستمراره وثباته .. كانت مضربا للمثل ..

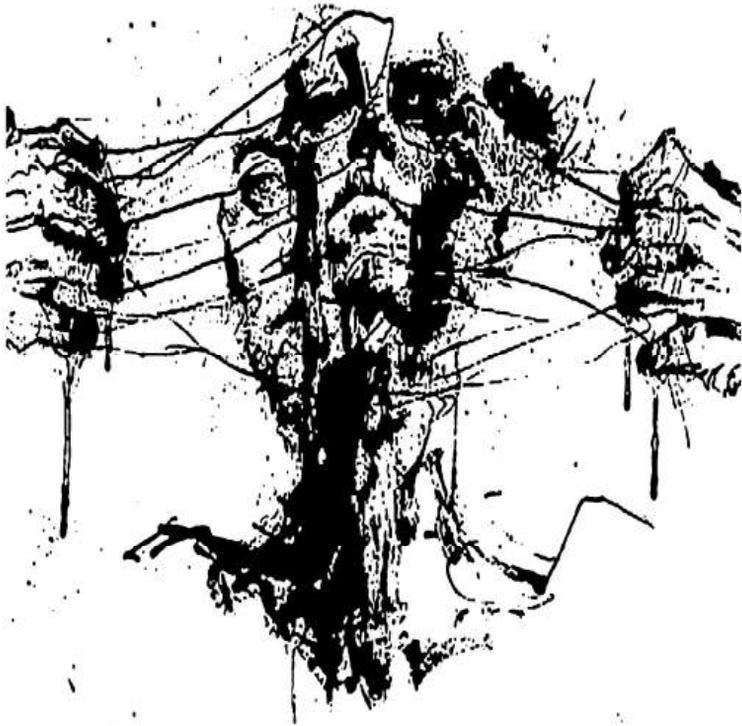
ولقد كان يوسف ضيفا عزيزا على آى القرآن الكريم .. رغم عدد مرات ذكره الكثيرة ، إلا أن أول ما تستشعره نحوه .. أنه الضيف الحاضر الغائب .. حتى فى السورة التى تناولت قصته .. كانت الإنتقالات فيها كبيرة " أعد قراءتها ، وستشعر أن الفارق الزمنى بين كل حدث وآخر .. أعواما مديدة ، قد تصل إلى ما يعدو العشر سنوات " ورغم ذلك لم يفتقر خطوه .. للترابط والإتصال وإنى لأتأمل مرارا هذا التمام فى الخطو والتقدم ، وكأن الرحلة جبلت

في الأصل .. لتكون نموذجا لكل باحث عن النجاح ، نموذجا كامل الأركان .. من حيث البداية والمعاناة والوصول ، والمحافظة على القمة ودوامها ، نتخذ منه العظة ، ونستشف أعمق توصيات التنمية البشرية .. التي يدعى الغرب مرارا أنهم من إكتشفوها مؤخرا ، وليس أعظم من أن تحاكي تجربة نموذجا بشريا ناجحا .. هي في الأصل لنبي .. وبالنهاية .. أشعر أنني بحاجة إلى أفراد عمل كامل لهذا النبي ورحلته ، فهازلت مشاعر النقص تقلبني ، مازال في جوفي حديث كثير ، ونقاط جمّة لم أستعرض لها ، فثراء مسيرته وعظيم تأثيرها في نفسي وفي نفوس العامة .. من الصعب أن تمر مرور الكرام ، وإني لأغار بشدة من هؤلاء الذين أقاموا مجلدات عظيمة عن قصص الناجحين .. لم يكن يوسف منهم ، وإني لأترفع به عن كل النماذج الناجحة .. بعد رسول الله محمد " صلى الله عليه وسلم " .



سید علی

قرارات مُفاجئة



قرارات مفاجئة

تقول الحكمة .. " لا تملأ فمك مرة أخرى قبل أن تبتلع ما فيه " معنى كلمة قرار يأتي من أصل يوناني وهو " دوكايتري " .. أى قاطع ، أما الفجاءة .. فهي كل ما يأتي الإنسان دون أن يتوقعه ، لذا فالقرار المفاجئ .. هو أمر قاطع لا يتوقع حدوثه ..

هو عيار نارى إنطلق بطريق الخطأ من فوهة سلاح .. بيد شخص لا يحسن التصويب ، وما أكثر الأعيرة الحائدة فى زماننا هذا ، وفى الأصل ينتج القرار المفاجئ فى غير موضعه .. كالحزن أو الغضب ، مثله مثل الوعود المفرطة فى أوقات السعادة ..

ودائما ما يكون التسرع والغضب والعناد .. قرناه ووقوده ، وياليت الأمر ينتهى عند هذا الحد .. فالندم دوما مرماه اللإرادى ، فكم من المرات التى مجت فيها أفواهنا حديثا .. ألبأنا إلى التقهر ، وكم من خيبات الأمل والحسرات .. لاحقت المباغتين ، وأذكر أناسا داهمتهم الحسائر .. بإنطلاقة فاه فى غير محطها ، بقرار مفاجئ ..

والنتائج هنا قد تكون كارثية ، وربما مصيرية .. فقد يفقد الفرد عمله أو ماله أو منجزات أو أهدافه أو أحلامه ، وقد تنتهى علاقات كالزواج أو صلة الرحم أو الصداقة ... وغيرها ، وربما تغير نهج الآتى من أيامه للأسوأ ، وبالنهاية لا يحقق القرار المفاجئ ما يربو إليه ، فلن تستطيع مهما أوتيت من قوة وحكمة وبصيرة .. أن تغير إلا نفسك ..

يقول " توماس كيمبلس " .. " لا تغضب ، لأنك لا تستطيع جعل الآخرين مثلما تود أن يكونوا ، طالما عجزت أنت عن تحقيق ما تريد أن تكون " ..

وإنما هي لحظة .. يغيب فيها العقل ويحضر اللسان ، يندفع دون توجيه .. بإيقاع متأجل ووتيرة متسارعة ، إندفاع خارج سيطرة العقل .. بلا إحترزات ، بحسابات إفتراضية وهمية " إن وجدت " ، لحظة وهن ذهنية .. وخيبة فكرية ..

يقول " نابليون " .. " الرجل القوي .. هو القادر على قطع الإتصال بين حواسه وذهنه .. وقتها شاء " ..

ويقول الدكتور " إبراهيم الفقى " .. " عندما تبني الأحاسيس على منطق معين .. يكون القرار أفضل .. لكن لو أتت الأحاسيس في المقدمة .. فهنا تكون الخطورة " ..

القرار المفاجئ هو محك خطر للغاية ، هو حافة الهاوية بعينها ، وبلا ثبات إنفعالى .. فلا مأمّن للفرد أو ضمان وحماية .. من شراسة وتبعاته ، فهو فعل .. بلا رجعة أمنة ، أو فيئة سالمة ..

وللعقل والقلب إستراتيجية عمل وتناوب .. هى التى قد تعطل أحدهما وتشغل الآخر ، مما قد ينتج عنه القرار المتسرع ، فعندما تتولد فى عمق دماغك فكرة معينة " مثل الغضب مثلا " .. فإنها تفتح كل الملفات الخاصة بالغضب من مخازن الذاكرة ، بل وتضيف إليها ما يقويها وينشطها ويزود طاقتها ، بينما تغلق كل الملفات الأخرى .. مثل

الملفات المسئولة عن التسامح مثلا ، أو الراحة ، أو الثقة ، أو السعادة ، أو الأمل ، أو الشجاعة ... إلى آخره ، " ولك أن تتخيل قوة العقل .. عندما تعلم أن لديه المقدرة على إستدعاء ما يعدو الـ " ٦٠٠٠٠ فكرة " يوميا من مخازن الذاكرة ، وإفرازها للإنتشار " ، وبمساهمة فريدة .. يتدخل العقل الباطن بكل أسلحته ، " ذلك الطفل الخبيث ، الصادق اللئيم ، المتحفز دوما " ، يسلط على عقلك الواعى .. أكثر من ٢٦٤ قانونا رادعا ، وكأنه يحاكمه على سيلان أفكاره .. غير المسئول ، فيطبق عليه مثلا قانون " نشاطات العقل الباطن " .. الذى ينشر فكرة الغضب فى أرجاءك بضراوة قاسية ، فتتولد حساسية رهيبة تجاهه .. ليعمل ضدك .. وليعطيك كل المنطق لتصديق حاجتك له ..

ثم يقرر بغتة تطبيق القانون الثانى .. " قانون التفكير المتساوى " ، فيخرج من مخازنك الذهنية .. كل الأحداث التى غضبت فيها طوال حياتك " مهما كانت كبيرة أو حقيرة " .. ليدعم قوة غضبك الحالى بقوة الحالات التى مررت بها سابقا ، ويقترح عليك طرقا أخرى للغضب ، فإذا كنت تقف غاضبا .. يذكرك بالمرّة التى حطمت فيها جهاز التلفاز .. يصرخ فى عمقك كالشيطان " إفعل هذا الآن " ، وما رأيك أن تقرع أحدهم بحجر ليعرف كم أنت غاضب .. فعلتها ذات مرة وأتت جدواها جربها الآن ... وهكذا ، " وما أقسى ذلك .. فقد يكون هذا القانون هو الحكم بالإعدام عليك دون تحقيق ، ففى

غضون لحظات قد يذكرك بالجلطة الدماغية أو القلبية .. التي داهمتك
عندما رسب إبنك في الثانوية العامة مثلا ، فيعلو صوته داخلك .. ما
رأيك أن نجرب هذا معا .. لعله يؤتى جدواه " ، فيطيح بعقلك
الواعى .. بفيض من أفكاره المتراكمة ..



ولا يكتفى بذلك .. فيسلط عليك أخطر أسلحته " قانون التركيز " ..
الذى يدفعك دفعا تعسفيا للتركيز على الغضب ، ومحو أية أفكار

أخرى ، بل وتعميم الغضب على كل شيء ، فترى الكون كله غاضبا .. الشمس شديدة الحرارة .. لأنها غاضبة ، وذراعك يؤلمك .. لأنه غاضب ، وكوب الماء إنسكب بغتة .. لأنه غاضب أيضا .. وبما أن العقل لا يستطيع التركيز إلا على شيء واحد .. فليكن هو الغضب ، بإعتباره آخر تجربة مررت بها ، وتبدأ في إصدار أحكام على كل شيء .. ويتأهب العقل لإصدار قرار ورؤية مستقبلية سوداء .. وهنا يأتي دور " قانون المراسلات " .. لتصب جام غضبك وترسله إلى كل شيء .. وليس من أغضبك فقط ، فلو أغضبك إبنك مثلا .. تجد نفسك ترسل ذات الغضب إلى بقية إخوته ، وزوجتك ، وأمك ، وكلبك ، وعلبة السجائر بيدك وهكذا ، لينطبق عليك بالتبعية " قانون الإنعكاس " .. فيعود إليك نفس الغضب الذي أرسلته لمن حولك .. ولكن بقوة أعلى ، ومقدرة أشرس ، فتصرخ زوجتك في وجهك .. وتتعصب أمك .. ويعلو صوت أبناءك ، ليتصاعد الأمر .. فتتفاقم معه طاقة غضبك ..

فيتقدم العقل الباطن مطبقا قانون " التوقع والإنجذاب " .. فتبدأ في لفظ سيل من التوقعات السيئة ، وكمثال تقول في داخلك " سأطلق زوجتي ، ستموت أمي ، سأقتل أبنائي ... إلى آخره " ، ومالم يكن في حساباتك .. أن توقعاتك تلك ستجذب إليك تلقائيا ، وبصنيعة يدك يقول رسول الله " صلى الله عليه وسلم " .. " تفاءلوا بالخير تجدوه " ، كما يقول " لا تتمازوا .. فتمرضوا " صدق رسول الله " صلى الله

عليه وسلم " ..

ولك أن تتخيل حجم الكارثة .. عندما يطبق عليك عقلك الباطن ما يعدو الـ ٢٦٤ قانون .. في لمح البصر ودون إرادة منك أو سيطرة ، " قانون الإعتقاد ، وقانون السبب والنتيجة ، وقانون التراكم ، وقانون الفكر والتسلسل الذهني ... إلى آخره " ، ٢٦٤ سلاح رادع ، إنها الحرب بعينها تدور في أعماقك .. فتمزق كل ملتئم بها ..

وفي أسرع من البرق .. يبدأ الغضب في تأثيراته القوية .. فيغيب العقل ويحضر القلب ، فتتحول الأفكار إلى أحاسيس ساخطة .. تغتمر نفسك بها ، ويعلو الضيق داخلك ، ويترجم الجسم كل ذلك إلى سلوك وكلمات .. كطلقات المدفع ، وفي كل محاولة لإسترجاع الطلقات إلى العقل ليحولها لأفكار .. لعله يتعقل ويتريث .. يتلقفها القلب في طرفة عين .. ويحولها إلى أحاسيس أكثر سخطا ، وأعلى ضجيجا .. وسلوك غير متوقع ..

وتظل هذه الدورة تتكرر .. لتصبح حالة الغضب داخلية وخارجية ، فيلوذ المرء للهروب أو الهجوم

" Fight or Flight Response "

وهما سلاحان دفاعيان .. يدافع بهما الإنسان عن نفسه في أوقات الخطر ، " أو ما يظنه خطر " .. وهو ما يعرف بحالة الطوارئ .. حينها لا يفكر إلا في بقاءه .. وهنا تنتشر كمية من الأدرينالين تعطى قوة كبيرة لعضلات الأرجل واليدين ، وتزداد ضربات القلب ،

ويسرع معدل التنفس ، وترتفع درجة الحرارة وضغط الدم ، ويزيد تركيز وحجم العين ، وتتغير تعبيرات الوجه والتعرق .. وحركات الجسد ، حتى تشعر بالتحفز والتأهب التام لتوليد " ردة فعل " .. فينتج عنه القرار المفاجئ ..

وبعدها يتوقف الصخب والإعتمال ، وتتوقف الدورة .. وكأنها هو السقوط من شاهق ، أو قطار تتوقف عجلاته رويدا رويدا .. على مشارف محطة منتظرة ..

لكنه الهدوء الزائف ، والتوقف الوهمي ، فالتو بدأت تبعات تلك الحرب الطاحنة .. والضحايا كثر ، فتجد نفسك بغتة .. محاصر بالدمار من كل جهة ، قد تفقد والديك ، زوجتك ، أولادك ، أصدقائك ، عمك ، مالك إلى آخره ، بمنطق فاه عابث .. مما قد يبنى عليه كل مصير فيما بعد ..

يجب دوما .. أن تكون قادرا على التحكم في ردود أفعالك ، وأن تتعلم بعض مسالك الهروب من الإنسحاق في غياهب قرار مفاجئ ، أو طريق خاطئ ، فسحب شهيق عميق وند زفير طويل .. قد يفرغ قنابل الشحنات الموقوته داخلك ، ويبرد نارها .. وتلك طريقة سهلة وفي متناول الجميع ، ولتعلم أنه إذا تمكنت من التخلص من جزء من ملف أية فكرة بالعقل .. فستتمكن من التخلص سريعا من الملف كله ، بمعنى أنك إذا غضبت وتمكنت من تهدئة نفسك " ولو بقدر قليل " .. عن طريق تمرين التنفس مثلا ، أو الإستغفار ، أو الوضوء ، أو

الإشغال بإحصاء وعد شئى ما .. فإنك سريعا ما ستتخلص من ملف الغضب بالكلية ، هل هناك ما هو أيسر من ذلك؟! ..
إنها بالضبط كتجربة الإستحمام بماء شديد البرودة .. فى ليل طوبة ، هل جربت ذلك من قبل ؟ ، هل تعلم أنه يمكنك التخلص من برودة المياه " التى تصيبك بقشعريرة حادة .. تتلث كل خلايك " .. بسهولة ، الطريقة بسيطة للغاية ، إغلق كل ملفات العقل الخاصة بالتألم بالبرودة ، وذلك يتم عن طريق إشغال حواسك بأى شئى .. غير النظر إلى المياه ، وإستشعار برودتها ، كأن تقوم مثلا بإحصاء أيقونات الفراشات المرسومة على سيراميك الحائط .. بينما المياه تتساقط فوق جسدك ، وهو بإختصار طريقة لتوليد سلوك جديد .. بالإنفصال الواعى عن الحدث ، جربها .. وستكتشف قدرتك على تحويل مسار أفكارك ، وبالتبعية أحاسيسك وسلوكك ..
وأكثر الأشخاص عرضة لمخاطر القرارات السريعة والمباغته .. هم الأشخاص الحسيون ، الذين يبنى قراراتهم على المشاعر والعواطف .. إذ يلجئون كل شئى إلى القلب ، فيختصرون شوط الدورة .. ويسرعون من وتيرتها ، علما بأن هناك أنماط أخرى من الأشخاص ، فهناك البصريون .. وهم يتخذون قرارات فورية مبنية على ما يرونه ، مما يدفعهم إلى المخاطرة والمجازفة بأنفسهم ، وهناك السمعيون .. وهم أقل عرضة للخطر .. إذ يتخذون قرارات مبنية على التحليل الدقيق للأوضاع ..

وقد تتساءل وكيف أعرف نمط شخصيتي .. " حسية أم بصرية أم سمعية " ، وهذا بسيط للغاية ، فالأشخاص الحسية .. ينصب إهتمامهم الرئيسى على العواطف ، وتجد أغلب مصطلحاتهم " إننى أشعر " ، " إحساسى يقول " ، " مرهق ، مرتاح ، محبط ، مضغوط ، مرتبك ، عصبى ، وحيد إلى آخره " ، وهم يتفنون عادة بعمق وهدوء ..

أما الأشخاص البصريون .. فتجد أغلب مصطلحاتهم " أرى ، أنظر ، أراقب ، أظهر ، أشاهد ، أتخيل ، ألون ، أتهياً " ، " رؤية " ، " وجهة نظر " ... وهكذا ، ويميلون إلى التحدث المتعجل والتنفس السريع ، ويمكنهم أن يتخيلوا التجارب قبل وقوعها ، ويعتمدون على الحركات لدعم أقوالهم ، وغالبا ما تجدهم يقاطعون غيرهم أثناء الحديث ، ويتحركون .. ويأكلون بسرعة ، كما تجدهم دوماً يفيضون بالطاقة ، ويتحدثون بصوت مرتفع ، ويمكن إقناعهم بسهولة .. يقول ألبرت أينشتين " إن الصور أهم من المعرفة " ..

أما الأشخاص السمعيون .. فهم يفضلون الإمتناع عن الكلام ، وإذا تحدثوا تجد لنبراتهم نغمات صوتية متباينة ، ويميلون إلى التنفس البطئ ، ولديهم قدرة فائقة على الإستماع دون مقاطعة ، والتأني عند الحديث أو الإستماع ، ويميلون إلى التنفس البطئ ، وأغلب مصطلحاتهم " أسمع ، أستمع ، أنصت ، أقول " ، " ضجيج ، صوت ، كلام ، سكون ، ذرورة ، إيقاع ، كلمات " ..

وبهذا يمكن أن تتعرف على نمط شخصيتك .. لتحكم هيمنتك على تصرفاتها وردود أفعالها ، كما يمكنك التعرف على نمط الشخصية التي تتواصل معها .. مما يفيدك في تفادي التصادم ، وإبطال مفعول الإنفعالات السلبية .. عن طريق الصياغة الصائبة للأشياء ، وربما إعادة صياغتها ..

وقد ينبو القرار المفاجئ دونما أن تتعامل مع آخرين ، من نفسك إلى نفسك ، فتخيل مثلا .. لو جلست وحيدا تفكر في بعض الأحداث والمواقف " السيئة أو الجيدة " .. التي حدثت لك في الماضي ، فتأثرت بشدة ، بعدها للتو .. قد تقرر قرارا دون تريث أو تفكير ، قرارا نابع من أحداث الماضي .. لتعمله على الحاضر ، بصرف النظر عن موافقته ، مما قد ينتج عنه نتائج .. لو فكرت فيها فيما بعد .. فلن تجدها " في الغالب " ملائمة ، وياليت الأمر ينتهى عند هذا الحد .. فقد تصيب حياتك بتعثر كامل أو جزئى ..

الغريب أن الشخص في لحظة توليد القرار السريع .. يغيب عنه أو يتناسى قدرته على التراجع ، ويزول من خلدته كل قدراته العقلية والجسدية التي خلقه الله عليها ، قدرات لا نهائية ، فمخه يمتلك ١٥٠ مليون خلية عقلية ، وينتج ٦٠٠٠٠ فكرة يوميا .. " يمكن أن يحيلها إلى ٦٠٠٠٠ فكرة بديلة " ، ولو وصلت عظامه مجتمعة لأمكنها سحب ٢٥ طن ، والكهرباء التي ينتجها جسده يمكنها أن تضيئ بلد كاملة لمدة أسبوع إلى آخره ، وكل هذا محض غيظ من

فيض ، ربما لو أدرك تلك القدرات .. ما أسلم للوهن والضعف ، ما جعل الأفكار والأحاسيس .. تتلاعب به كدمية بلا إرادة ، ربما تراجع سريعا عن إذعانه للحدث ومؤثراته ..

وفي تصنيف للعلماء للسلوك البشرى .. تم تصنيفه إلى ثلاثة أنواع ، أولهما السلوك الحازم والواثق من نفسه ، وهذا لا ضيم يخشى منه ، وأخطرهم السلوك العدواني الهجومي .. والسلوك المطيع المستسلم ، وتتمثل خطورة هذين النوعين في نتائجهما المصيرية ، فالعدواني .. يتفادى تحمل المسؤولية ، ويفرض رأيه على الآخرين .. وخاصة إذا أدرك أن هناك خطرا في الطريق إليه ، أو ثمة من يقف حائلا دون إرادته .. فهو لا يملك التحكم في المواقف ، لذا فقراراته السريعة والمباغته .. كثيرا للغاية تكاد تكون سلوكا دائما .. لا مجرد أثر عرضي ..

أما السلوك المطيع أو المستسلم .. فهو لشخص شديد الوهن .. لا يستطيع قول " لا " ، لذا ينصاع على الدوام لإرادة الآخرين لأنه لا يريد أن يغضبهم .. فيتنازل عن حقه ، ويشعر براحة لحظية في تفادى المشاكل ، مما يجعل الآخرين يستغلونه أسوأ إستغلال .. ما ينتج عن ذلك تدهور حالته النفسية من إحباطات وتعاسة ، ولأنه لا يثق في قراراته الذاتية .. ينتج قرارات سريعة لكنها هدفا لغيره " بصرف النظر عن مدى صوابها ، أو أوجه مضرتها له " ، وما أخطر هذا النوع على المحيطين به ، فهي قرارات بلا جوهر أو سبب ، وبلا دافع أو

رغبة ، وبلا هدف ، تلقى على عواهنها فى مرمى غير معلوم ، لكنها
تصيب أيها مصاب ، كرامى السهام .. على حشد عشوائى من الناس

..

تحيل معى لو أنك أجريت عملية جراحية ، وقام الأطباء ببتىر كل
أفكارك .. هل سيكون هناك مشاكل فى حياتك ، بالطبع لا ، لأن
المدير الذى لا تحبه ، والصديق الذى لم تحدثه منذ سنوات ، والمشاكل
التي حدثت لك فى منزل العائلة ، وذكريات الماضى إلى آخره ..
كل هذا لا يوجد إلا فى أفكارك ، إذن للتفادى الصدام مع أحدهم ..
فلتعمل أولا على أفكارك ، قم بتغيرها ، وتعديلها ، وتبديلها ، قم
بأقصى ما يمكن أن تفعله .. لترتقى بها ، لا تجعلها تنحدر بك إلى درك
من الأوحال .. والقرارات التي لا تعرف طريقها
لذا فالفكرة هى أصل كل شئ ، هى أصل كل قرار خاطئ وسريع
ومفاجئ ..

تقول الحكمة " تصبح .. ما تفكر فيه " ..

لذا يجب أن تتعرف كيف تختار أفكارك ، وتنتقيها ، وتبناها ..
وتطورها للأفضل ، ولتعلم أن هذا النوع من الأفكار " التي تنتهى
بقرار مباحث " .. تجعل الإنسان لا يرى الطرق المضيئة ، بل تجعله لا
يسلك إلا الطرق الوعرة المظلمة .. فيتوه فى غياهبها ولا يجد فيها
مخرجا ، ويصطدم بكل ما يؤلمه ، ويجعله يشعر بالضيق والفشل والألم
والغضب ، ويجذب إليه كل ما هو سلبى من نفس نوع أفكاره ،



وعندما تتحكم فيه تلك الأفكار .. تجعله مثل الحصان الشارد الذى قد يقتلك بخبطة واحدة ..

وبعد دراسة وجد العلماء أن هناك ١١ مسببا لتلك الأفكار .. التى تقودك بالنهاية لهذا النوع من القرارات وهى :-

١- البعد عن الله سبحانه وتعالى

يقول سبحانه وتعالى { وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى }
طه ١٢٤

٢- البرمجة السابقة .. " كل ما تعودت أن تفعله "

٣- عدم وجود أهداف محددة

٤- الروتين السلبي .. " عاداتك السيئة والسلبية "

٥- المؤثرات الداخلية .. " التقدير الذاتى - الصورة الذاتية - الثقة بالنفس "

٦- المؤثرات الخارجية .. " آراء الآخرين وتوجيهاتهم "

٧- العيش فى الماضى .. " التأثر الدائم بأحداثه ، وخاصة السيئة "

٨- التركيز السلبي .. " إعمال طاقتك فى التركيز على كل ما هو سلبي "

٩- حالة المزاج المنخفض

١٠- الصحبة السلبية

يقول الرسول " صلى الله عليه وسلم " .. " المرء على دين خليله ..
فلينظر أحدكم من يخالل " صدق رسول الله ..

.....

وهنا لا أنسى تلك القصة .. التي عايشت وباشرت شوطا كبيرا منها بنفسى لأحد جيراننا ، أذكر أن الرجل قدم من صعيد مصر فى نهاية السبعينيات ، وقد كان فقيرا معدما .. على رأس أسرة كبيرة نسبيا ، وقد لجأ وأسرته إلى منزل بالإيجار فسكنوه ، كان الرجل يعمل كنجار مسلح ، ومذ أن جاء إلى بلدتنا .. ظل يعمل ويكد ، ويكافح ليل نهار .. حتى تمكن من شراء منزل يأوى أسرته ، إلا أن الفقر ظل يحاربه .. ويحوطه من كل جانب ، وتفاقت ديونه إلى حد .. أفسد مرأه وأشعره بالإختناق والأزف ، إلا أنه عاش راضيا بما كان يرزقه الله ، وحده على نعمة الكفاف والستر ..

ولكن الأحوال والمعاش ضاقت به فى مصر .. فقرر السفر إلى بلد عربى مع بعض من العمال ، بينما ظلت زوجته بمصر .. ترعى الأبناء وتعولهم ..

وبعد مدة إنقطعت أخباره .. وما عاد يرسل إليها ما تتقوت به ، ويكفيها وأولادها السؤال والعود .. فأصبحت تعولهم بالكلية ، وإصطبرت على مقدورها .. لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ..

مرت عدة سنوات .. وعاد الرجل فى حال غير الحال ، فتح الله عليه الرزق من أوسع أبوابه ، فكون أسطولا من الخشب ، وجمع الكثير من " الصنایعية " .. وبات يرأس عشرات من العمال و النجارين ، وفى

غضون سنوات قليلة .. أصبح من أثرياء البلدة ، وظلت زوجته في ظهره ، وأولاده " الذين كبروا " يعضدونه .. ويساعدونه في أعماله .. ويباشرونا تحت رعايته وتوجيهه ..

وفي غيبة من عقله ، قرر الرجل أن يتزوج من أخرى .. دون علم أم أبناءه ، إلا أن زوجته الثانية إشتربت أن يطلق زوجته الأولى ، وهنا بدأ سيل من القرارات المفاجأة .. سيل من التنازلات المصيرية ، فقد طلقها بالفعل ، وما لبثت أن طلبت منه .. أن يمتنع عن إعالة أولاده ففعل ، وعندها علمت أم أولاده بأمر زواجه .. فسقطت مريضة من شدة الصدمة ..

وبعد مدة زهيدة طلبت منه زوجته الثانية .. أن يكتب لها ثروته ، ففعل الرجل ، وعندما علمت أم أولاده .. صرعاها موت الفجاءة إثر إصابتها بجلطة دماغية حادة ..

وفي أقل من عامين .. مرض الرجل ، وما عاد قادرا على العمل .. فأوكل أعماله إلى أحد " الصنایعية " يثق به ، وإكتفى بمباشرة العمل عن بعد ، فإشتد به المرض .. وأصبح غير قادر على الخروج من المنزل ، حينها وبعد عدة أشهر .. تضامنت زوجته مع ذلك " الصنایعی " ، وسلبوا كل ما تبقى لديه من ثروة ، ثم طلبت الطلاق ، فطلقها .. وعاد فقيرا معدما .. بعدما شنت أسرته ، وأضاع أولاده .. فلم يعلم أيهم بأمر مرضه .. وما حدث له ..

وأذكر بالنهاية .. أنه ظل بشقته لعدة شهور .. حتى إلى أن مات

وحيدا ، ولم يتنبه أحد لموته .. فتعفنت جثته حتى فاحت رائحتها ،
ودفن في مقابر الصدقة ..

تلك النهاية المأساوية .. بلا حبيب أو مودع ، بسبب قرار فجائي .. لم
يحتسب الرجل لتبعاته ..

.....

هربت من مضايقات عمها وأبناءه ، تلك الفتاه الى مات أبوها وأمها
.. فتولى عمها رعايتها وتربيتها ، ركضت في الطريق .. لا تعرف أين
تقودها قدماها ، إلى أن قطع طريقها ذلك " البلطجي " .. الذى طالما
لاحقها في السوق وفي كل مكان تذهب إليه ، كان يعرف أنها هاربة ..
فعرض عليها طلبه مرة أخرى .. بالزواج فى بالسر ، وما أكثر ما تكرر
هذا الطلب .. دون أن تنصاع وراء رغباته ، ولكن هذه المرة الأمر
يختلف .. فهى لا تعرف أين تذهب ، لم تجد ملاذا إلا صدره .. ولا
مهربا إلا طريقه ، فنطقت أخيرا .. وهى لا تعى بما تنطق ، وافقت ..
هربت معه إلى بلد مجاورة .. وتزوجا دون وكيل ولا معازيم ، زيجة
أشبه بالسرقة والإحتيال ، ومضت الشهور سريعا ، اليوم تلو اليوم ..
تجرعت على يديه كل ألوان المذلة والهوان ، ومن بيت إلى بيت ..
تنقلت ، وفي كل مرة كان الجيران يطردونها وزوجها .. لعلو صوتهما
بالسباب والشتائم ..

إنسحبت المزيد من السنوات ، أنجبت خلالها ولدان وبنت ، وفي
صبيحة يوم ما .. قامت على خلاء البيت من زوجها ، فظنت أنه خرج

لغرض ما .. ولكن مر اليوم تلو اليوم .. ولم يعد ، إنقضت شهور ولا
أثر له .. حتى طردها صاحب البيت لتأخر الإيجار ، فتشردت
وأولاهها في الشارع .. تتلقفها الحارات والميادين ..
وعادت تارة أخرى إلى عمها .. وقد تبدل الحال ، هربت فتاة عذراء ..
وعادت بعد عشرة أعوام امرأة تعول ثلاثة أبناء ، وأنى لها أن تعرف
للراحة طريق .. طردها عمها ، وهى الآن تعيش فى عشة .. على
أطراف البلدة يتقاذفها الشتات والفقر والعوز ..
وبتخطى تلك العشر سنوات .. سنى جليا كيف كانت البداية
والنهاية ، قرار متسرع .. أفضى إلى تشرد وفقر وضياح ، وحياة بائسة
تعيسة .. عديمة المعنى ..
لا خطر قد يصيب الفرد فى مقتل .. بقدر ما تصيبه الأفكار
والقرارات ، فهى حياة واحدة .. إما أن تعيشها فى سعادة .. وإما أن
تسحقك التعاسة ، والبداية دوما فكرة .. تكبر ، وتنتشر ، وتتفاقم من
ذات نوعها ، وتسوق وراءها القرارات .. التى قد تحدد المصير ، فلا
شئ يتحكم فى مصائرنا .. مثلما تفعله قرارات اللحظات الحرجة ..



الانسير



الإكسير

للمرأة وعن المرأة حديث طويل لا ينقطع ، وأقصد بالمرأة هنا كل أنثى بشرية .. حتى لا تتذمر إحدان وتقول .. " أنا لست بامرأة .. أنا فتاه " ، وهذا أكثر ما يضحكنى ، فالمرأة كانت يوما ما فتاه .. كما أن الفتاة ستغدو يوما ما امرأة ، إنها محض نعوت لذات الشخص .. ولن أطيل حتى لا أغدو يوما ما ضحية ألسنتهن " الحادة كالمبارد " ، وفي هذا السياق لا بد وأن أذكر بأننى أعرف جيدا بأن هذا المقال .. ربما لا يعجب الرجال والنساء معا ، فالرجال تارة والنساء تارة أخرى ، وربما أصبح سليقا لكليهما فى آن ، ولكن لا ضيم فى سبيل لحظة صدق ..

منذ نعومة أظافرى وأنا أتأمل الأنثى " ولا أقصد بالطبع معنأ مناف للآداب " ، بل أرمى إلى تلك الجوانب التى ميزها بها الله عز وجل عن الرجل ، ومن أعجب الأشياء أن يجبل الرجل أقوى وأكثر خشونة ، وتجد من النساء من هن أكثر جلدا من الرجال ، وهنا لا أتملق ولا أرائى .. فلست بحاجة ، وإنما أتحدث بصدق ، كم حيرتنى طاقة النساء فى الإحتمال والمثابرة والإصطبار ، ولا أقصد بالطبع عمومهن ، وإنما أقصد منهن ممن أدركن ووعين ما وهبهن الله من قدرات ، وعزائم ذاتية ..

فى رحلتى الصغيرة .. صادفت كثير من النساء .. من كن فى صدارة كل معترك أو سباق أو سجال مع الرجل ، منذ سنوات دراستى

وحتى العمل ، ولم تكن تلك الصدارة بمهارة مكتسبة ، بقدر ما كانت ذكاء وقوة ذاتية ، هي مجبولة عليها ، وذاك بيت القصيد " القدرة الذاتية .."

كنت أتعجب مثلا .. كيف تستطيع المرأة أن تظل يقظة لعدة أيام دون كلل أو نصب ، في حين لو طوى الرجل يوما على يوم آخر .. لسقط مغميا عليه ، وإذا غفت إحداهن لنامت نومة أهل الكهف ، قوة في النوم .. وقوة في اليقظة ..

وأذكر أنه كانت تحيرني أمور إحدى زميلاتي بالجامعة ، فلو أعربت لك مثلا .. عن شدة إرهاقها وإجهادها بسبب أنها لم تنم منذ يومين ، تجد إذا هاتفتها في أى ساعة من اليوم بعدها مازالت يقظة " العاشرة صباحا ، نهاية النهار ، إنتصاف الليل " ، ومرات كثيرة تلك التي إذا ما هاتفتها .. لا يأتيني إلا رنين هاتفها وربما بالساعات .. دون رد . والأنتى تتبنى مجموعة من الإعتيالات ، والأفعال وردودها ، قد تذهب نفس كل من يحاول ملاحظتها أو تحليلها شعاعا ، والغريب أن كل أنثى على وجه هذه الأرض ، من سائر الكائنات ، تتبنى ذات الأفعال ..

فلقد تجمعت في الأنثى كل المتناقضات ، فهي متمكنة في كل شئ ونقيضه ، بقدر ما تبلغ من قوة .. بقدر ما تبلغ من ضعف ، فإقترابها من تمام القدرة ، يجعلها الأقرب لتتام الوهن ، فهي شديدة القوة وشديدة الضعف في آن ، ترقى لأوج الصفاء والحب والسعادة ،

وتعوج في درك الكدر والكره والإكتئاب والثورة والغضب ، وقلائل
منهن من يطفن بين الوسطية والإعتدال ، وهن من بلغن أواسط
الأشياء .. وقبضن بقوة على زمام الأمور ومقاليدها ..

ولأى أنثى نقطة وهن وضعف ، لو ناوشتها فيما أن تمنحك كل شيء
، أو تسلبك كل شيء ، فإعلم أنها حين تهديك قلبها وحبها وحنانها ،
قد تحاربك أيضا بمقتها وكيدها ، وما قيل عنها قد يوقفك مريحا
لسنوات ، فلقد حار أعظم الفلاسفة والعلماء في إجمال نعوتها ، وهنا
أذكر أنى رأيت كتابا " ربما للمؤلف إنجليزي " بعنوان " The
Woman " .. يعدو عدد صفحاته الألف وما طوى ملئه طباعها ..

لا أعرف لماذا جالت ذاكرتى حينما كنت في مدينة بركة السبع بصحبة
زميلة لى بالجامعة " غ " .. إذ حدث موقف توقفت عنده كثيرا أفكر ،
كنا في تدريب ميدانى لمادة التخطيط العمرانى ، " كان علينا إختيار
مدينة لتقديم إعادة تخطيط عمرانى لها .. فوق الإختيار على مدينة
بركة السبع .. فهى مدينة قديمة يتمازج فيها الريف بالحضر " ، أتذكر
أنى كنت ممسكا بخريطة للمدينة ، بينما كانت تحمل زميلتى بعض
أوراق نسجل بها نتيجة إحصاءنا ..

وأثناء مرورنا بأحد الشوارع القديمة فى عمق الريف ، بوغتنا بمشهد
لنسوة ريفيات .. يجلسن على جوانب الطريق فى زمرات يتحادثن فى
أمور الحياة اليومية ، قلت لها قبل أن نغوص إلى عمق الشارع ..

- مترديش على أى واحدة تنادى عليكى .. عايزين نخلص

ونمشى بسرعة ..

كنت أعلم أنه لو أمسكت إحداهن بطرف حديث .. فلن تنيه إلى يوم الدين ، ولن تستطيع " غ " المرفهة شيئاً ما .. أن تبتره وأثناء مرورنا على إحدى زمراتهن ، نادتها إحداهن ..

- مش إنتو بتوع التأمينات برضه يا أستاذة ؟ .. حاجزين المعاش بتاع الراجل " تقصد زوجها " بقاهم تلت شهور .. هو إسمه مانزلش معاكم ؟ ..

ففعلت زميلتى كما أوصيتها ، ولكن ظلت السيدة تلح وتلح .. دون حجب ، فإستفزها صمت زميلتى وتجاهلها ، فصاحت ..

- جرى إيه يامدام .. ماتردى علينا .. هو إحنا بهائم .. وللتو طرحت زميلتى جميع الأوراق بالأرض ، ونفرت متذمرة ، عائدة من حيث أتينا ..

أغرقتنى نوبة ضحك هستيرية ، حتى وقعت الخريطة وإغتمرت بأوحال الأرض وطينها ، فإنحيت الملم الأوراق ثم هرعت أخلفها ، إلا أنها كانت غاضبة للغاية ، كنت أعرف أن لفظة " يامدام " قد أزعجتها ، بيد أنى لم أعرف أنها ستصل بها إلى هذا الحد من القنوط والنفور ..

وهنا طن بأذنى " ماذا يضيف الفتاة إذا قيل لها عبثا يامدام؟! " ، لقد كان الأمر أفدح مما أتصور ، فتلك النعوت والمسميات تعنى للفتاة



الكثير ، عرفت بعدها أن مصطلحات مثل امرأة إذا ما قيلت لفتاة
بكر .. وكأنك تتنزع عذريتها وتفض بكارتها قسرا ، ورغم علمي

بأنها محض قبيلات سطحية ، فكل فتاة هي أنثى وهي امرأة ، إلا أنى حرصت ألا ينسب بها فمى مع إحداهن ..

كنت أرى تلك المشاعر ماهى إلا عقدة نفسية .. مصابة بها كل فتاة شرقية ، فلو طالعت فتاة غربية بلفظة " مدام " .. ستجيبك بأنها فتاة عزباء .. هكذا فقط بكل يسر للإيضاح دون أدنى أثر نفسى ، أما فتياتنا فقد تعدى الأمر حدود المسميات إلى الثورة وربما القنوط ..

ومن أكثر ما يستفزنى فى إمرة اليوم " المتعلمة " .. مثلا أنها ترى فى المكوث بالبيت عيبا ، ترى أن العمل وظيفتها الأساسية .. بل وتناطح الرجل فى كل المجالات ، من أحقر المهن إلى أرقاها ، حتى أننا لندرى اليوم سائقة التاكسى ومن يعملن بالورش ، كما نرى المحامية والمهندسة والوزيرة ، وغابت عن أذهانهن أن الله خلق النساء لتقر فى البيوت ، ولا تخرج للعمل إلا فى ظروف خاصة ، كمرض عائلهما أو عدم قدرته أو عدم وجوده ، بل وظهرت موضحة الفتيات اللاتى يهربن من أعباء المنزل إلى العمل ، وهنا حدث ولا حرج كثيرات للغاية ..

وأعرف أن سهامهن ستحول الدفة صوبى ، إلا أن هذه الحقيقة ، وأن ما يحدث هو قلب للأوضاع ، لم أقل لا تتعلم المرأة ، بل التعليم أراه واجبا وفرضا ، لكنى أرى أن الأولى بعلمها وخبرتها هم أولادها ، فهم ميراثها الحقيقى ورأس مالها ، ولك أن تعلم أن أغلب حالات الطلاق تحدث فى أوساط المتعلمات لتعى فداحة الأمر وخطورته ..

وهذا ما يتقهقر بذاكرتي .. إلى تلك الفترة التي عملت بها كـ " بار مان " في ملهى ليلي بأحد الفنادق بشارع الهرم ، وهناك توافرت أنماط من الأعمال الأخلاقية .. التي تشبثت به بعض النسوة ، ووجدن فيه ملاذا ينتشلهن من الفقر والتشرد ، وقد كان لتلك الفترة شديد الأثر في معتقدى حول المرأة ونزعاتها ..

فبينما كنت شاردا ، أتأمل ما يموج بالصالة من سفور ومجون ، قطع سرحتى طفل صغير في الخامسة من عمره ، ولج من جانب البار ، وخلفه إحدى العاملات اللاهيات ، ومازلت أتذكر هيئتها التي تتأبى على النسيان ، كانت سيدة بدينة جدا " هرمية الشكل " ، متورمة من كل جهة .. وكأنها بالون سينفجر ، ولا يعرف بالضبط ما فائدة مثلها في هذا المكان ، الباحث عن الفاتنات ممشوقات القوام .. دفعت المرأة بالطفل ، ووارته خلف البار ، ثم همست في أذني حذرة ، حتى لا يسمع الطفل ما تقول ..

- ده إبني .. خلى بالك منه .. ماتخلهوش يبص ناحية الصالة خالص .. خلى بالك مش عايزاه يشوفنى ..

فتعجبت في بادئ الأمر ، ولم أفهم القصد من وراء تحذيرها ، إلا أنى كنت قد تكهنت بعض الأشياء ..

ثم خلت المرأة سبيلنا وإخفت ، إبتلعتها الصالة وأضاعتها بين وشائجها ، ووجدت الطفل قد إنتصب خلف البار لا يجروء على التحرك قلامه ظفر ، فإنحنيت لأجلس على مقعدى خلف البار كما

اعتدت ، فدنا الطفل منى متآزفا وألقى بجسده على صدرى متثاقلا ،
ولا أعرف لماذا أزحته ودرأته عنى ، رمقته بوجه عبوس مستنكر ،
قلت فى نفسى " لا مناص أنه على شاكلة أمه " ..
فى تلك اللحظة ، أعمانى رفث المكان ومجونه عن كونه .. طفلا ، بريء
كالثلج .. لم يعكر أديمه إثم أو فاحشة ..
تقهقر الطفل برأسه ، ثم رمقنى لا يبدى إبتساما ، قال بنبرة حبية " لم
أعهد مثلها من قبل " ..

- بتحبنى ؟ .. كل الناس هنا بيحبونى ..

ف نظرت إليه بسخط ، وأشحت بوجهى عنه ، كان الإشمئزاز
والتأفف يكتفانى ، وللتو تغيرت ملامحه الملائكية ، وترقرقت عيناه
" كاد أن يبكى " ، فلم أستطع أن أتجاسر على وهن قلبى ، لم أحتمل
عبراته وقد تاهبت على عتبات مقلتيه ..
فإقتربت منه ناظرا بعطف ورأفة ، وإحتضنته بقوة حانية .. ثم أطلقتته
مداعبا ..

- إسمك إيه ؟ ..

- إسمى عمرو ..

وقد كان لدغا فى حرف السين ، فبدى أكثر لطفا وسجية ، وأردف
الطفل ..

- ماما قالتلى ماتتحر كرش خالص ، هى شغاله بتنضف هنا

رمقته مليا ، ثم رفعت ناظرى أعلى البار .. لأسفر عجيج الصالة ،



فإذا بالمرأة تتمايل بين ذراعي أحد الزبائن ، يداعبها ويلطفها ،
ويتحسس جسدها ، فأوطأت هامتي مستهجننا ..
أيقنت أنها لا تريده أن يبصر رداء عيبتها ، أو يسفر قبح ما تفعل ،

خاصة وأنه مازال طفلا ، لا بد وأن مشهدا كذاك سيصيبه بعقدة نفسية ..

ولا أدري من أين أتانى الظن .. بأن أبناء وإخوة أولئك السفارات يعلمون بما يفعلن ..

سكت برهة ، ثم توجهت للطفل تارة أخرى ، مدللا ..

- وشغال إيه بقايا أستاذ عمرو ؟ ..

- أنا فى كى جى تو ..

وتنهد ثم نظرني مبتسما ..

- الحضانة بتاعتى فى " " ، فى المعادى ..

فرمقته واجما مبهوتا ، أحدث نفسي " وكيف لمثل هذه الساقطة .. أن تحرص على أن تعلم إبنها ، وتلحقه بمكان ذو مسوى عال مثل ذاك ، من أين لها فى الأصل أن تعى قيمة التعليم " ..

ثم رفعت ناظرى أعلى البار ، لأجد الزبون يتحسس أرداف المرأة الممتلئة ، ويتلمس مواطن عفتها .. يهامسها ويواعدا منتشيا ..

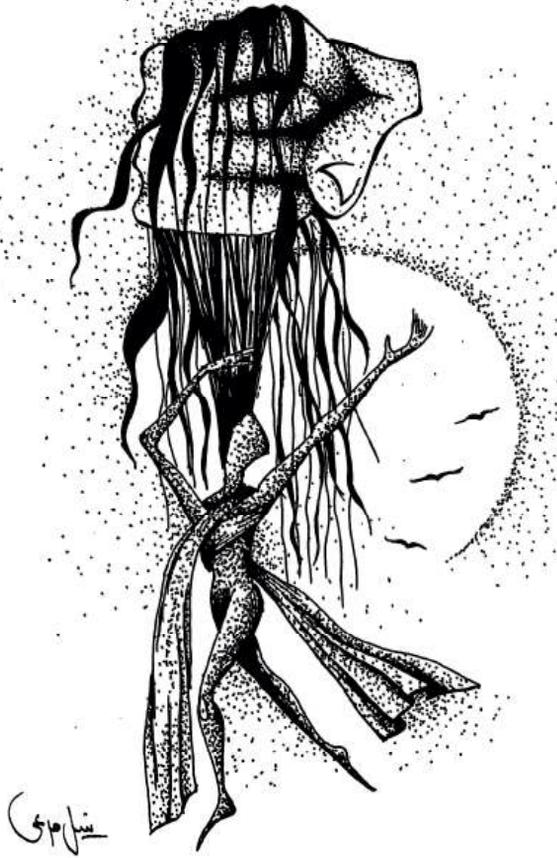
ظلت مشاهد تلك الليلة تضربنى مرات ومرات ، أحلل ما رأيت عيني فيها ، سقطت كل التأويلات إلا تفسيرا واحدا ، فبصرف النظر عن فحش ما كانت المرأة تزاوله ، إلا أنها حرصت ألا تكسر رجولة طفل لم يبلغ الحلم ، فأكثر ما يهزم الرجل شرفه وعرضه ، تعاطت مع طفلها كرجل ، وما أقل النساء الذين يعين تلك القيمة وما أكثرهن فى آن ..

وتنقلنا تلك الحادثة إلى محك آخر .. هو من أكثر ما أخذى على جل النساء وليس كلهن ، وهى مراوغة الرجل فيما يرضيه وما يغضبه ، فلقد رأيت الكثيرات يفعلن ما يرضي الزوج .. أمامه وتحت ناظريه ، أما إن غاب فما أكثر ما تفعله مما لا يرضى عنه .. وقد يصل به إلى حد الثورة والغضب ، ولا ترى أبداً في ذلك من عيب .. وذاك طبع متأصل في عمقها ، فالمرأة من المحال أن تفصح عن أخطائها لأحد ، والباحث عن كذب سيصطدم بأعداد العلاقات التي باءت بالفشل .. نتيجة عدم تقدير المرأة للرجل في غيابه " وكأنه إن غاب الرجل ، إلعب يا فار .. لا تعليق " ..

رغم أنى دائماً ما كنت أعتقد وأقول " ومازلت " .. أن المرأة تملك ذكاء خارقاً لا يناطحها فيه إلا الشيطان ، بما أعطيت من ملكات وقدرات وهبات ، بيد أن معظم النساء يتغابن ويتغابن عنها ، وللحقيقة لا أعرف لذلك سببا ، وهو أكثر ما يثيرنى ويمج ضيقى .. لأسخط كل أنثى تعتقد أنها غبية ، بل معظمهن يظنون أنهم مرجع الغباء !! ..

وأظن أيضاً أن معتقد الوهن الراسخ فى الأنثى منذ نعومة أظافرها ، هو ما يخيلها بأنها ضعيفة بحق .. وغير قادرة ، وتلك حقيقة سواء رضيت أم أبيت ، والأمثلة كثيرة تملأ العين وتسد الأذان ، فكم من أرملة وقفت كالجبل تعول أبنائها ، وكثيرين إستغنين عن لذاتهن مقابل راحة من تكفل ، وكم من امرأة إخرقت معارك الحياة ..

وحققت إنتصارات ، وكم من إمراة كانت في ظهر رجل ناجح "
وراء كل عظيم إمراة " ... إلى أخره
قرأت في إحدى الروايات ذات مرة تلك العبارة فأعجبتنى " الرجل
الذى لا يستطيع أن يحب إمراة .. ويعطيها ولو من حنايا قلبه .. نبضة



لتعيش .. لا يستحق أن نطلق عليه لقب إنسان " ..
وما يثيرك أن كل أنثى على وجه الأرض .. تحمل في صفاتها جينات
المسؤولية ، هى العائلة الحقيقية ، فالمسؤولية الواقعة على عاتقها
وتباشرها .. هى فى الأصل جوهر حياة المعيل ، وهنا لا تختلف أنثى
القط أو الأسد أو حتى الفأر عن أنثى الأنسان ، كلهن جبلن على
الإلتزام تجاه أبناءهن إلا ما ندر ، غير أن بعض صفات فى أنثى
الإنسان مثل الثرثرة والغباء والنكد والتسلط قد تقلل من شأنها ،
وتسقطها من أعين المنصفين ..

وبنظرة فاحصة .. نجد أنه على مدى إمتداد التاريخ ظل الرجل لهوف
وشغوف بصناعة مجده الشخصى ، أما النساء فكن دوما خلف
الرجال ، يدعمهن فيما إفتقروا إليه من عزيمة وصبر ، ويهبن لهم
الجسارة لتخطى عثرات الطريق ، وقلائل منهن من إلتفتن إلى
العروش والمنازل ، ومن الغريب أيضا أن لا تجد بين صفحات
التاريخ مهرجة ، أو من زاوّلن مهنة الترفيه والتندر والتنكيت ، كانوا
جميعا من الرجال حتى فى أزمان السفور والمجون والجهل ..

ولم يكن عبثا أن وصف الله كيدها بالعظيم ، والكيد هو التدبير السيئ
، وفى مفارقة سوداء .. نجد أن أنثى الإنسان تحالفت مع الشيطان ،
وتلك أيضا حقيقة إذ تحالفت حواء مع الحية والشيطان .. لإخراج
أدم من الجنة ، والمفارقة هنا أن الشيطان لا يصيب إلا ضعاف
النفوس ، والتحالف لا يعنى إلا وهن فى نفس الأنثى رغم ذكائها ،

وربما كان هو منبع ذاك الذكاء الدنيوى ، وما أكثر من التأويلات والتفسيرات .. إلا أنها فى مجملها تثبت أن كل أنثى تحمل لغزا ، والناجى .. هو من نفر وفر من أفلاكهن ..

ورغم هذا الذكاء الفذ للمرأة والشيطانى أحيانا ، إلا أنها سرىعا ما تبنى جسورا من المحبة .. بينها وبين أول رجل يقرب منا ، وكم من الأفخاخ التى نصبت لها فوجعت فريسة سيغة فى شراكها ، رغم أن فتيات اليوم باتوا أكثر تريثا وتفكرا .. قبل الخوض فى علاقة جديدة إلا ما ندر ، ممن يسرن فى تهافت محموم وراء الإرتباط والزواج المبكر حكى لى أحد زملائى ذات مرة عن حادثة مؤسفة .. تسببت فى ضياع فتاه ، ففى أثناء دراسته بالجامعة ، كان شخصا ملتزما متنبها لدراسته .. متسغرقا فقط لبناء مستقبله ، مما إستفز بعض من زملاءه ، فما كان منهم إلا أن إتهموه بعدم قدرته على إستقطاب أية أنثى ، ومع كثرة إثارته له .. إنساق وراء طريقهم محاولا إثبات قدرته .. فراهنوه على إيقاع إحدى زميلاتهم فى حبه ، ووقع إختيارهم على واحدة " تعيسة الحظ " ، فقبل الرهان ..

أعد زميلى العدة وتأهب بخطة محكمة لإيقاعها ، فبدأ بخطوته الأولى .. طفق يحاصر الفتاة من كل ناحية ، بدأ بمشاغلتها بالتليفون ، كل ساعة كان يهاتفها دون أن ينبس بكلمة ، فقط يشغل بعض الأغانى .. ويمكن هو يتسمع تنهيدات حيرتها عبر الأثير ، ولما بات الأمر ملفتا ، حارت الفتاة فى أمرها ، ودفعتها الرغبة لمعرفة صاحب

المكالمات المجهول .. وتلك كانت الخطوة الثانية ، إشعار الأثنى بأنها مرغوبة .. وأن ثمة رجلا معيناً يتمناها ، وهو دوما ما يثير أحاسيس الأثنى ..

وبعد قرابة شهر .. كانت الفتاة قد ذابت من البحث والتحرى ، فكان عليه أن يعلن عن نفسه على إستحياء ، فمضى يباغتها في كل مكان ، بداعى أن ذلك يحدث بمحض المصادفة ، تطل من النافذة فتجده منتصباً أمامها ، تسير في الشارع فيقابلها ، ودائماً على مقربة منها في أوقات المحاضرات ، والراحة ، والولوج ، والخروج ، وهنا تكهنت الفتاة أنه هو ذاته من يناوشها ، خاصة بعدما تكرر الأمر وملاحظة زميلاتها لذلك ، فوجهت دفة قلبها بالكامل إليه ..

أما الخطوة الثالثة .. هي أن يؤكد ظنونها وتكهنتها ، فقرر إرسال خطاب لها والإعلان عن شخصه ، ولا مانع من إبداء خجله وإستحيائه .. فهو لم يجب فتاة من قبل ، وكان هذا أيضاً ضمن الخطوة حتى تثق به ..

قرأت الفتاة الخطاب ، فقررت أن تفتعل التمتع والتأبى ، والمسكينة لا تعلم أن كل خطوة تم التدبير لها من قبل .. حتى تمنعها وتأييها ، وكان عليه أن يكمل خطته ، فأكثر من ظهوره بالقرب منها على نهج يعدو ما سبق ، دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، وعند ميقات محدد .. إختفى ، غاب عن الجامعة والمحاضرات لأكثر من أسبوعين ، وعندما رجع ما عاد يحاصرها ، بل يتحاشى طرقاتها وممشاها ، وظل

على نهجه أسبوعين آخرين

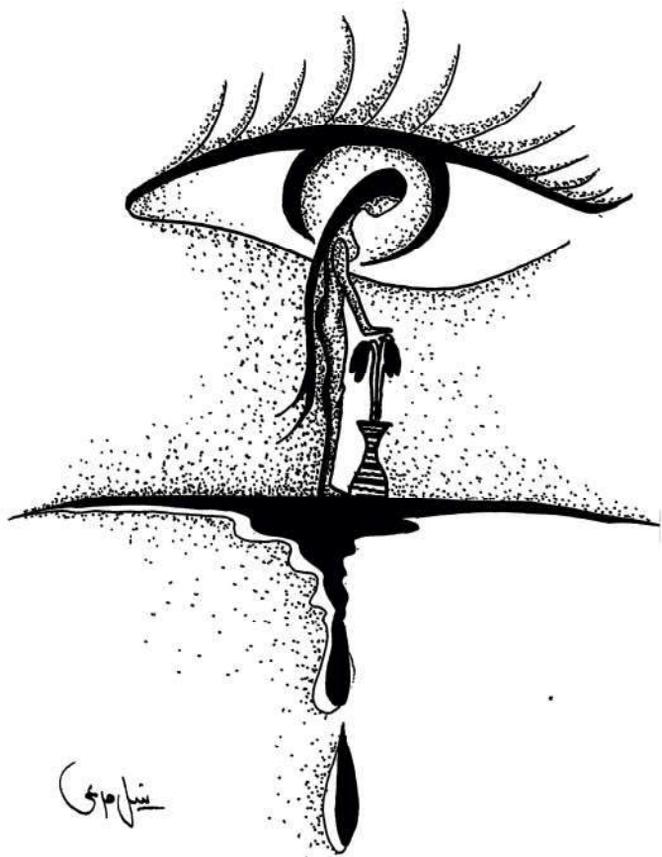
ولا أخفيكم خبرا ، لقد ذابت الفتاة ، طال ليلها بين السهر والحرمان ، وإكتنفها شوق وترح شديد ، تتوق أن تراه بمحض الصدفة كما كانت تراه سابقا ، تمت لو حدث هذا ولو لمرة واحدة ، وستحادثه هى ، إلا أن منيتها لم تلقاها يوما ، فقررت أن تبعث له برسالة عن طريق إحدى زميلاتهما ، تحدد ميعادا لمقابلته ، وقد حدث ..

وفى الميعاد المقصود ، وقف خلف سور الجامعة ، وزملائه على مبعده يترقبون نتيجة الرهان ، جاءت الفتاة ، يصارعها الإستحياء والبوح ، ومع كثرة صمته ونفوره .. إندفعت كالمجنونة تبوح له عن حبها ، فنظر إلى زملاءه ضاحكا .. وهى لا تعلم ما حيك لها ، ظنت المسكينة أنه فرح لإعرابها عن الحب

وبعد أن حاز الرهان .. كان عليه إنهاء ذلك الأمر الذى بدا سخيفا بالنسبة له ، وبأغلظ الطرق تصرف ، بصق فى وجهها ، فصعقت الفتاة وشدهت كثيرا تنساب العبرات من مقلتيها .. وهى ترى زملاءه يقتربون ويصطحبونه بعيدا ، وما هزمها وفطر قلبها أن سمعت أحدهم يهته على فوزه بالرهان ، فوقفت تردد " رهان !! .. بالنهاية أصبحت محض رهان " ..

المؤسف فى الأمر ، أن الفتاة قامت بتأجيل العام الدراسي ، وعندما عادت للجامعة ، ظلت ترسب سنة وراء سنة جراء حالتها النفسية

التي كانت تسوء كلما رأت تضحكه وزملائه عليها ، حتى تم رفضها
من الجامعة ..



وياليت الأمر إنتهى عند هذا الحد ، فلقد تزوجت الفتاة مرتان
وطلقت ، وهى الآن تعيش تعيسة قائمة فى حزنها المستقيم .. وفى
رقبتها طفلتان تربيهما أمها ، وبات الموت أفضل حالا من الأتراح
والقنوط الغارقة فيها ليل نهار ، مكلومة متكومة على حزنها ، تتابع

الحياة كأنها تسأل .. " متى نفرغ منك ؟ ..
رغم مأساوية الحكاية .. إلا أنها حقيقية ، فلقد عاشرت بعض
مراحلها ، وأعرف الفتاة المقصودة حق المعرفة ، وهنا أتساءل .. " هل
من مكان لتنسحق فتاة في عشق رجل .. باعها أرخص بيعة !!؟ "
لقد وجهت الفتاة طاقتها وقدرتها وذكائها .. لتدمير ذاتها ، وما
أقسى أن يحدث هذا للإنسان ..

.....

قرأت في وصية الأمام ابن حنبل لابنه يوم زواجه .. تنفيذ لبعض
طبائع إناث بنى آدم ، منها أنه قال إن النساء يجبين الدلال والتصريح
بالحب ، والخصلة الثانية أنه إذا ما بخل الزوج على زوجته .. جعلت
بينها وبينه حجابا من الجفوة ونقصا من المودة
أما الثالثة .. أنهن يكرهن الرجل الحازم ويستخدمن الرجل الضعيف
اللين ، ولا أخفيكم ما شعرته إزاء تلك الخصلة من الإتهازية والرياء
والخصلة الرابعة أن النساء يجبين من الزوج .. ما يجب الزوج منهن ،
من طيب الكلام وحسن المنظر ونظافة الثياب وطيب الرائحة ،
ويملاً عيني كم تتبدى بعض النسوة كـ " الغفر " حين إستقبال
أزواجهن ..

ولا أنكر بالطبع أن بعض الرجال يهملون أنفسهم إلى حد يثير
الإشمئزاز ، فمنهم من تستهلكه الأعباء فينسى أن الله خلقه إنسانا
وليس قردا ، أما عن أثر المخدرات في هذا .. فحدث ولا حرج ،

وأذكر أنه من أكثر ما سمعت على أفواه النساء تعليقا على إهمال الرجال لأنفسهم ذكر " كرش الرجل " المتدلى دوما ، فيتمخض الرجل عابثا " اللى ملوش كرش ميسواش قرش " ، أو أن الكرش شارة العز والغناء ، ونسين أنهن بعض الوضع بيتن ك قربة المياه

ويعلم الله أنى لا أتصيد العيوب ، وإنما لأبرز أن فعل الأيام يحيل الشخص من إنسان لإنسان آخر ، وأنه بالنصح اللطيف دون الوصم والإهانة .. يصل كل من الزوجين إلى ما يبتغيه من الطرف الآخر ..

أما عن الخصلة الخامسة ، يقول ابن حنبل أن الأنثى تعتبر البيت مملكتها الخاصة ، وتشعر فيه أنها متربعة على عرشها ، فتبغض وبضراوة من يهدمه .. أو يزيحها عن عرشها ، وتبدي عدااء لا راد له لمن ينازعها فيه ..

وفي الخصلة السادسة يقول أن المرأة بطبعها تكسب زوجها وتحب أهلها ، وما أصعب أن يقيم الرجل ميزانا يقارن بينهما ، وإلا تحولت الحياة إلى عدااء لا ينتهى ..

ويقول فى الخصلة السابعة أن المرأة خلقت من ضلع أعوج .. وهذا سر الجمال والجذب فيها وليس عيبا " فالحاجب زينه العوج " ، لذا لا ينبغى التأجل عليها .. إن هى أخطأت فى محاولة لإقامة إعوجاجها فتتكسر ، ولا تترك فيزداد هذا الإعوجاج .. وتتوقع على نفسها فلا تلين أبدا ..

وأذكر أن أحد الفلاسفة قال أن معدن المرأة أنفس من معدن الرجل ،

فالرجل خلق من طين " من جماد " ، أما المرأة فقد خلقت من حياة " من ضلع آدم " ، لذا فهي تحتاج للحياة وتبها أكثر من الرجل .. فالرجل تنتزع منه الحياة ..

وأعتقد أن هذا سر قيلة أن رحم المرأة هو السر الأعظم .. الذى يتهاوى الرجل أمامه ، دون أن يشعر أنه يفقد رجولته ، فالرجولة أمام الذكورة خلق متأخر ، لا بد من إشباع الذكورة قبل الرجولة وهذا لا ينفى كون النساء ولايا ومكسورات الجناح ، لأنه حقيقة لو كن ألف امرأة لإحتجن ولو لرجل واحد ، ولا ضيم أو عيب فى هذا ، فالحاذقة ستعى أنها قوانين الله ونواميس الحياة

وفى الخصلة الثامنة يقول ابن حنبل .. إن النساء جبلن على كفر العشير وجحدان المعروف ، فإن أحسنت لإحداهن دهرا ثم أسأت إليها مرة قالت .. ما وجدت منك خيرا قط ، فلا يحملنك هذا الخلق على كرهها والنفور منها ، فإن كرهت خلقا .. إرض بغيره .. وفى هذا ما أكثر ما قد يقال ..

وأذكر حديث الرسول " صلى الله عليه وسلم " .. " لا تزوجوا النساء لحسنهن إن يرديهن ، ولا تزوجهن لأموالهن فعسى أموالهن أن يطغيهن ، ولكن تزوجهن على الدين " صدق رسول الله " صلى الله عليه وسلم " ، فالدين قادر على وأد خصالهن الذميمة التى جبلن عليها ، وتلك وصفة الرسول " صلى الله عليه وسلم " لكل من خشى الارتباط بأنثى " بالزواج طبعاً " .. خوفا مما قد يكون قد رأى



نسیل مرعی

من طباع تهدم أى علاقة مستقرة ، وتهدم سكينه البيوت الآمنة ..

حكى لى أحد أصداقى ..

- أنا حاسس إن أمى بتكرهنى ..

فقلت مستغربا ..

- إزاي ده؟! .. هو فيه أم تكره إنها؟! ..

فقال متألما ..

- لو إديتها فلوس .. تهتم بيا وبحاجاتى .. وتعمل كل اللى

نفسى فيه قبل حتى ما ينطق بيه لسانى .. ولو إتعدرت وما

إديتهاش .. تفضل مكشرة فى وشى .. وكإنى قاعد بالإيجار

فى البيت والأجرة متأخرة .. وتنسى أى حاجة حلوة عملتها

.. وتفضل تبكت فى فى الراحة والحاية .. أنا متأكد إنها بتحب

إخواتى أكثر منى ..

وذات القيلة حدثنى بها أكثر من رجل .. وفى ظروف مختلفة ، بين

الزوج وزوجته ، بين الأخ وأخته ، وبين الخطيبين ..

ولكن هنا لى قيلتين إحداهما للرجل والثانية للمرأة ..

أما عن قيلة الرجل أقول ، لو خلقت الأنثى طائرا لكانت طاووسا ،

ولو خلقت حيوانا لكانت غزالة ، ولو خلقت حشرة لكانت فراشة ،

لكنها خلقت بشرا فأصبحت حبيبة وزوجة وأما رائحة ، فى طفولتها

تفتح لأبيها بابا فى الجنة ، وفى شبابها تكمل دين زوجها ، وفى أمومتها

تكون الجنة تحت قدميها ، ولروعتها جعلها الله حورية يكافئها بها

الناجين في الجنة ، وتلك كانت كلمات من أجمل ما سمعت ..
وللمرأة أقول ، تأملى هذا الحديث الذى دار يوماً ما بين عجوز "
معمرة " .. عاشت سنوات عمرها في هناء وسعادة مع زوجها ،
عندما سألتها المذيعة ..

- إذن ما هو سر سعادتك ؟ ..

قالت العجوز ..

- عندما يثور ويغضب زوجى .. كنت ألتجأ الى الصمت المطبق
بكل إحترام .. مع طأطأة الرأس بكل أسف .. وإياك
والصمت المصاحب لنظرة سخرية .. فالرجل ذكى ويفهمها
..

- ولماذا لا تغادرين المكان ؟ .. تخرجين من الغرفة مثلاً ..

- إياك .. فقد يظن أنك تهربين منه .. ولا تريدين سماعه ..
عليكى بالصمت .. والموافقة على جميع ما يقوله حتى يهدأ ..
ثم أقول له هل إنتهيت .. ثم أخرج لأنه سيتعب ويحتاج إلى
الراحة بعد الصراخ .. فأخرج من الغرفة وأكمل أعمالى
المنزلية ..

- وماذا تفعلين بعد ؟ .. هل تلجئين إلى أسلوب المقاطعة ؟ ..
ولا تكلميه لأسبوع مثلاً ..

- لا إياك .. فتلك العادة سيئة .. سلاح ذو حدين .. فعندما
تقاطعين زوجك أسبوع .. سيحتاج مصالحتك .. وسيعتاد

على هذا الوضع .. ولربما إرتفع سقف المطالبة إلى حد أنه قد
يلجأ إلى العناد الشديد ..

- ماذا تفعلين إذن ؟ ..
- بعد ساعتين أو أكثر .. أضع له كوبا من العصير أو فنجان
قهوة .. وأقول له تفضل إشرب .. لأنه فعلا محتاج لذلك
وأكلمه بشكل طبيعي .. فيسألنى هل أنتى غاضبة .. فأقول
لا .. فيبدأ بالإعتذار عن كلامه القاسى .. ويسمعنى كلام
جميل ..

- وهل تصدقينه ؟ ..
- طبعاً .. نعم لأنى أثق بنفسى ولست غبية .. هل تريدن منى
تصديق كلامه وهو غاضب .. ولا أصدقه وهو هادئ ..
- وكرامتك ؟ ..

- كرامتى تتحقق برضى زوجى وصفاء العشرة بيننا .. ولا
توجد كرامة بين الزوج والزوجة .. أى كرامة تلك !! وقد
تجردتى أمامه من جميع ثيابك ..

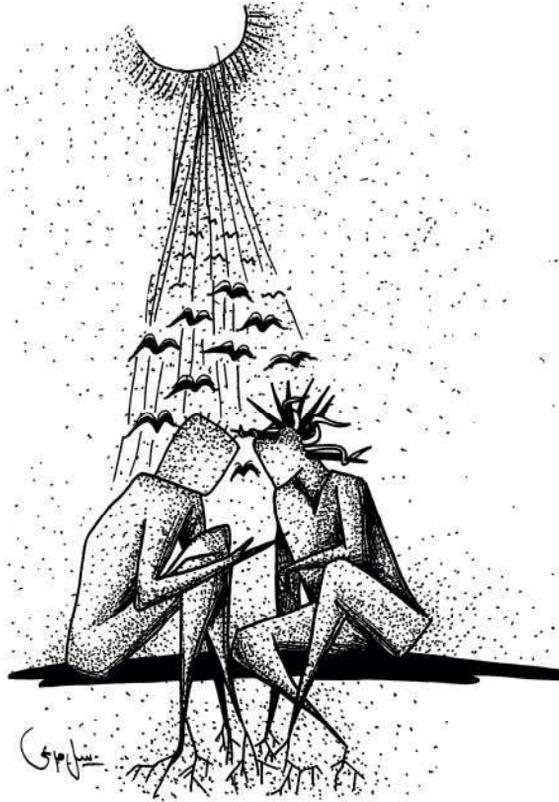
إلا أن أكثر ما يخشى من ردة فعل الأنثى فى أى علاقة .. أنها جبلت
على كفر العشير وجحدان المعروف ، لذا فالفقر دوما من الأشياء
التي تقتل أى علاقة قائمة ، وتلك الخصلة من أكثر ما يجعلنى أفكر
كثيراً وأقول " أيعنى هذا أنه مهما بذلت لأجلها فلن تعترف به أو
تقدره .. عند أول نقطة خلاف ، ما أقبحها خصلة " فكلنا يكره

الجاحدين ، ولا أدري كيف تستقيم علاقة أحد طرفها جاحدا لا يمتن لمعروف ، وهنا أتأمل كيف عاش كل الأزواج منذ خلق آدم إلى الآن ؟ ، لا بد وأن هناك طريقة للتعايش ، وأظن أن إحترام الرجل وتقديره لزوجته هو ما يقتل داخلها خصلة الجحود والنكران ..

وهنا أذكر أن من أسباب إهدام العلاقة بين الرجل والمرأة هي .. الفقر ، والملل ، والكذب المستمر ، والصمت الطويل ، وفارق السن إلا ما ندر .. فكم من زيجة ناجحة أحد طرفها يفوق الآخر بسنوات " ربما كانت كثيرة " ، وخير مثال على هذا رسولنا الكريم محمد " صلى الله علي وسلم " والسيدة خديجة " رضی الله عنها " ..

والإهمال وسوء الإعتناء والتقدير من أحد تلك الأسباب ، وهنا أعلم أن للإهتمام مفعول السحر في أى علاقة ، فبه يحدث تواصل صحيحا على أفضل ما يجب .. وذلك بأن يحافظ كل طرف على واجباته ، كما يحرص على حقوقه ، وأن يبدي مشاعره من آن لآخر ، وأن يستقبل الشكوى بإهتمام .. فالإهمال يأتي دائما بنتيجة عكسية ، والإبتعاد عن الإهانة والتجريح .. فبعض الجروح يصعب مداواتها . وعدم الإستخفاف بالطرف الآخر ومهامه .. مهما بدت بسيطة ، والتعبير عن التقدير والإمتنان .. لكل صنيع يبذله كل طرف لصالح الطرف الأخر بل والإستمتاع بكل جميل يبذله ، والتعبير عن الحب بكلمات رقيقة .. ولا مانع من إبداء الإعجاب بثوبه أو عطره وما شابه ، فذاك يبدد الطاقة السلبية .

أما في الخصلة التاسعة يقول ابن حنبل .. المرأة تمر بحالات من الضعف الجسدى والتعب النفسى ، حتى أن الله " سبحانه وتعالى " .. أسقط عنها مجموعة من الفرائض التى إفترضها في هذه الحالات ، فقد أسقط الصلاة نهائيا ، وأنسأ لها الصيام حتى تعود لصحتها ويعتدل مزاجها ، لذا فعلى الرجل أن يخفف عنها بعضا من المتطلبات والإلتزامات ..



وأذكر فقرة قرأتها تقول " الرجال كلهم مرضى بالأنثى .. كما أنهم مرضى بالطعام والمال ، لما يكثر الطعام في جوفهم يقولون .. إن القليل من الطعام خير من كثيره ، ولما تصير المرأة في أيام الطمث يقولون .. كلما قلت من نكاح المرأة كان هذا أفضل " ..

وحملت الخصلة العاشرة نصيحة لكل رجل ، بأن المرأة أسيرة عنده .. فينبغى أن يرحم أسرها ، ويتجاوز عن ضعفها .. لتكن خير متاع وخير شريك ..

لقد حملت تلك الخصال من طبائع المرأة .. ما يكفى بعض الرجال بهرة العجب من أمر الأنثى وتحولاتها ، إلا أن مكشفتها ستظل قائمة إلى يوم الدين ، ولتعلم أن المرأة تدرك جيدا كل ما يدور حول طباعها من معارك ، أى أنها ليست مغيبة ، دائما تجد لديها مرآة تحدثها بعيوبا وميزات ، إلا أنها لا تكشف تركيزها إلا على ميزات ، ولا ترى من عيب فى شخصها ..

وهى أعرف الخلائق بالأسرار ، وأكثرهم إدراكا بطرق صونها أو إفشائها ، فكن حريصا أن تودع شرك امرأة ، ورغم ذلك يقول أحدهم " المرأة كنز مخبوء داخله كل ثروات الرجل " وهذا أيضا أجده مرتبطا بكون " رحم المرأة هو السر الأعظم الذى يتهاوى الرجل أمامه " ، وحول أسرار الرجل فهى قد تصير رجلها أحقر وأوضع الناس ، أو رجلا ذو حيثية مرموقة .

وبالنهاية أجد مقالتي كلما قرأتها .. محض كلمات تدور في فلك المرأة ،
ولا تمس شيئاً منها ، فهي كل شيء عدا ما خطت يدي ، وما أصعب
أن تحاول الكتابة عن شيء .. وتجد في جوفك الكثير لتقوله .. إلا أنه
يجيد في كل مرة عن مرمك كلما شرعت بالبوح ، وتلك هي المرأة ..
تعرفها ولا تملك ما تقوله عنها ..



سَنید



شنيل

في طراوة العصارى ، ذهبت لأحد زملائي إلى حيث كنا نجلس ..
دوما في ذات الميعاد ، على مايشبه " المصطبة " أمام بيته ، وكان قد
هاتفنى خصيصا .. يتآزفنى في أمر ما يريد أن يحدثنى به ..

وقد كان أمره شديد الغرابة ، إلا أنه راق لى ، طالعنى بشأن أحد
معارفه ، شابا في أواخر طور العشرين ، قد جنى ما يعدو المائة ألف
جنيه .. جريرة صفقة قد عقدها مع شركة تدعى " شنيل " ، شركة
صينية فتحت أبوابها للشباب ، ليعقدوا ذات الصفقة ويجنوا من
ورائها الثروة والمال ..

إستوقفنى الأمر .. وإستحوز على إنتباهى ، خاصة وأن أمورى المالية
كانت مأزومة للغاية ، ويشاركنى زميلى ذات الظرف ، كنا نعانى من
قلة العمل وشح المال ، ومحسوبين على بند العاطلين ، لذا فقد جاءتنا
الشركة وصفقتها المدعوة في أمس الحاجة إليها ..
سألته عن تفاصيل تلك الصفقة المهمة ، فقال لى بإختصار ، إذ كانت
معلوماته زهيدة حولها ..

- الشركة دى بتبيع نوع من الأجهزة الطبية بتعالج كل شىء !
.. أمراض القلب والكبد والكلى وغيره !! ، مقابل مبلغ ألف
جنيه ، ومش مطلوب منا غير إننا نشترى الجهاز ده ، بعد
كده هتقبضنا الشركة مرتب كل نص شهر .. مرتبات عالية
جدا ، بشرط إن كل واحد منا يجب شخصين تانيين ..

يشتروا الجهاز ، وهنقبض عن كل شخص ميه وأربعين جنيه
كل ١٥ يوم ..

وكل واحد من الشخصين يجيب إثنين كمان يشتروا الجهاز ،
ويكده هنقبض عن أربع أفراد غير الإثنين اللى جنبناهم ،
ويبقى المرتب عن ست أشخاص ٨٤٠ جنيه كل نص شهر
.. يعنى شهريا هنقبض ١٦٨٠ جنيه ، ونفضل شجرة
الأشخاص تكبر .. والمرتب يكبر معاها ، ونقدر نحقق ثروة
في شهور قليلة ، وهى دى طبيعة الصفقة اللى بتقدمها شركة
شنيل ، إيه رأيك بقا ؟ ..

بدا لى الأمر فى بادئهُ أنه نوع من المقامرة ، إلا أن زميلى قال ..

- الشركة مرخصة من الدولة ، والأزهر أجاز نشاطها وحلله ،
يعنى ده نشاط شرعى ، والشركة شغالة فى النور وتحت عين
الحكومة ..

بقدر ما أصابنى الأمر بالريبة والوجل ، إلا أنه أوجد مخرجا سلسا
لأوضاعنا المادية المتعثرة ، ظللت لعدة أيام مترددا ، أفكر فى الأمر
مليا ، إلى أن وافقت بالنهاية ، شريطة أن أعقد جلسة مع ذاك الرجل
، ثم نقوم بعدها بزيارة لمقر الشركة لأتحقق من الأمر بنفسى ، فتلك
الأيام المتعثرة .. جعلتنى لا أأمن شر أحدهم ، فكم من الرفقة
أوقعونا فى شراكمهم ، وخلصوا سبيلنا مذ أن تأزمت أحوالنا ..
وكانت سهرة الليلة اللاحقة فى بيت الرجل المدعو ، وأكد لى صدق



النبأ ، وأزاد بأن للشركة فروع في كل دول العالم .. وتحظى بمصداقية منقطعة النظير ، قلت في نفسى أنها " شنيل .. لم أسمع عن مؤسسة بهذا الإسم من قبل ! " ، إلا أنى إصطبرت أنتظر لاحق الحديث والأحداث ..

أكد لنا أنه لا يُخشى من إجراء كذاك ، حتى في أسوأ الأحوال ، لن نخسر شي .. فماذا يعنى مبلغ ضئيل كالف جنيه ، ضحكت في نفسى ، لقد إقترضنا " أجرة " الطريق إليه .. ولا ثمة ألف مليم في جيوبنا ، إلا أنى تظاهرت بعدم الإكتراث ..

- كلامك صح والله ، يعنى إيه ألف جنيه ؟! .. ده إحنا بنصرفه في عشوة حلوة وحاجة ساقعة .. وداخلى يصرخ " يا كداااااااب " ..

وفي اليوم التالى ، ركبنا قطار السابعة المتوجه إلى القاهرة ، ووفانا رجل " الألف جنيه " في محطة لاحقة ، ولا أخفيكم خبرا .. لقد كان أكثر سخافة من دعابته ..

ما من فتاة في القطار إلا وغازلها ، وتحرش بها لفظيا ، بل وأضاف إلى قاموس " العهر " مصطلحات جديدة .. تليق به وبساجته وتلذجه ، كان يطلق الحديث والنكات السافرة على عواهنا .. دون قياد أو لجام ولقد كان جملة ما حدث في القطار ، داعيا لأن يزيد ريبتي ، كنت أتكهن أشياء تنطلى على أحذق الرجال .. وتخب رجاء أكثر أهل الأرض تفاؤلا ، " إنه يذكرنى بسعيد صالح في فيلم رجب على

صفيح ساخن " .. لا بد وأن شركته على شاكلته ، فالطيور على أشكالها تقع ، ومسألة المقامرة " ما عاد فيها شكاً " بالنسبة لي ، فالرجل لا أتخيله إلا محتملاً أو نصاباً .. أو رجل بغاء لا يبرح صالات " القمار " ..

ولا أدري كيف لتركيبة مرواغة كتلك أن تقطن بلد ريفي ، أهله يتسمون بسمت سجي .. وحمق مجاني ، لا بد وأنه نازح من المدينة .. لهجته تنم عند ذلك إذ كانت لهجة " بندرية " ..

كل هذا وأكثر دار في رأسي ، صراع ظلت رحاه تطحن أفكارى ، وتعتصر حسن نيتي فتشوهها ، فلا مجال للصدق مع هذا الرجل ، يحتاج لخلاطة سرية من الرياء والإصطناع كخلطة " كتاكى " ..

وأكثر ما " أحرق دمي " أن صاحبي كان يصدقه في كل ما يدعى ، كان إنبهاره أكثر سخفاً من سخف الرجل ذاته ، كنت أرمقه مغتاضاً ، ولو كان يبدي مطرقة .. لهشمت تلك الرأس الأشبه بـ " حلة المحشى الحمضانة " ، كيف ينظلي عليه كذبه بهذه السرعة؟! ، سرعة خاطفة ، حتى أنه كان يجود أحياناً ويكمل عباراته المدعية ، كأن يقول الرجل

- ودخلت على مدير الشركة

فيكمل صاحبي ..

- ورقعته قلمين وشلوطين ومسحت بيه الأرض ..

" أووف " .. رحم الله رأسي لقد تحمل ما يعدو طاقته ..

وأخير .. ولج القطار محطة رمسيس ، بعد أكثر من ساعتين ونصف من الهراء و " الرغى " ، بعدها فقد الرجل النطق ، لم يجرؤ هنا " في القاهرة " على الكذب ، ولو فعل ، لظنوا أنه مهرج أو لرقعوه بالنعال وما هي إلا ساعة زمن أخرى .. وكنا أمام الشركة ، كانت بأحد ضواحي حلوان ، وهناك جاءتني جرعة أخرى من الإنصدام .. إنها شركة بحق ، ذات مبنى كبير وعملاق .. كشط من مبنى التحرير ، وثمة غرفة أمن متطورة ، وقاعات إنتظار رحبية ، ومداخل ومخارج إلكترونية ، وساحات خضراء للتريض والإنتظار وعقد الصفقات ، والزوار يعدو تعدادهم بالألاف " كيف يتحملهم المنشأ؟! " ، والكل هنا يرتدى البذات الفخمة ، ورباطات العنق الوثيرة ، والأحذية السوداء البراقة ، كنا بينهم لثلاثة شحاذين جئنا " نلقط رزقنا " ..

ومازال في جوف العجب بقية ، أخذنا الرجل إلى أحد المشرفين بالشركة " يقع هو تحت شجرته " ، وظل الرجل يحكى ويحكى عن الشركة ، يعدد ميزاتها ويمدح في فضائلها ، قال ..

- شنيل شغالة على أحدث النظم الإقتصادية العالمية .. معظم مؤسسات العالم دلوقتي بدأت تشتغل بنفس النظام .. وأخيرة إتكتب لمصر إنها تسابير الركب .. أنا في خلال ستة شهور بس .. بقا مرتبى نص مليون جنيهه كل ١٤ يوم .. وده ليه ؟ .. طبعاً بفضل مجهوداتى وسعى لضم أكبر عدد من الأشخاص

في شجرتي ..

وسأله صاحبي ..

- طب إحنا نعمل إيه دلوقتي ؟ ..

- مش هتعملوا أى حاجة قبل ما تحضروا المحاضرة اللي

بتقدمها الشركة مجاناً .. هتشرح ليكوا طريقة الشغل ..

وإزاي تجيبوا أكبر عدد من الأشخاص ..

وبالفعل إصطحبنا إلى داخل قاعة واسعة ، بها المئات من المدعويين ،

ثم خلى سبيلنا .. ينتظرنا في حديقة الشركة مع عملاء آخرين ..

كانت المحاضرة في مجملها .. محاضرة تنمية بشرية ، تتحدث عن

العمل والفرص والمستقبل بطريقة بدیعة ، كانت محاضرة تحفيزية من

الطراز الأول ، وهنا إستعانوا بأهم المحاضرين ، يقنعونك بالمعلومة

بإنسيابية مذهشة ، وكأنهم شياطين الإنس .. يملكون جملة أفانين

الكلام ، فأنت قبل أن تلج القاعة شيء .. وبعدها في شيء آخر ،

كلماتهم كالتنويم المغناطيسى ، تتسلل إلى عقلك دون دراية منك ،

وتتوطن في أقوى مراكز الإستيعاب به ، ثم لا تجد نفسك إلا وأنت

تردد ذات عباراتهم كالبعبعاء ، وكأنك مؤلفها وواضع سردها ، بات

كل منا كمحاضر قائم بذاته .. يمكنه تلقين المئات ملء قاعة كتلك ..

خرجنا من المحاضرة ملهوفين ، نتوق شوقاً لرؤية مشرف الشركة ،

لنركض إليه .. ونسأله عما يجب فعله إزاء إبرام تلك الصفقة ،

وبالفعل وجدناه بين زمرة من الأشخاص .. مستغرق في إقناعهم ،

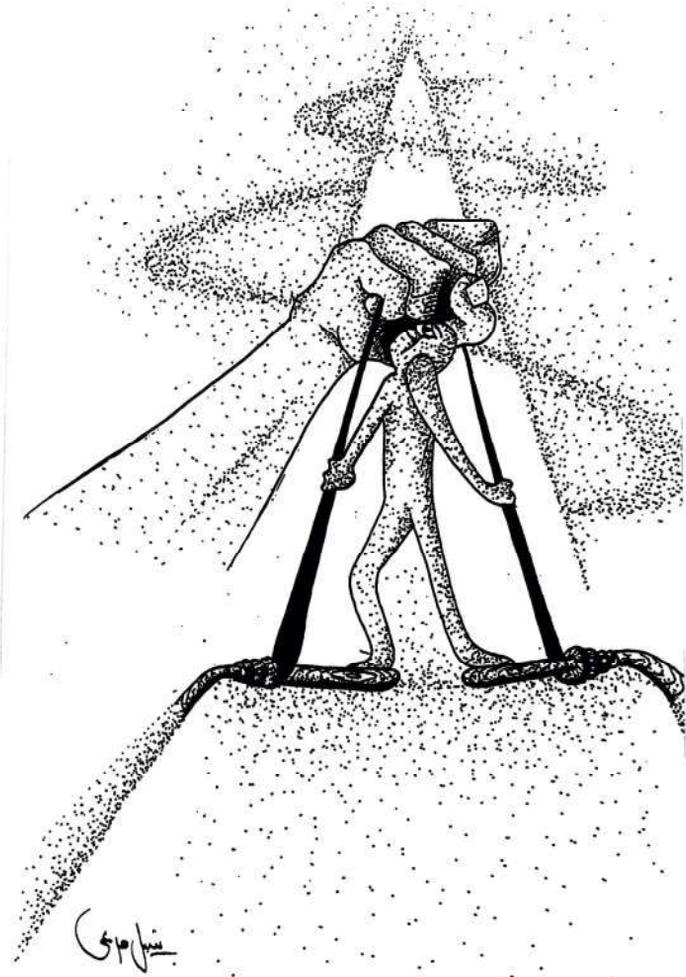
وفي الحقيقة لم يكن في حاجة لبذل كل هذا العناء ، كفاهم فقط أن يلجوا إلى قاعة الأباليس ، بعدها سيكون كل شئ على ما يرام ، سيخرجون وعقولهم خواء .. إلا من توصيات المحاضرين وإرشاداتهم ..

وبسرعة غريبة ، تجاوز المشرف كل المراحل التي يتوجب عليه المرور بنا عليها ، قائلاً ..

- اللي جاهز منكم بالفلوس .. يروح قسم المبيعات يشتري الجهاز .. ولو مش جاهزين هستناكم بكرة .. معلى أنا مش هقدر أقعد معاكم أكثر من كده .. معايا عملا كتير النهاردة .. لازم أفهمهم هيعملوا إيه .. مستنيكم بكرة .. متنسوش ..

تعجبت من هذا النحو التعسفى ، الرجل لم يجلس معنا .. لم يفهمنا شئ ، أو لربما كنت أنا أكثر تباطئاً ، فكل شئ هنا يتم فى عجلة .. إلا أنه يتم بدقة فى آن ، كل خطوة محسوبة ، لا بد وأن أساير هذا الركب الذى يركض بسرعة جنونية ، ولا عجب .. فتلك سمة العصر ..

عدنا أدراجنا إلى البلدة ، والأحلام تطيح بعقولنا ، كل شئ يميننا بكل ما هو جميل وسعيد ، وعلى العكس تماماً ، لم تكن جيئتنا مثل رواحنا ، فالرجل صاحب دعاية الألف جنية ووسيط تلك الصفقة ، خيم عليه صمت غريب طوال رحلة العودة ، بدا وكأنه نادى على أنه



أرشدنا إلى تلك الصفقة ، وفي الحقيقة كنت أتوقع منه هذا وأكثر ،
فمثله لا يجب الخير لأحد ..
وبدأت رحلة أخرى .. كيف سنحصل على مبلغ ألفين جنيه .. لي
ولصاحبي ، إننا بالكاد نوفر مصاريفنا الشخصية ، وبؤسنا إنما هو

إنعكاس لبؤس أسرنا ، فحتى لو عرضنا عليهم الصفقة ووافقوا ، فلن يتمكنوا من توفير المبلغ ، أحسست وكأننا أسقطنا في بئر مظلم .. وبينما تدلى حبل لينقذنا .. وجدنا أنه لا أذرع لنا ، ما هذا الطالع التعس العنيد ، لا بد وأن هناك مخرج .. فلا من مشكلة إلا ولها حل ، هكذا علمتني الدنيا ..

إقترحت على صاحبي أن نلوذ إلى بعض أقاربنا ومعارفنا لنقترض المبلغ .. فوافق ، وبالفعل تمكن هو من جمع المبلغ في بحر يومين ، أما أنا فلم أجد من يقرضني " قرشين صاغ " لا ألف جنيه ! ، وكأني تائه في الفيفاء .. رغم أن عائلتي " تسد عين الشمس " ، إلا أن أغلب علاقاتي بهم ممزقة ومهترئة ، لذا لم أجرؤ على اللجوء لأحدهم إستسلمت بالنهاية لما آل إليه الأمر ، فقلت لصاحبي ..

- سافر إنت وإشترى الجهاز ، وقدام لما تيسر أحوالك .. أبقى

أستلف منك المبلغ ، وأشتره تحت شجرتك

وكطبيعة البشر .. لم يعلق صاحبي سعادته بتعاستي ، فذهب في الصباح الباكر .. وعاد في نهاية اليوم وقد جلب ذاك الجهاز السحري " وكأنه مصباح علاء الدين " ، وكان عليه أن يجلب شخصين لتبدأ شجرته في التضاخم ، وما عدت أراه بعد اليوم ، وكلما طلبته لا أجده ، فلم أندهش .. لم يكن الأول ولن يكون الأخير ، ولقد تعودت .. وإكتسبت مناعة الأيام ..

إنكفأت على نفسي ، أفكر طويلا في حل ، حتى إهتديت إلى أحد

أصدقاء الجامعة ، كان شابا من أسرة وثيرة ميسورة الحال ، جال بخلدى أن أعرض عليه أمر الصنفقة ، فيقرضنى المبلغ ونبرمها سويا مع الشركة ، لا مخرج من تلك الأزمة سوى هذا الحل ، فتلك فرصة العمر ، وربما لن تواتينى مرة أخرى ..

ولقد كان إنتخابى له فى موضعه ، فبمجرد أن أطلعتة على الأمر .. وافق لتوه ، إلا أنه وكالعادة إشتط أن يزور مقر الشركة بنفسه ، ليطمئن ، كان الوقت يمر بسرعة .. إلا أنى لم أملك إلا أن أنصاع لرغبته ..

وكان يوم المفاجآت .. ففى الصباح قصدنا وجهتنا ، ناهزنا مشارف الضاحية ، وعلى مبعده زهاء المائة متر من مقر الشركة ، صدمنا بمشهد سيارات الشرطة والأمن المركزى .. تتراص بكثافة عند مداخلها الرئيسة ، وبعض منها يحوط الأسوار .. على الجانبين المطلا على الشوارع الرئيسية ، أحسست وأن قلبى سينفجر من فرط الإختلاج ، كقطار يخلق من فرط سرعته ..

ركضت فى الشارع يتبعنى صديقى ، وأمام أحد العربات إنتصبت أرمى بوابات الشركة .. وقد أوصدت بـ " الشمع الأحمر " ، تقهقرت عدة خطوات للخلف ، أشعر وأن الأرض تميدت تحت قدمائى ، فإصطدمت بأحدهم ، إلتفت ورائى لأجد الألاف من الناس فى جمهرة عظيمة أمام الشركة ، فسألت أحدهم ..

- هو فيه إيه؟! ..

فأجاب ..

- الشركة إتقفلت بأمر من النائب العام ، بتهمة النصب والإحتيال والمقامرة العلنية ..
عرفت أن أولئك الناس هم بعض ضحايا تلك الصفقة المشبوهة ،
وكل جاء بمظلمته ..

ضحك صديقى بشدة ، حتى كاد يقع على ظهره ، إلا أنه بتر
ضحكته عنوة .. لما لحظه من تأثرى وحزنى الشديد ، فتقدم نحوى
وسحبني من ساعدى إلى خارج الجماهرة ..
جسرنا شارع جانبى إلى أحد الميادين العامة ، دون أن ينبس أحدنا
بكلمة ، وعند أريكة خشبية جلسنا ، كانت تخلفنا نافورة عظيمة ،
وبدأ يفرغ حزنى قائلاً ..

- إنت المفروض تحمد ربنا إنك مدفعتش حاجة .. كنت هتبقى
واحد من اللى إت نصب عليهم .. دى علامة من ربنا .. إختارك
عشان قلبك الطيب ده .. بص حوالياك وإنت تعرف قد إيه
رحمك .. آلاف من الناس بيكوا بدل الدموع دم ..
إنت مخسرتش حاجة ، وبعدين ياعم لسة العمر قدامك ،
إجمد .. وخليك ديبا واقف ، ياما هتقع فى حفر .. وياما
هتتحقق نجاحات تفرح قلبك .. إيه يا عم إنت نسيت كلام
التنمية البشرية اللى خرمت دماغنا بيه أيام الجامعة .. فإكر لما
قولتلى لو فقدت الأمل هتفقد الرغبة .. ولو فقدت الرغبة



هتفقد الرؤية .. ولو فقدت الرؤية هتفقد الحياة وتعيش تايه
في سراب الأمل ..

إنت نسيت كلامك ولا إيه .. ولا هو كان كلام وخلاص ..
خلى عندك إيمان وأمل حقيقي .. دى مش نهاية الرحلة ..
الطريق لسة قدامك طويل .. قوم وإمشى ..

وأضءت بغتة على الجهة الأخرى .. أضواء إحدى لافتات السينا
قبالتنا ، فنظرنه ، صديقه ، باسا ..



- بقولك إيه .. مش هنضيع يومناح الفاضى ، تعالى ندخل فيلم
" أحمد السقا " الجديد .. يقولوا فيلم حلو قوى .. يستاهل
نشوفه ..

ولكزنى برفق .. يستجدى تبسمى ، وظل على نهجه .. فلم أجد
مناصا من محاولاته ، فأفرجت شفتاى .. وقلبى تمزقه خيبة الأمل ،
نظرنى باسما وجذب ساعدى .. ففقت معه حتى لا أبدو سخيفا ،
وإجتزنا الشارع إلى باب السينما الرئيسى ..

لَا تُخْرِفُ ..
وَلَا تُرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ



لا أعرف .. ولا أريد أن أتعلم

أطلعني أحد زملائي في العمل " ذات مرة " على ورقة مصفرة قديمة ، كان قد احتفظ بها في " محفظته " ، كتبها بخط يده منذ أكثر من خمسة عشرة عاما ، كانت الورقة عبارة عن مجموعة من المهام ، كل مهمة محددة اليوم والشهر والسنة ، وكان عليه إنجازها خلال الخمسة عشر عاما ، التخرج .. العمل .. شراء شقة وتجهيزها .. الزواج .. تأسيس مكتب هندسى .. شراء سيارة ... إلى آخره ..

وكان اليوم .. هو اليوم الأخير في قائمة مهامه ، نظرني فخورا ، إنه وحتى اللحظة الأخيرة لم يتنازل أو يسقط أى من طموحاته .. التى تاق لتحقيقها يوما ما ، إستطاع أن ينجز كل مهامه ، كما خطتها يده بالورقة ، باليوم والشهر والسنة المحددة لها ، مضى طريقه خلال تلك السنوات يعرف هدفه جيدا ، لم يخطئه أو يجيد عنه مرة واحدة ، وكأنه يعلم مواطن العثرات فتفادى الإصطدام بها ، أو أوتى سطور الغيب لعقد ونصف من الزمان .

إستوقفتنى تلك القائمة طويلا ، أفكر ..

كيف يصيب بعض البشر مرماهم دائما .. دون خطأ ؟ .. ألا تعطلهم كبوات ؟ ..

وأين الوجل مما هو آتى ؟ .. ألا يخالجهم مرة ؟ ، ألا تواتيهم لحظات حرجة .. تطفئ عواصف النفس .. أنوار عقولهم ؟ ..

ألا يتشتتوا وتختلط عليهم الأمور ؟ ، ألا يتوه الطريق منهم ؟ ، حتى

السائر على أرض الواقع قد يوقفه مفترق طريق .. فيقف مريحا .. في
أيهم يسير ؟ ..

كنت حائرا .. لا أتخيل أن هناك ثمة حظ موفق " على طول الخط " ،
لابد وأن هناك سر .. لذلك الذى لا يخطئ خطوه أبدا
وقفرت من عقلى عدة أسباب ، ربما كان التخطيط السليم سببا ، أو
التوفيق ، وعلهم حازوا وفرة من الحظ السعيد وغيرها من
تعليلات ، إلا أنه ومع كل هذه الأسباب .. لا يمكن أن يصيب
الإنسان هدفه بدون عقل يفكر، وكيف فى الأصل يحقق كل منجزاته
بهذه الدقة المتناهية .. وكأنه يعلم ما سيجرى فى قادم الأيام ، فيعد
العدة ويتأهب لها ، فهذا ضد نوااميس الحياة ، وتذكرت قيلة قديمة "
يمكننا أن نفعل أى شئ نريده .. لكن لا يمكننا أن نفعل كل شئ
نريده " ..

توصلت بالنهاية إلى أن التخطيط السليم .. هو عماد تلك التجارب
الناجحة ، ولا عوض عنه ، يكمله بعد ذلك المثابرة والإستمرار
والتوفيق وبعضا من الحظ السعيد ، رغم إعتقادى بأن الحظ ما هو إلا
توفيق من الله ..

وما من تجربة ناجحة .. إلا وتسبقها عشرات وربما المئات من
المحاولات الفاشلة ، ولا ريب أن زميلى قد أخفى عنى ذلك الجانب ،
فلم يضيئه ، ربما لإعتقاده بأن الفشل قد يقلل من شأن تجربته ، إلا أنه
أوحلنى فى معضلة كبرى ، عانيت لحلها .. فك طلاسمها ..

وبرزت في رأسى الكثير من النماذج الناجحة التى تؤيد فكرتى ..
إديسون " مخترع المصباح الكهربائى " ، طه حسين و هيلين كيلر "
قاهرى الظلام " ، ستيف جوبز " صاحب فكرة أبل " ، ماركو بولو
" الرحالة الإيطالى " ، لويس برايل " مخترع طريقة برايل " ...
والقائمة تطول من أعلام الدنيا .. الذين عانوا كثيرا فى حياتهم فثابروا
وصمدوا ، وإستمروا وواصلوا العمل ، ورسبوا لمرات ومرات ،
وأصابتهم إحباطات الفشل ، إلا أنهم لم يستسلموا ، حتى نالوا ما
كافحوا لأجله ، وقدموا خير مثال بأن النجاح دوما يولد من رحم
الفشل والمعاناة ..

" فالنجاح هو القدرة على الإنتقال من فشل إلى فشل .. دون أن تفقد
حماسك " كما قال " ونستون تشرشل " ..

هم لم يبحثوا عن أرض جديدة ليحققوا أهدافهم ، لم يتراخوا أو
يسلموا للنوم أو الخوف أو الغضب أو الكسل أو المماطلة ، إهتموا
بنجاحهم وعنوا بالرغبة فى تحقيقه ، ونظروا الأشياء بأعين جديدة ،
وتنبهوا جيدا لأعراض النجاح الجانبية .. فلم يغتروا أو يتفاخروا ،
أكملوا طريقهم ، ومنذ اللحظة الأولى لم تكن أهدافهم مجرد أمنيات او
رغبات ، أدركوا أن الأمانى بضاعة الفقراء ..

يقول "هنرى فورد" .. " عندما يبدو أن كل شئى يعانداك ويعمل
ضدك ، تذكر أن الطائرة تقلع عكس إتجاه الريح ، لا معه " ..
وهنا لا أدرى .. لماذا وكيف يخشى الناس الفشل ، وكل من وصلوا

قبلنا قالوا " لا تخافوا " ، خلاصة تجربتهم في كلمة ، يقول "هنرى فورد" أيضا " الفشل ببساطة فرصة جديدة لكى تبدأ من جديد ، فقط هذه المرة بذكاء أكبر " ، إن الفشل الحقيقى ليس ألا تبلغ هدفك .. وإنما ألا يكون لك هدف فى الأصل .. وتلك الأزمة .. فى حديث مع وسائل الإعلام سأل أحدهم "إديسون" .. - لقد فشلت ألف مرة ، فهل تشعر بالفشل ؟ .. فأجاب ..

- لم أشعر يوما بالفشل ، ولكنى تعلمت ألف طريقة تؤدى إلى النجاح !! ..

وهنا أتعجب ، الفاشلون الحقيقيون .. هم أناس لم يعرفوا كم كانوا قريبين من النجاح حين توقفوا ! ، كانت محض خطوات وستفتح لهم الأبواب ، لكنهم أذعنوا للكلال والسأم .. قال "على أمين" .. رائد الصحافة العربية ومؤسس أخبار اليوم .. " إن النجاح أقرب مما تتصور .. إنه فى نهاية الشارع الذى تسير فيه " ، ولا أنسى مقولة "نابليون" الشهيرة .. " من يعقد النية على الفوز لا ينطق بكلمة مستحيل " .. فتلك مقولتى المفضلة ..

فى حقيقة الأمر .. لا يوجد فى الكون ما يمكن أن ندعوه فشلا أو نجاح ، إنما هما لفظتين بعيدتين كل البعد فى جوهرهما عن الواقع ، فما نسميه فشلا ماهو فى الحقيقة إلا محاولة خاطئة ، محض محاولة ، وما ندعوه نجاحا هو محض محاولة صائبة ، يمكن أن تصبح التالية لها



خاطئة ، وعليه فليس هناك فردا فاشلا بالكلية .. لأنه لا يوجد شخص كل محاولاته خاطئة ، وبالمثل لا يوجد شخصا ناجحا بالكلية .. لأنه لا يوجد شخص كل محاولاته صائبة ، هي فقط محض تسميات .. نستخدمها لتعريف التجارب الإنسانية ، لذا ضع الأمور في حجمها الحقيقي .. فلا تهول أو تعالي ولا تستهين ..

ولكن ليس هذا ما أردت التحدث عنه ، فإنى لست هنا بصدد أفراد مبادئ وتوصيات النجاح .. وطرق تحقيقه ، فرواد التنمية البشرية قد أوجعوا أدمغتنا بهذا وأكثر ، وأنتجوا جيلا من المثرثرين .. والمدعين فى أحيان كثيرة ..

وإنما أتحدث عن نوع آخر من البشر ، نوع لا يعرف ولا يريد أن يعرف ، والأدهى أنهم يفتون فى كل شىء ، ويشعلون نيرانا .. يعجزون عن إطفائها ، لديهم معلومة عن كل أمور الدنيا ، وفى أى موطن تجدهم ، هم " كدايين الزفة " ، لهم قيلة فى كل فرح أو محفل ، تجدهم مهندسين بين زمرات الناس وأرهاطهم ، فى الطرقات والمجالس والأسواق ، مترجلين أو فى وسائل المواصلات ، بين العامة وأوساط المثقفين ، وأينما تحل تظن فى أذنك أصواتهم ، وتتردد بغبغتم الفارغة ..

فى السنة الأولى من تخصصى بقسم الهندسة المعمارية .. رأيت العجب العجاب من الطلبة الذين دخلو القسم على سمعته ، لم يكن أحدهم

يمتلك موهبة تؤهله لإجتياز إختبارات القسم ، ولكنهم وفي غيبة الإدراك والتدقيق إجتازوها ، وهنا كانت الكارثة ، تحول القسم إلى مسرح من المعاقين ذهنيا وحركيا ، هؤلاء الذين ينتظر أن يكونوا مهندسين يوما ما ، فلقد ماج القسم بمشاريع تفتقر لأقل مبادئ الذوق أو أصول المادة العلمية

ومازالت ترتع بمخيلى مشاهد أحدهم .. ودكتور المادة يلقي بلوحاته مرارا من الدور السابع ، حتى قال له ذات مرة ..

- أنا مش عارف .. إنت بترسم بإيديك ولا برجليك !!

ظل هذا الطالب دعابة كل محاضرة ، وفقرة المنوعات التى يتوق الطلاب شوقا لمتابعتها فى كل ميعاد ، وأصبح "مسخة" القسم .. الكل يهزأ به .. ويستعملوه فى أغراض الخدمة ، كأن يجلب لنا الأدوات ويحمل اللوحات ... إلى آخره ..

الغريب فى الأمر ، أنى حاولت مرارا مساعدته ، وتدريبه على أصول رسم الأشياء حتى يتقنها ، وإستخدمت معه سبلا لا تليق إلا بأطفال "الروضة" ، ولا أخفيكم خبرا ، كم كان هذا مملا ومرهقا ومحبطا فى آن ، إلا أنه ولللسنة الأخيرة .. لم يكن يجيد الإمساك بقلم الرسم ، حتى خالجنى ظن أكيد أننى لو علمت حذائى لكان أكثر فهما منه ، هو لم يكن يعرف شئى ، والأدهى من ذلك أنه لا يريد أن يتعلم ، إعتد على مساعدات الطلبة ومساهماتهم فى مشاريعه ، وإرتكن بالنهاية إلى رحابة صدرى ، فألقاه صبيحة تسليم كل مشروع ..

يستدر عطفى ويستجدى سماحتى فى أن أنجز له ما تبقى من رسومات ، وإظهار معمارى ، وللأسف كنت أفعل ..

كنت أخشى أن أكون سببا فى ضياع سنته الدراسية ، خاصة وأن " التصميم المعمارى " مادة رسوب ونجاح ، وهكذا مرت السنة تلو السنة ، يستعين بهذا ، ويستثغث بهذا ، حتى جاءت السنة النهائية ، فقصدنى لأنجز له مشروعه بالكامل مقابل مبلغ من المال ، ونتيجة حاجتى لكل " مليم " .. فعلت ..

كنت أقول فى نفسى .. " شاب مثله .. ماذا سيكون مصيره بالنهاية ؟ .. مهندس مع إيقاف التنفيذ ، وسيتخير له جدار البيت لينشب عليه شهادته ، وهكذا فقط سينتهى الأمر ، فلا ضيم من مساعدته فهو لن يكون مهندسا يوما ما ، وإن كان سيترد مع أول خط يرسمه " ..

وبالفعل تخرج من الكلية .. مهندسا معماريا " ملو هدومه " ، إلا أن أخباره قد إنقطعت عنى بعد ذلك " كما حدث بينى وبين بقية الطلبة ، فلم أعد أعرف عن أيهم شىء ، رغم أيدى البيضاء التى رسمت الأشجار والناس والسيارات ... إلى آخره من عناصر الإظهار على لوحاتهم ، وبعضا منهم رسمت لهم مشاريع التخرج بالكامل " ، كما أنى لم آبه فقد كنت أتكهن ما سيؤول إليه حاله ، ربما عمل سائقا أو مندوب مبيعات أو ما شابه ..

وفى إحدى السنوات .. أعلنت شركة " سيمنز " العالمية عن حاجتها لمهندسين معماريين بفرعها فى مصر ، فأرسلت سيرتى الذاتية الحافلة



بمجزاتي ومهارتي عبر البريد الإلكتروني ، إلا أنه لم يأتيني رد ،
فعرفت أن طلبى لم يقبل ، وأنى لست مؤهل للعمل بتلك الشركة

العملاقة ، لا بد وأن لها شروطا خاصة ، بالنهاية لم أكثرث ، إلا أنى
أصبت بترح شديد ، ففرصة العمل بكيان عالمى كشركة " سيمنز "
فرصة لن تتكرر ، ولكن بالنهاية هذا أمر الله ، ولا بد أن أذعن راضيا
بمقاديره ..

وبعدها بقرابة العام والنصف ، كانت ثورة يناير قد نشبت بميادين
وربوع مصر ، وكنت آنها فى ميدان التحرير، وأثناء تجولى فى شارع
طلعت حرب .. بعد جمعة النصر وتنحى مبارك ، قابلت ذاك الشاب
، وكان آخر ما كنت أتصوره .. أن أجده فى مكان كذاك وفى ظروف
كتلك ، وبعد حديث طويل عن الأحوال والأخبار ، سألته عن مكان
عمله ، وكانت الصاعقة ، أخبرنى أنه يعمل فى شركة " سيمنز " وفى
منصب ريادى !!!

وأذكر أنى نظرت إليه بإمتقاع شديد ، وخليت سبيله دون إستئذان ،
وكان الخبال قد ضرب رأسى .. وأفقدنى حسن التصرف ، كنت
أشعر بأنامله وهى تنفرك وتدور قبالة أذنه .. يقول ..
- ده عبيط ده ولا إيه !! ..

بالفعل كنت على وشك الجنون ، لا يسع عقلى فورة الأفكار السافرة
، وإنفجار الذكريات الجالحة ، كانت رأسى " كحلة فيشار " ، أكاد
أسمع طقطقة الأفكار النافرة ، " أهذا الأبله .. يعمل فى سيمنز ؟ ..
آخره يعمل فى " مصمط " أو " مقلة لب "
وهنا ضحكت يأسا .. " هو يعمل فى سيمنز ، وفى منصب ريادى ،

وأنا هنا .. أشحد كلمة من هذا ، وجملة من ذاك .. لأنجز كتابي المزعوم " ثورة ٢٥ يناير .. ناس وحكايات من الميدان " ، وكأننى هيكل " بجلالة قدره " ، " فإكر نفسى إيه ؟ .. هجيب الديق من ديله " ، " الله يلعن أبو التعليم على اللى بيتعلموه " ، سحقا لزمان بارت فيه العقول ، وعطبت به الأفكار ..

ونبت فى عقلى إندهاش عجيب ، لا أعرف مدى موافقته لما جرى ، قلت فى نفسى " غريب جدا أمر هذه الدنيا ، من إستكشفوا الأرض وإستبانة بفضلهم ملامحها وألغازها .. ماتوا فى الفيافى والأحراش والغابات أو فى أحضان الجليد ، وتداغت عليهم الأكلة كحيوانات نافقة ، ومن إستهلكوا مكتشفاتهم .. مجدتهم الدنيا وكتبت عنهم ، وقلدتهم النياشين ، عجبا لهذا الواقع السخيف التافه ! " ..

شرد عقلى ، وتبخرت آخر جرعة تعقل به ، وسرت تتدافعنى الشوارع ، وتلتقطنى الحارات والميادين ، إلى أن جلست على " قهوة المثقفين " .. فى أجوار البورصة والبنك المركزى ، " هو لم يتعلم .. وأنا تعلمت ، هو لم يكن يعرف .. وأنا عرفت ، هو أصبح شىء .. وأنا بت لا شىء " ، كانت الصدمة بحق .. أثقل من أن تتحملها رأسى ، وكأنها عشرة طن من الخرسانة المسلحة .. هوت فوق أحلامى وأمالى فسحقتها وفتتها ..

.....

قابلت أحد جيراننا ذات مرة أثناء عودتى من القاهرة فى محطة



رمسيس .. بمحض المصادفة ، وكان طالبا بجامعة الأزهر ، وكثيرين منهم يرتادون عادة قطار المناشى .. عند سفرهم للجامعة ، وما إن رأنى الرجل حتى إلتصق بى كالغراء ، وكم ضايقنى هذا كثيرا .. إذ كنت أفضل أثناء السفر الإختلاء بأحد مقاعد القطار المنزوية ، وغالبا ما يكون المقعد الخلفى لباب العربة ..

لم أبدى إحتجاجى على مصاحبة الرجل .. رغم ضيق بهذا ، حتى لا أبدو فجا .. فهو لم يعهد منى غير جارا حسن المنطق ، كما أنى لا أعرف عنه الكثير ، فلم يجمعنا صداقة أو مجلس ، ليس إلا التحية وردها ، قلت " لا ضيم من صحبتته .. فهو رجل أزهرى .. ولا بد وأنه ينحو إلى الهدوء .. كما كنت أظن .. لذا فلن يزعجنى كثيرا " .. وما إن ضمنا المقعد وبعض من زملاءه ، حتى إنطلق الرجل يتشدد بالألفاظ والمصطلحات ويفتى فى كل شىء ، حسب نفسه الأعراف فى كل أمور الدنيا ، ما من أمر إلا وتجد عنده معلومة عنه ، ولا أخفيكم كم من المغالطات الفادحة التى سرت على لسانه ، حتى فى مجال دراسته ، قال مثلا إن منشأ جماعة الإخوان المسلمين كان فى إيران ، وأن حسن البنا ذو أصول فارسية ..

وكلما حاولت مناهضته لتصحیح ما يتهته به ، صاح فى وجهى

- أسكت إنت متعرفش حاجه ..

كنت أصغره سنا بقرابة السبعة أعوام ، لذا فلم أنازعه طويلا .. تأدبا وكنوع من اللطف ، " وعن علة أنه يكبرنى بسبعة أعوام .. وما زال

في الجامعة ، أن الرجل لم يكن ذو أصول أزهرية ..
إذ قام بالتحويل من كلية الزراعة جامعة القاهرة بعد السنة الثالثة إلى
أصول الدين جامعة الأزهر " ، كان على أن أتحمّل تلك الجلسة
الواهية التي تموج بالخرافة والتهاته ، فصممت أذاني عما يرغبى به هذا
المتحدلق ، ففي إحدى مرات تحاذقه وعندما طالعتّه بأنه يكذب ، كاد
أن يمسك بتلابيبى ليعاركنى ، فقلت لنفسى " إصبر " ، فلا داعى
من إختلاق أزمة بين أسرته وأسرته ..

وأذكر أن ذات الرجل كان سببا في يوم ما .. في حدوث قطيعة بين
شباب الأسرتين ، وذلك عندما أخذت رأيه " كرجل أزهرى " في
بعض الأمور الدينية التي تخص تاريخ الأنبياء ، وذلك بسبب وقوفى
حائرا عند بعض النقاط عند تأليف كتابى الأول " آيات الرحيل " ..
" وكان يتناول مقارنة بين تاريخ الأنبياء وتاريخ الحضارات ،
ومحاولة خلق خط زمنى لتاريخ البشرية لا يختلف عليه أى من
المتخصصين ، وسد الثغرات الزمنية التي تفتح فاهها كلما ربطنا بين
الأزمنة والأخرى " ..

وأذكر أنه بسبب رعونته .. وضيق أفقه ، تسبب في نشوب شجار
لفظى بينى وبينه .. عند أحد منافذ الخبز ، كلما حاولت تعريفه
بحقيقة الأشياء .. نازعنى بأصولها الغير موثوق من مصدرها ،
والمعتمدة أغلبها على آراء ناقليها ، وأن هذا التنازع إنتهى بأن أحدهم
رشقنى بحجر عتى على رأسى .. فشجته .. ظانا بأنى غريب وجئت

لأعارك ابن بلدتهم ، لما سمع عباراتي " البندرية " التي لا تتوافق مع لهجة أهل البلدة ، وكان هذا أكثر ما يليق بالإحتكاك بشخصيات كتلك ..

ومما لن أنسا طيلة ما عشت ، أنى حينما كنت أعمل مهندس معمارى بإحدى شركات المقاولات الشهيرة .. بأحدى المدن الجديدة " كرئيس لقسم التصميمات بهذا الفرع " ، جاء إلى مقر الشركة ذات صباح .. شاب وسيم فى نهاية طور العشرين ، كان الرجل قد تقدم للعمل بفرع الشركة ، إلا أنه ولج إلى مكتب مدير الفرع مباشرة " وقد كان رجلا سجيا دمسا الخلق " .. دون أن يمر على أحد المهندسين بالمكتب ..

لم يكن الشاب يمتلك أية مؤهلات أو مهارات .. تؤهله للعمل بالشركة ، إلا أن مدير الفرع إستحى أن يعتذر له .. فوجهه إلى أحد المهندسين " وقد أماء له بأن يعتذر عن وجود عمل يليق به " ، وقد كان المهندس حادا صارما لا يعنى بمشاعر الناس " وذاك ما عهدته عنه " ، تحدث إلى الشاب بطريقة فجحة .. بأنه لا عمل لمثله بالمكتب .. كان مكتبى على مقربة من الأحداث ، وباشرت كل ما جرى ، ورأيت بأم عيني الشاب .. وهو يخرج من باب المكتب حزينا ، تكاد الدموع أن تنهمر من مقلتيه ، وأنا ضعيف القلب إزاء تلك المواقف ، لذا خرجت مسرعا أتبعه ، لأحاول أن أنفهم الأمر ، إلى أن لحقت به طالعنى الرجل .. وقد إغتمرت أساريره بالترحم والقنوط .. فقلت له

- أنت بتسأل على شغل ؟ ..
- أيوه يابشمهندس .. بس هما قالولى مفيش شغل ليا .
- أنت معاك مؤهلات إيه ؟ ..
- أنا فى السنة النهائية بكلية أصول الدين ..
- إزاي ؟! .. إنت مش شايف إن سنك كبير .. المفروض إنك خلصت جامعة ..
- أصل أنا عندى ظروف قهرية .. هى اللى منعتنى إني أنتظم فى الدراسة ..
- إنت متجوز ؟ ..
- لسة متجوز من سنة وتسع شهور وعندي طفل صغير ومراتى حامل ..
- بسم الله ماشاء الله .. إنت مابتضيعش وقت ..
- والله العظيم يابشمهندس أنا عطلان بقالى أكثر من سنة .. وإخواتى هما اللى بيساعدونى .. ومراتى على وش ولادة ومش عارف أعمل إيه .. قربنا نشحت من الشوارع .. وإجهش بالبكاء ، فأمسكت بساعده .. قبل أن تذرف عيناه الدموع .
- إجمد .. بسيطة .. هتشتغل إن شاء الله ..
- مش عارف هعمل إيه ؟ .. بقالى أكثر من شهر بدور على شغل ..

- ما أخيش عليك .. إنت معندكش أى حاجة تأهلك إنك
تشتغل معنا ..



ثم خيم عليه صمت حزين ، وغطت ملامحه اليأس والإحباط ،
وتأهب للمغادرة متمتما ..

- ربنا كريم ، أكيد هيرزقنى بشغلانة مناسبة ..

فأمسكت بساعده تارة أخرى ..

- طب إصبر شوية .. كل مشكلة وليها حل .. أنا هعمل معاك

واجب بس يارب متخذلنيش ..

- وأنا من إيدك دى لإيدك دى .. ربنا يسترها عليك

يا بشمهندس ..

- أنا عايزك من بكرة تيجى المكتب ..

- بس دول قالولى مفيش شغل .. هاجى إزاي؟! ..

- ملكش دعوة .. محلولة .. هتيجى كل يوم تقعد معايا

تساعدنى ..

- بس يا بشمهندس ..

- متقلقش .. مرتبك الشهر ده عندى ..

- وإنت ذنبك إيه تستحملنى؟ ..

- ما قولتلك ملكش دعوة .. أنا راضى ياسيدى .. إعمل بس

زى ما قولتلك .. وربنا يجيب اللى فيه الخير ..

وبالفعل واظب الشاب على الحضور يوميا .. يساعدنى فى بعض

الأعمال الموكلة لى ، وأفهمت العاملين والمهندسين بالمكتب أنه

صديق لى ، وبحكم موقعى فى العمل .. لم يجرؤ أحدهم على

الإعتراض ..

وبعد أسبوع من المداومة والعمل ، والتي لفتت ناظر مدير الفرع ، أرسل في طلبى ، وسألنى عما يحدث ، فقلت إنه شاب ملتزم ، ولديه الإستعداد للتعلم والعمل الجاد ، وأنى متكفل بتعليمه ، فلم يمانع المدير .. وأقام له مرتب رمزى طوال مدة التعليم ، وألزمنى بإعطاءه تقرير عن مدى تطوره بعد شهر ، وكانت تلك البداية ..

قمت بتعليم الشاب بعض أساسيات " برنامج الرسم الهندسى " .. ليتمكن من إعادة رسم أية رسومات توكل إليه ، وللحقيقة كان يتلقى دروسى بدأب شديد ، وقام بإنجاز بعض من الرسومات بنجاح مقبول ..

وبعد مضى الشهر ، سألنى مدير الفرع ، فأعربت له بأن الرجل بات متأهبا للعمل ، وأنه يستطيع إنجاز أى رسم يوكل إليه ، وغاليت فى مدحه .. حتى يثبتته المدير فى العمل ويقرر له مرتب أساسى ، وقد حدث ، وكم كان الرجل ممتنا لمعروفى معه ، وأنه سيردلى هذا الجميل .. وقتما يستطيع ، فلم آبه ، كل ما أهمنى أن ينتظم فى العمل .. ويذوب فى حركته اليومية ..

إلا أنه وبعد مضى أقل من الشهرين ، وبعدما إكتسب الرجل حدا معيناً من ثقة المدير .. عزف عن التعلم ، وكلما حاولت إستدعاءه لتلقى ما بقى من دروس .. تحجج بأن المدير بنفسه قد كلفه بمهام



نيسل مرمعي

معينة ، إلى أن وكلت له وظيفة أمين مخازن " بمخزن المؤن للفرع " ،
بيد أنه وفي غياب الرقابة .. أهمل وظيفته حتى تعرض المخزن للسرقة
، فتم نقله إلى موقع آخر ، وبات يفشل في كل مهمة توكل إليه ، إلا
أنه عرف كيف يخرج نفسه من كل مأزق يوقع به ، إستغل رافة المدير

وقلبه الرحيم .. فمضى فى كل مرة يستدر عطفه ، ويغريه بفنجان القهوة السحريه " التى لا تضاهيها قهوة " كل صباح .. لينسى المدير ما يحدثه من أزمات ، حتى تعود المدير نفسه على المشكلات الدائمة التى يحدثها ، وإستوعب زهد قدرته .. فبات يوكل إليه أعمالا بسيطة ، وهكذا سار الأمر ..

ولكن بعد عام وبضع شهور .. شعرت ببعض الإعتلالات المريبة تموج بالشركة ، وباح لى بعض زملاءى .. أن بعض العاملين سيتركون العمل " بقرارات من الإدارة العليا " ، لأجد نفسى بين يوم وليلة " وبقدرة قادر " .. مطرود من الشركة على نحو مهين ..

وبعد أقل من أسبوعين .. علمت أن ذلك الشاب .. لم يكل أو يمل بالوشاية بى لدى مدير الفرع ، فإدعى أنى أنجز بعض أعمال الشركة لحسابى الخاص ، وأنى قد حققت رصيذا لا يستهان به من سرقاتى ، وأنى إبتعت مؤخرا سيارة ..

والمضحك فى الأمر .. أنى كنت أرغب فى ترك العمل نتيجة المشقة التى أتلقاها فى المواصلات كل صباح ، وأنى كنت أنتظر مرتب كل شهر .. لسداد قائمة من الديون لا تنتهى ..

وهذا نوع آخر من البشر ، أيضا لا يعرف ولا يريد أن يتعلم ، وإنما يعمل طاقته فى الإحتيال والصعود على أكتاف الغير ، والوشاية بهم ، وما أثارنى .. أنى علمت أن الرجل قام بوشايته " التى تسببت فى طردى " من أجل أن يحتل وينتهب هو مركزى بالعمل ، ويستلب

مكتبي ومقعدى ، ولا أخفيكم كم ضحكت من تلك السذاجة ..
والعقلية الضحلة ، لقد تمكن من إخواء محطى فى الشركة .. بيد أنه لم
يستطع القفز أكثر من بضع سنتيمترات فوق محط قدمه ..
وكثيرا ما كنت أتأمل .. ماذا ستكون ردة فعل شخص كذاك .. إذا ما
تعرض إلى إختبار مهارات حقيقى ، وهل ستؤتى الفهلوة جدواها ،
هل سيستطيع الإحتيال والقفز على ذوى الخبرات ، أنا لا أظن ذاك ،
فتلك المحكات هى التى تكشف إستلاب هؤلاء للفرص .. دون
وجه حق ..

أذكر أنى قرأت ذات مرة عن أغرب عشرة أسئلة للحصول على
وظيفة " نشرتها صحيفة الإيكونوميست تايم " ، تم طرحها خلال
عدة مقابلات للعمل بأحد الشركات العالمية .. فى أحد الأعوام ،
وجاءت أكثر الأسئلة غرابة من

نصيب شركات الإلكترونيات ، وكان الملاحظ أن الأسئلة المقدمة
جميعها تقريبا .. تختبر معدلات الذكاء ، ومدى القدرة على التصرف
فى الظروف الصعبة ، وهذا بيان بالأسئلة العشرة ، " وأتوق شوقا أن
أسمع إجابات هؤلاء المتحذلقين " ..

(١) كيف يمكنك حل مشكلات الشركة إذا كنت من كوكب
المريخ ؟ ، " وكان السؤال لوظيفة مدير إدارة توظيف فى
شركة أمازون " ..

- (٢) ما هي أكثر طريقة إبداعية لتحطيم ساعة ؟ ، " سؤال وجهته لجنة تعيينات شركة آبل لشخص أراد الترشح لوظيفة " ..
- (٣) أمامك صندوق أقلام رصاص ، أذكر ١٠ أشياء تستطيع إستخدامهم فيها .. بخلاف الأمور التقليدية ، " سؤال لوظيفة مساعد بمجلس الإدارة في شركة جوجل " ..
- (٤) إذا كنت لافتة في الشارع ، فأى لافتة تختار أن تكون ؟ ، " سؤال مساعد مبيعات بشركة باسيفيك صن وير "
- (٥) أمامك قرص إسطوانة يدور على عمود بشكل مستمر ، وتم إعطائك مجموعة من الدبابيس .. كيف يمكنك إستخدامها لتحديد الإتجاه الذي يدور إليه القرص ؟ ، " سؤال لوظيفة مطور سوفت وير بشركة مايكروسوفت "
- (٦) هناك عدد لا حصر له من النقاط السوداء والبيضاء على متن طائرة ، كيف تثبت أن المسافة بين النقطة السوداء والنقطة البيضاء .. هي وحدة واحدة ؟ ، " سؤال محلل تقنيات بشركة جولدن مان ساش " ..
- (٧) لديك حقيبة مليئة بعدد " N " من الخيوط ، وقمت بسحب نهاية أحد الخيوط وعقده في طرف الخيط الأخر ، ثم كررت تلك العملية حتى إنتهت الخيوط بالحقيبة ، ما هو العدد التقديرى للعقد في الخيط ؟ ، " وظيفة مدير أعمال داخلي بشركة فيسبوك " ..

٨) فكر في منتج أو خدمة لم تخطر في فكر أحد من قبل ، ويمكن أن تسبب ثورة ، وكيف يمكن تسويق الفكرة ؟ ، " سؤال وجهه لمتقدم لوظيفة محلل بيانات بشركة جي بي مورغان " ..

٩) تريد تصميم تليفون للصم ، فكيف يمكنك تنفيذه ؟ ، " سؤال مدير منتجات بشركة جوجل ، والمعروف أن جوجل تهتم كثيرا بالوحوش الإبداعية " ..



١٠) كيف تقوم بتصميم مصعد متحرك ؟ ، " شركة مايكروسوفت ، وعلى الرغم من عدم غرابة ذلك ، فإن الكثيرين لم يتوقعوا سؤالاً كهذا " ..

ولقد قابلت كثيرا .. ممن " لا يعرفون ولا يريدون التعلم " ، ممن تعلقوا كلماتهم أعمالهم ، ولا أغالى عندما أقول أنى أقابلهم كل يوم ، يطالعوننى بحماقتهم فى كل موطنى وموضع قدم ، حتى أنه ما عاد يشغلنى تعليمهم أو تصحيح أخطائهم ، فلا أريح من أن تأخذ كل سفية على هواه ، وربما كان الصمت هو الطريقة المثلى للتعاطى مع أمثالهم ، فكما تقول الحكمة .. " خير الرد على السفهاء السكوت " .. ورحم الله الدكتور " إبراهيم الفقى " إذ قال " نرى ما لا نريد ، ونريد ما لا نرى ، فنفقد قيمة مانرى ، ونضيع فى سراب ما لا نرى " . وفى هذا .. فهناك ستة أنماط من الشخصيات يجب أن تمجهم من حياتك .. فهم عشرة فى طريق كل باحث عن النجاح والتوفيق ، أولهم " الشخص الشاكى " وذاك الذى يشتكى كل شىء ، الظروف .. العمل .. الأسرة .. الجار .. الأصدقاء ، وربما تجده يشكو من كثرة الذباب ، وثانيهم " الشخصية الفظة " وهى شخصية إستغلالية بشكل كبير ، ترافقك وتلتصق دائما بك من أجل مصالحها الخاصة ، وإذا لم تنل مرادها .. تحولت بالنسبة لها إلى شخص بلا قيمة ، عديم الجدوى إذ لا تفيدها بشيء ، والشخصية الثالثة هى " الشخصية البركانية " وصاحبها دائم العصبية ، إنفجارى .. وغير قادر على

ضبط مشاعره ، والتحكم في تصرفاته وإنفعالاته ..
والرابع هو " الشخص النرجسى " وهو الذى يعتبر نفسه محور الكون ، وكأنها لم يخلق على سطح الأرض غيره ، ولا يوجد من هو أفضل منه فى الحياه ، وفى المركز الخامس نجد " الشخص الدرامى " وهو من الشخصيات التى تعانى دوما ، وتجرح وتصاب بالنكبات العاطفية والنفسية من جميع من حولها ، ومن وجهة نظرها .. هى أكثر شخصية قد تعرضت للخيانة والطعن فى الظهر ، أما " الشخص المتشاءم " فهو النوع السادس .. ينظر إلى الحياة بسوداوية شديدة ، لذا فلا تحاول أن تبسم أو تضحك فى وجهه .. لأنه سيتهمك بالغباء والجنون ، فالحياة من وجهة نظره .. مجبولة على الحزن والتعاسة .. وفى هذا أذكر شيئا كثيرا ما أضحكنى ، فلقد حسبنى كثير ممن يحيطون بى .. كأحد الشخصيات الدرامية أو المتشاءمة ، وكانت أسبابهم وجيهة .. فدائما ما يرونى جاد الطلة متغضن الأسارير ، سواء فى جلساتى أو فى ممشأى ، حتى أن أحدهم قال لأحد المقربين لى " ده راجل كشرى .. يتقمر على وشه العيش " ، ولكم أضحكتنى تلك القبيلة ، والأكثر من ذلك أن بعض النسوة الريفيات بقريتى نعتونى بـ " المتدين " ، والحقيقة التى لا يعلمها هؤلاء .. هى أن نظرى ضعيف ، وبالكاد أكشف محط قدمى .. فأضطر أن أحد نظرى ، وأكرمش أسارىرى " كإنفعال تلقائى " .. لأرى طريقى ، خاصة وإن مضيت وسط عجيج من الناس أو فى زحام السيارات ..

وهنا أتساءل متى يكف هؤلاء عن البغبة الفارغة والفتى الخاوى ؟
، متى يكف الجاهلين بغرور ؟ ..

الفتاءين و " المياسين " والمغالين والهوانين والمعقدين والمتملقين
والجعارين والمتشدين والعنيديين والمكابرين والمتغابين والمتسلطين
والمتجسسين والمترصدين والمصطنعين واللاهين والمدعين
والطفوليين والمتطفلين والمعرضين والمتسكعين والمتكهنين والمشغبين
والمستنطعين ؟ ..

المتعالين المتعجرفين ، والمحتالين المراوغين ، والمحبطين الشكائين ،
والندابين المولولين ، والمتحذلقين عبثا ، و " كدايين الزفة " ،
والمستعرضين بعضلاتهم ، والمحتمين بهم ، والمستقويين بجاههم ،
والمتظاهرين بالعلم ، ومتصيدى الأخطاء ، والصنخابين اللعائين ،
والمعتذرين دوما ، و " بياعين الكلام " ، وشياطين الإنس ؟ ..

المرائين ، وهلوانات المجالس ، والمتلذذين ، وماسحى " الجوخ " ،
والواثين على أكتاف الغير ؟ ..

متى يكف هؤلاء وغيرهم ؟ ..

متى يكف من لا يعرفون ولا يريدوا أن يتعلموا ؟ ..

متى ؟ ..

ومتى تكف المجالس عن إحتضانهم ؟ ..

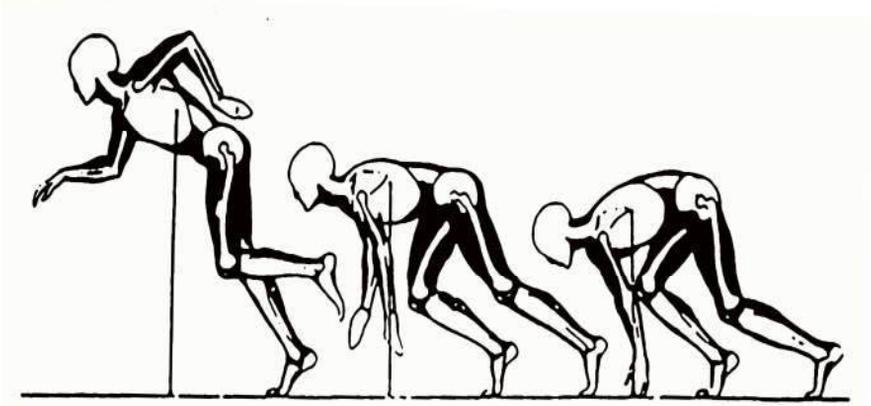
والعقول عن الإيمان بهم ؟ ..

والآذان عن السماع إليهم ؟ ..

متی؟ ..
إنه محض سؤال ..



من وحمى التسمية البشرية



من وحي التنمية البشرية

لا يمكن أن أصف مدى إنبهارى .. عندما قرأت أول كتاب فى التنمية البشرية ، وفى الحقيقة كان ذلك بعد مناقشات وإحتكاكات عدة ومتفرقة .. عبر بعض الفيديوات التحفيزية ، ومحاضرات الدكتور إبراهيم الفقى المرئية والمسموعة لعدة سنوات سابقة ، وما زاد تشبى بهذا العلم الجديد .. أن جاءنى " عبر عدة مصادر " أن أصوله كانت حكرا على علماء وفلاسفة الغرب لسنوات مديدة ، كان سرا مصونا عن العالم كل .. وخاصة دول العالم الثالث ..

وتتبع معى تلك النبذة المخترلة عن نشأة هذا العلم ، لمن لم يصله عنه خبر ، أو هؤلاء الذين لم يسمعوا عنه إلا بمحض المصادفة .. كان عباقرة الغرب وحكمائهم .. قد تحروا عن عدة إجراءات تنتهى بتيسير حياة الناس ، وإيصالهم إلى محطات النجاح بسلاسة ويسر ، فتتبعوا سير الناجحين وإستنبطوا عدة توصيات .. هى فى أصلها مجموعة طرق وأساليب " غير مثبتة علميا " تعتمد على مبادئ محددة وواضحة .. عن طريقها يمكن محاكاة تجاربهم وإبتكار تجارب أخرى ، بل وحل بعض الأزمات النفسية ، ومع تطور الزمن أمكنهم وضع أسس موثوقة وثابتة .. لمن يسعون للسعادة والحب والمال والنجاح والإنجازات الأفضل فى حياتهم إلى آخره ..

ولقد كان أول طرح للتنمية البشرية عام ١٩٧٣ م عن طريق " ريتشارد باندلر " و " جون غريندر " بتقديمهما أسلوب البرمجة

اللغوية العصبية ..

" والبرمجة " هنا .. تشير إلى المقدرة على تنظيم المعلومات " الصور والأصوات والأحاسيس والروائح والرموز والكلمات " داخل أجسامنا وعقولنا ، ومن ثم التحكم في أفكارنا ومشاعرنا وتصرفاتنا ، حيث أنه يمكن إستبدال البرامج المألوفة للعقل .. ببرامج أخرى إيجابية ..

أما لفظة " اللغوية " .. فتشير ببساطة شديدة إلى كيفية إستخدام الكلمات الملفوظة أو لغة الجسد .. فى تغيير اللغة الذهنية والفكرية للعقل .. والتي تؤثر على مفاهيمنا وعلاقتنا بالعالم الخارجى ..

أما عن " العصبية " .. فهى تشير إلى المخ والنظام العصبى ، وكيف يقوم الجهاز العصبى بعملية تشفير المعلومات وتخزينها فى الذاكرة ، ومن ثم إستدعاء هذه الخبرات والمعلومات مرة أخرى ، وكيفية سيطرة جهازنا العصبى على الجسم ، والحواس الخمسة ووظائفها .. وأدائها وفعاليتها كالشعور والسلوك .. لتغيير طريقة التعاطى مع الأشياء والتفكير عامة ..

وبفضل " البرمجة اللغوية العصبية " .. تم وضع مجموعة من الإفتراضات المسبقة التى يمكن عن طريقها .. تحقيق الأهداف والنجاحات المرجوة ، وبناء جسرا من التواصل بين الإنسان ونفسه .. وبين العالم المحيط به

وبفضل الدكتور " إبراهيم الفقى " ومجموعة من علماء ومشاهير

العرب .. أمكن توصيل هذا العلم " الإبداعى فى المقام الأول " إلى العرب ودول العالم الثالث ، وتمكن الدكتور الفقى من إضافة علمين جديدين مسجلين بإسمه هما .. " علم ديناميكية التكيف العصبى " و " علم قوة الطاقة البشرية " ..

ولقد توصلت من جملة ما قرأت من كتب فى التنمية البشرية .. إلى مجموعة من الرؤى التى تترجم بعض توصيات ذلك العلم .. بصورة عملية ، هى محض معتقدات وسلوكيات بسيطة ويسيرة .. إلا أن لها تأثيرا قويا وملمها وفعالا على نفسية الإنسان ، وطريقة تفكيره ، تسوقه إلى التعاطى الإيجابى مع نفسه ومحيطه ، وتتحكم فى تقبله للأشياء .. ومن ثم تخلصه من مشاعر القلق والتوتر ، وتخفزه وتقوى حماسه وتشحذ عزيمته .. للتغيير الداخلى ومن ثم الخارجى ..

قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ }

الرعد ١١

من الأشياء البسيطة التى لا نلتفت إليها .. هو كيفية تنقية محيطنا وبيئة معيشتنا من الطاقات السلبية .. تلك التى تعج حولنا من كل إتجاه ، فأغلبننا مثلا لا يعلم أن تنظيف حجراته .. هو بمثابة تنظيف للعقل والنفس من الرواسب التى تثبط الهمم ، وتكل العزائم ..

إن عقولنا كالغرف .. تجد هناك غرفة للبهجة ، وغرفة للحزن ، وغرفة لليأس ، وغرفة للحماسة ... وهكذا ، وفى وقت ما من التشتت والحيرة .. تكون كل هذه الغرف مفتوحة على بعضها البعض ، تج

ما بها للغرف المجاورة والمقابلة .. لنجد أنفسنا فجأة في شتات وحيرة ،
تموج في أنفسنا مشاعر السعادة والحزن واليأس والضعف وربما
الخوف مختلطة في آن ..

وما أرمى إليه هنا .. هو أن تنظيف بعض غرف العقل من ملئنا ..
يضبط المشاعر فيحدد وجهتها ، فأنت إما حزين أو سعيد ، وليس
الإثنان معا ..

وفي تشبيه آخر للعقل .. قيل أنه عبارة عن مجموعة من الأدراج ،
عندما تفكر في شعور معين وتدعمه بالسلوكيات المشابهة .. فإنك
بذاك تلغى كل الأدراج المجاورة ، فإذا ركزت فكرك على السعادة ..
فسينمحي ملئ أدراج الحزن واليأس والخوف إلى أخره أو
ستتعلق تماما ، والجميل في الأمر أنه بتركيزك في السعادة .. تتفتح كل
الأدراج المشابهة والمدعمة .. كالحماسة ، والرغبة في التغيير ،

والحب ، والإمتنان إلى أخره ، ولن يتم كل ذلك إلا عن طريق
تبنى معتقدات وسلوكيات تساعد على حدوثه ..

ألم تفكر يوما .. أن تليفونك المحمول قد يكون مبعث طاقة إيجابية ؟!
، نعم إنه كذلك بالضبط ، ولكن يتحدد الأمر عن طريقة تعاملك
معه ، فمثلا لو قمت بمحو كل الرسائل التي تحمل محتوى سلبيا "
كالغضب والعصبية والكره ... إلى آخر " أولا بأول .. فإنك بذلك
تكون قد نظفت عقلك من أثارها ، ومحوت أدراجها وملفاتها تماما ..



لذا إقرأ دوما ما لديك من رسائل إيجابية ، تلك التي تحمل معاني الحب والقرب والإهتمام والتقدير .. لترى بجلاء الحقيقة التي قد لا يراها عقلك .. كن أنت دليله ، والحقيقة هي أن عالمك مليء بكثير ممن يحبونك ويقدرونك ..

وبذات الطريقة تخلص من كل الروابط السلبية في حياتك ، التي كلما رأيتها أو سمعتها أو لمستها أو إستشعرتها .. أصابتك بالإحباطات والإستياءات ، نظف حجرتك ، مكتبك ، سريرك .. نظف محيطك

بإستمرار ، وخاصة كلما شعرت ببعض من الإختناق واليأس أو الحزن أو حتى التشتت ..

تخلص من الصور السيئة والمحبطة .. وإحتفظ بتلك التى تشعرك بالسعادة والإمتنان ، إذا كنت ممن يستمعون للموسيقى والأغاني .. فإمتنع عن سماع تلك التى تحمل مغزى سلبى .. كالحزن والإنتقام والخيانة والضياع إلى آخره ..

وتنبه جيدا للحركات والكلمات التى ترددها .. والتى ترتبط فى أعماقك بذكريات سيئة ، كطريقة التحدث ، والضحك ، والسير ، والتعبير عن إنفعالاتك المختلفة ..

ولا جدوى من مصاحبة المحبطين .. فهم بمثابة منبع سيئ يصدر لك كل ما يعطلك ويثبط هممك ، ومن ثم إبتعد عن الجلسات السيئة .. التى يكثُر بها اللوم والشكوى والمقارنات ، ولا تدخل فى سجال لفظى .. أو مناقشات غير متكافئة ، أو تلك النقاشات الطويلة الأفلاطونية .. التى لا نهاية لها ولا جدوى منها ، أو تلك التى تصيبك بالإجهاد والسأم والكلال ..

خذ حذرِك من وسائل الإعلام كافة .. وإنتبه للكتب التى تقرأ .. فكلها تقع ضمن مؤثراتك الخارجية ، إبتعد عن الأنواع التى تبعث على الحنق والكره والإستياء .. أو الحزن وما شابه ..

وإذا كنت تحاكي نموذجا ناجحا فإنتخب شخصياتك ، فبعض منها يعتمد أفكارا أو سلوكيات محبطة ، أو كان مريضا بمرض نفسى ..

والأمثلة من هذه الأنواع كثيرة للغاية أمثال .. { " فان جوخ " الذى كان يعانى من الإضطراب النفسى ، والأديب " إدجار ألن بو " الذى كان مدمنا للخمر ولعب القمار ، المطربة " داليدا " التى ماتت منتحرة ، الأديب " ديستوفسكى " الذى أولع بلعب القمار ، الراهب " راسبوتين " الذى عرف بالفساد وتقبل الرشاوى والسكر والعريضة ، الفيلسوف " آرثر شوبنهاور " الذى كان متشائما وكارها للمرأة ، الأديبة " فرجينيا وولف " التى كانت مصابة بإضطرابات عقلية ونفسية ، الرئيس الأمريكى " لنكولن " كان مصابا بإكتئاب شديد وله نزعات تشاؤمية ، الفيلسوف " نيتشه " الذى أصيب بإضطرابات عقلية ، " هتلر " الذى مات منتحرا إلى آخره {

وإذا كنت واله بإحدى هذه الشخصيات .. فلتنتقى من تجربتها ما يحمل إليك الدفع الإيجابى ، وعندما تلتفت إلى سير هؤلاء وخاصة جوانب المعاناة والمشقة والمحاولات الفاشلة .. فلتعلم أنها محض مثابرة وسعى .. وأن الطريق لا يكون دوما مفروش بالورود .. فلا بد من العثرات والعقبات ، أنظر للأمر على أنه تضحيات من أجل الوصول .. والمكافأة الكبرى فى نهاية الطريق ، لذا لا تتعاشش أو تنخرط على نحو سيئ مع تلك المشقات ..

إن الحياة بمثابة لوحة كبيرة .. مليئة بالتفاصيل والمشاهد ، دقق النظر .. فمهما بدت اللوحة قبيحة وباعثة على اليأس .. ستجد فيها مساحات طيبة .. فقط عينك هى التى قد لا ترى جيدا ، أو أنك

أغرقت عقلك في ملفات مختلطة .. دقق ستجد أن هناك من يشناق إليك ويفتقد غيابك ، ستجد أما أقصى أمانها أن تراك سعيدا ومتزنا ، ولك أسرة تقرر عينك بها ، ستجد أصدقاء غيابك عنهم فارق ولوجودك بينهم رونق .. فأنت الشخص المميز لديهم ، ستجد أطفالا " ما بين إخوة صغار أو أبناء أو أبناء أخ أو أخت ... إلى آخره " .. كلما رأوك رقصت الفرحة في أعينهم ..

اللوحة مليئة بالمشاهد .. وأنت فقط الذى تنتقى ما تراه ، فتتحرك عينك ويجول خلدك فيها دون إرادة ، وتذكر جيدا أن الماضى ليس مؤلم بالجملة .. فهو جزء من تلك اللوحة .. به مشاهد تبحث عنك فى حين أنك لا تستدعيها ، " وهذا أحد تمارين التنمية البشرية الأساسية " .. إستدع كل ما هو جميل وسعيد بماضيك ، وإجعل المؤلم منه ماض منسى ..

وتذكر أنك إذا بحثت فى الحياة عما يجعلك تكرهها .. فستكرهها ، وما أيسر حدوث ذلك ، وإذا بحثت عما يجعلك تحبها .. فستحبها ، هى ذاك فى ذاك ، وتذكر أيضا أنك دوما فى منتصف لوحة الحياه .. يحوطك كل الأنماط والأنواع من الأشياء ، والأشخاص ، والأحداث .. وأنت من تنتقى وتنتخب ، فإنتنقى ما يريح بالك ويسهل حياتك .. تأكد تماما كما أن هناك أشخاصا مميزين فى حياتك .. تتمنى أن تكون مثلهم وتقترب منهم ، فأنت أيضا الأكثر تميزا .. لدى كثيرين ، تلك نواميس الحياة وطبيعتها ، لديك ما يطمح إليه غيرك .. ولديهم ما

ترنوا إليه نفسك ، وبهذا يحدث الإتزان ، وكونك مميزا لدى بعضهم .. فهذا أدعى للتفاءل ..

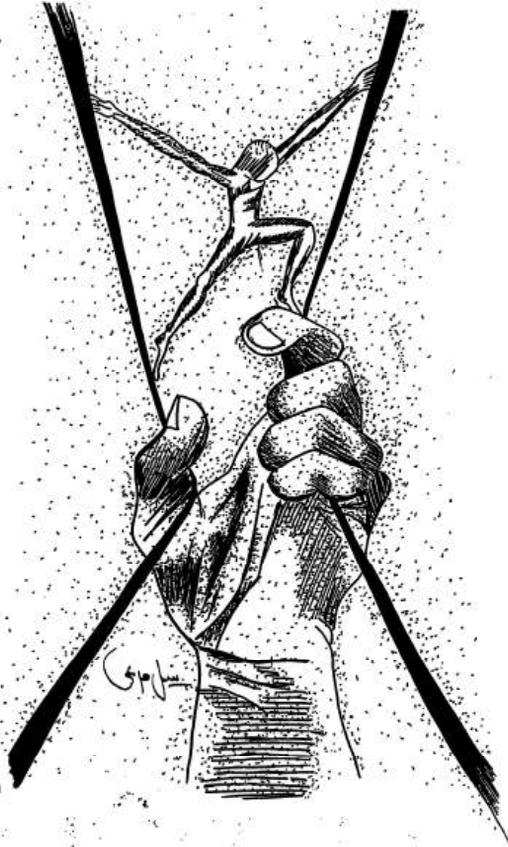
بعضهم يرى الحياة ويصوغها في نفسه على أنها سجال .. رابح وخاسر ، وهذا ما يصيب الكثيرين بالإستياءات المستمرة .. والإحباطات الدائمة ، أما عن التعريف الأدق .. فهو أن الله سبحانه وتعالى لا يغلق بابا إلا ويفتح بابا آخر ، والفرص حين تتوزع على البشر .. فهى معك يوما .. واليوم الآخر مع غيرك ، إذن فليس ثمة خاسر أو رابح .. إنما هى حالة من الإتزان ..

يحول الله بينك وبين بعض الفرص أحيانا .. لا لحرمانك المستقيم ، وإنما لتقدر قيمتها حين تأتيك .. فلا طعم للحلوى في فم تعود على مذاق العسل ، إن الله حينما يؤجل أمانيك بعض الشيء .. إنما ليسعدك بها فيما بعد .. لتستسيغ طعمها الشهى المبهج ، إن الله لا يريد لعباده .. إلا أقصى السعادة والهناء ، ولكن هناك من أرادوا لأنفسهم شيئا آخر بصنائعهم .. وتذكر هذا جيدا ، وتذكر أيضا أن كل شئى حولك .. يستدعى ويستأهل الرضا والقناعة ..

فهدايا الله لا تنقطع ، فكن راضيا قنوعا .. تملك الدنيا وما فيها ، فقط جرب ..

حكى لى أحد أصدقائى .. أن أحد أقرباءه تزوج منذ أربعة سنوات ، وقال لى باللفظ أن الله حرمهم من " الخلفة " ، وبعد ثلاث سنوات

وهبهم الله " توأما " ، وتأملت عدل الله وحكمته .. ففي ثلاث سنوات لا يفترض أن ينجب الزوجين في الأحوال العادية .. أكثر من طفلين ، لقد عوضها الله تلك السنوات ..



التي حيل بينهم وبين الإنجاب ، إنما كان المنع ليمنتحنهم ويسعدهم في آن ، فالشعور بالسعادة لطفل جاء بعد ثلاث سنوات من الحرمان

.. تعدو السعادة بأخر جاء في ميعاده ، فهناهم الله بإجتيازهم المحنة ..
وبسعادة مضاعفة ..

هل فكرت للحظة .. في أنك لو ذهبت إلى عملك ، وفي بداية اليوم
قال لك مديرك .. لو داومت العمل لخمس دقائق فقط .. فسأكافئك
، " بالطبع لا يحدث هذا .. فلا مناص من قضاء ساعات الدوام كاملة
.. ٨ ساعات مثلا .. وربما إنتهى اليوم بخصمه بالكامل من راتبك
الشهرى " ، أما مع الله .. فالأمر يختلف ، إذ يبدأ بعطاياه وهباته .. مع
أول خطوة تحطوها ، يسهل لك طريقك .. ويطوى بُعداه ، ويزيل
عقبته .. وعثرات لن تستطيع تحطيتها وحدك ، إن قاعدة السير مع الله
" عليك البداية .. وعليه التمام " ..

مع أولى خطواتك .. يشجعك الله على أن تحطو الثانية ويطوى المسير
أمامك ، ثم يحدوك للخطوة الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ... وهكذا ،
إقترب خطوة .. فيقترب الله منك ذراعا ، إقترب ذراعا .. فيقترب
منك باعا ، سر إليه .. يأتيك هرولة .. وذلك هو سر التجارة مع الله في
طريق الناجحين ..

وهذا ما يسوقنا إلى السبيل الرئيسى لأى نجاح ، قبل أن تبدأ طريقك
.. إسأل نفسك " ما حال علاقتى مع الله " ، إنها قوة الروحانيات
التي منها يبدأ كل شئ ، فطريق النجاح أوله خطوة .. يجب أن تبدأها
مع الله ، وتلك خطوة المليون ميل وما يعدو ذلك .. وليس فقط
الألف ميل ، وإعلم أنه مهما تمخض وتشدق أمامك المتحذلقين بغير

ذلك .. فهو محض هراء ، وتلك الحقيقة المطلقة .. ولا من حقيقة
سواها ..

لتنجح في تحقيق نجاح مادي ، أو أدبي ، لتكون أسرة طيبة ، لتحوز
الجاه والسلطان وما غير ذلك من طموحات .. إبدأ بخطوة مع
الله ، ثم واصل السير .. وإستمر ..

بعض الناس يرون أن الدين يتعارض مع النجاح ، وهذا رابط نفسى
لا علاقة له بالحقيقة ، يقولون مثلا .. كيف أحاكى نموذجاً ربياً كان
ملحداً كـ " بيل جيسون " .. لأنجح في مجال الكمبيوتر ، يرون أن
خطوة في إتجاه الله .. ستنافى النهج الذى سلكه الرجل ، إلق هذه
الأفكار من رأسك في أقرب سلة مهملات .. ولا تفكر بهذه الطريقة ،
علماء الغرب وأدباءه وفنانيه حازوا تلك النجاحات المبهرة .. لسعيهم
الدؤوب وراء أهدافهم ، وهذا جزاء كل من يسعى بصدق في الدنيا ..
سواء أكان مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً أو ملحداً أو بوذياً ماجوسياً ...
إلى آخره ، ولا تسأل عن جزاءه في الآخرة ، ولكن وعد الله يقول ..
أنه سبحانه لن يساوى أبداً بين ساع مؤمن وآخر كفر بدينه ، وتفكر
معى .. إن كان الآخر يركض بقدره خمسمائة حصان بإلحاده فما بالك
بما سيهبك الله من قدرة بإيمانك به ؟ .

كما أن بعض هذه الأفكار تبدو معطلة .. بل سخيفة وهزلية ،
وإرتباطها بأذهان شبابنا إرتباط مرضى ، فواقعا ينافى واقع الغرب ..
الذى مهدت له كل سبل النجاح ، وطريقة تعاطيهم مع

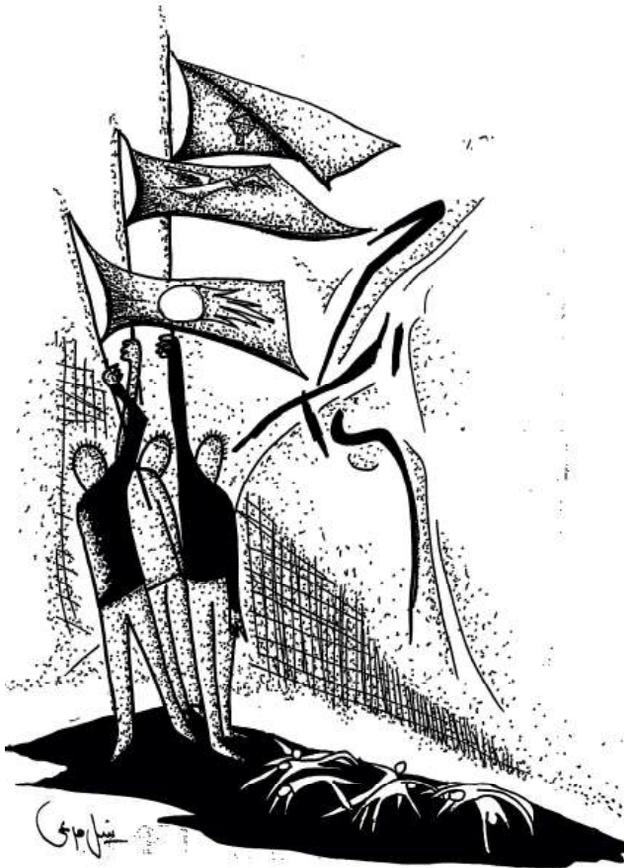
الأمر والأشياء مختلفة .. كما أن أديانهم ومعتقداتهم مختلفة ، وللعلم .. حتى وإن تشابهت الأفكار والأديان ... إلى آخره .. سيظل طريق الله هو البداية ، وإعلم أيضا .. كما قال الدكتور مصطفى محمود " إن الله لا يجابى الجهلاء " .. حتى وإن كانوا مؤمنين زاهدين ..

وعليك أن تجد فروقا مميزة .. بين أمانيك وأهدافك ، فالأمانى بضاعة الفقراء .. غير قابلة للقياس ، وهى فى جوهرها مجرد رغبة مرتبطة بزمن معين .. لذا فعادة ما تنتهى وتزول بسرعة ، وتتغير وفقا للمشاعر ، وبعضها ما يكون مضحكا وخيالى .. إذ لا يرتبط بحواجز أو قوانين ، وفى الأغلب لا يمكن تحقيقها ، ولا تحتاج لجدول زمنى .. فهى عشوائية مختلطة ، ولا تتضح بها الأولويات .. وذاك ناتج عن عدم مناقشتها ودراسة إمكانية تحقيقها ..

أما الأهداف فتختلف ، إذ لها غاية محددة ، ويحدد لها جدول زمنى للتنفيذ ، وهى قابلة للقياس فهى واقعية .. وممكنة التحقيق ، ويجب أن يتخذ قرار بشأنها .. وتحديد أولوياتها ، وبالنهاية يمكن متابعتها وتقييمها ..

إن صعوبة تخيل الهدف المرجو .. إنما تتعين أنه يقع فى وقت لم يأتى بعد ، ومكان لا تعرفه ، وأشخاص ربما لم ترهم ، فأنت لا تعرف .. من أين أو كيف أو متى أو مع من سيتحقق حلمك ، لذا لا تعلق أهدافك على مجهول ، وتوقعه دوما جميلا وسعيدا ، وأن تنتهز كل فرصة تمر عليك .. فقد لا توافيك مرة ثانية ، وإغتنم أقرب الفرص لك .. لا

تضحى بعصفور بين يديك لأجل ألف على شجرة أخرى بعيدة ،
إفتح كل باب أمامك ، وسر في كل طريق .. ربما ينتهي بك إلى حلمك
، وإستعن بأقصر الطرق وأسرعها وأكثرها إختصارا ..



أما المجهول الواقع في منطقة الماضي .. فإستوعبه على أن تجارب وخبرات تعلمت منها ، وتيقن أنه لا يوجد ما يسمى بالفشل .. وإنما هى نتائج غير مرغوب فيها ، تصالح مع ماضيك .. وتخيله جميلا ، لأن حتى أسوأ ما فيه .. أعطاك معلومة ، أصقلك وأكسبك خبرات ومهارات ما كنت لتتعلمها .. لولا محنه وعثراته ..

تعامل مع ماضيك على أنه صديقك ، " المشاكس تارة .. والمعين تارة ، إلا أنه بالنهاية يبقى .. عصاك التى تتوكأ عليها حين العجز وقلة الحيلة " ، فماضيك هو أنت الآن ، وبدونه لا وجود لك .. وكما يقول المثل الشعبى " من فات قديمه .. تاه " ، فالأولى أن تتصالح معه ، وأن تدركه على أنه العثرات التى جعلتك فى خبرة اليوم ، لا الأيام التى ما تنفك أن تلوم عليها وتلعنها ، وهذا شرط أساسى .. إذا كنت تسعى للسعادة والنجاح ..

نحن جميعا بحاجة إلى أن نساعد أنفسنا .. ونقيمها من عجزها ووهنها تجاه كل ما هو غائب ، أن نغلق صفحة الماضي الأليم ، وأن نتخلص من مخاوفنا حول المستقبل .. وما ينتظرنا به ، كفى لوما وإستياء وغضبا وحنقا ، كفى كل هذا ، دع قدمك لتثبت بالأرض .. وأنظر إلى السماء بعين الرجاء ، بها كل ما فقدك ، أو فقدته ..

وتقبل نفسك كما هى .. وإقبل صورتك الذاتية ، إرسم لك صورة تتمناها وتحبها .. قل أنا متزن ، رشيق نشيط ، لا أدخن ... إلى غير ذلك مما تتمناه ، ولا تقارن صورتك بأحد .. فلكل ظرفه وتجربته

الخاصة ، ولا تجلدها حتى تهلكها .. وتحقر من منزلتها ، فهى صورتك أنت .. وأنت المؤمن عليها والموكل بإظهارها على أفضل ما يكون ، قل دوما .. أنا الأقدر .. أنا أفضل مخلوق على وجه الأرض ، لأنك بالفعل هكذا .. وجبلك الله على هذه الصيغة ..

كن متميزا ، مميزا ، منفردا ، مختلفا ، محترفا ، معترزا بذاتك ، صاحب كبرياء ، ولا تدع تلك العبارات أن تبرح لسانك .. كررها قدر ما إستطعت ..

لا يجب أن تتأثر بالمحيط الخارجى .. إنظر إلى داخلك وأعمل تركيزك على أن تتغير .. بذلك ستسلب أى مؤثر قدرته على التأثير فيك ، ستحبطه بدلا من أن يبطئك ، لذا لا تدع المجال لأحد .. أن يوصمك بنعت يقلل من شأنك وقل دوما " لست مجبرا أن أؤمن بأوهام الناس " ، ولا تكتفى بتجاهل المؤثرات الخارجية فقط .. بادر وإجعل نفسك دوما فى الفعل .. أعلى صراخ أفعالك على أقوالك ، ولا تنتظر أن توقع فى شرك ردة الفعل ، وإن كنت مخطئا إعتذر ، ولكن لا تكابر وتكمل فى طريق الخطأ ، وعلى الجانب الأخرى هذه الشخصية القوية .. وعود نفسك على قول " لا " متى شئت ..

وفى طريق حلمك .. تعود ألا تهاب شئ " مهما كان " .. الإعتراض والإستهزاء والفشل والمجهول ... إلى آخره ، تعود ألا تحدث أحدا عن حلمك ، وتبنى عادة تقربك منه وتقربه منك ، إكتبه فى ورقة أو ما شابه .. وضعها نصب عينيك دوما ، تعود أن تقرأها كل يوم .. وأن

تكررها ليل نهار ، فتكرار الأهداف يعطيها قوة .. وخاصة إذا ما كان ذلك قبل النوم ..

وإحتفظ بالورقة التى تحمل أهدافك فى جيبك دوما ، وأعطها أسباب ، وإربطها بقيمة عليا .. فالقيمة العليا هى التى تصرخ دوما فى عمقك ، .. تمنيك وتشبعك رضا بعملك وحياتك ، وتوقظك وتنبهك كلما تراخيت أو غفيت ، وتهبك الصبر والمثابرة طوال الطريق ، وتجعلك تتحمل سخافات الآخرين وسخريتهم

ركز أفكارك وكثفها حول أهدافك ، ولا تشتت عقلك بأولويات أخرى .. لأن ذلك ينتقص من نيتك ، ويفتح بالمخ نشاطات لا منتهية ، وبالتالي يضطرك للوقوف عند محطة ما .. وتبعد عن الهدف الرئيسى وتنبه ألا تحطم نجاحاتك وإنجازاتك .. بأفعال حمقاء كالتبذير مثلا .. بل طورها ونميتها ، وإفرح بمنجزاتك ، وإمتن لله وإحمده عليها ، وإعلم أن كل إنجاز يزيد من ثقتك بنفسك ، وإعلم أنها رحلتك أنت .. فلا تنتظر جزاء أو تقديرا من أحد ، قدر نفسك بالطريقة التى تراها لائقة ، وأعمل مخيالك .. لترى نفسك على الدوام وقد حققت أهدافك ، إشحذ شعورك بالحلم ، وتحيل التحديات والعقبات التى ستواجهك .. وكيفية مجابتهها ، ورافق من لهم فى الحياة حلم وأهداف .. ولا تعلق أمالك على الآخرين " تافهة كانت أو عظيمة " ، فأكثر خيبات الأمل .. تأتى من التعلق والرجاء ..

إجعل أحلامك متدرجة .. فهناك حلم أولى ، وحلم ثانوى ، وآخر

رئيسى ، وقسم أوقاتك إلى محطات وخطوات ،
إجعل كل يوم هو خطوة بإتجاه حلمك ، ولا تنجبل من الخطوات
التافهة .. أو أن تتحرك رويدا رويدا ، وتعلم كل ما يقربك من
حلمك وقوى عزيمتك ، وكن طيعا لكل محطات التغيير ولا تقاومها
، كن مرنا .. وإحتفظ بجعبتك ببدائل لكل تحد ، وتصرف دائما
بطريقة مختلفة .. لتجننى نتائج مختلفة ، وكرر الجيد أكثر من مرة ..
وبطرق مغايرة ، وقل لنفسك دوما .. طالما أن أحدهم إستطاع أن
يحقق حلمه .. فأنا أستطيع تحقيق حلمى ، وبتفوق مبهر ..
وحاول دائما أن تخلق علاقات طيبة بينك وبين محيطك .. من أقارب
وأصدقاء وزملاء وناس عاديين ، وتذكر جيدا أن للإبتسامة مفعول
السحر .. تذيب المسافات وتحقق تواصل ناجحا ، وإستعن بلغة
الجسد والحركات .. فهى تؤثر بنسبة ٥٥٪ فى عملية الإتصال بينك
وبين الآخرين ، بما يعدو تأثير الكلمات ٧٪ ونبرة الصوت ٣٨٪
مجتمعان

وإعتمد على بعض تمارين التنمية البشرية ، فهى دوما تمد لك يد
العون .. إذا ما عجزت أو تعثرت أو أصابك الوهن ، إجعلها ملاذك
كلما ضربتك الإحباطات أو اليأس ، ولا تنس طبعاً الصلاة والدعاء
.. وليتنى أستطيع أن أطلعكم رأى العين على سر الدعاء .. ففيه
النجاة من كل عثرة ، وكفى أن الله القادر على كل شىء يفرح بدعاء
عبده ولا يردده خزيانا أبدا ..

ويمكنك بسهولة الحصول على التمرينات .. عبر محاضرات التنمية البشرية المختلفة ، " كتمرينات الراحة والتنفس العميق ، وإغماض العين ، وكوب الماء قبل النوم ، والتكرارات اللفظية ، وتمرينات الذهن ، وتمرينات الروابط ، وطريقة الفيلم السينمائي ، وتمرينات التحكم في برمجة العقل ، وتمرينات المثل الأعلى والقيمة العليا ، وتمرين مولد السلوك الجديد ، وتمرينات التركيز ، والتنقيص والتصعيد ، وإعادة التعريف ، وتمرينات التجزئة ، وتمرينات التغيير ، وتمرينات حل المشاكل ، وتمرينات الإتصال المطلق ، وتمرينات بناء العلاقة الإنسانية ، وتمرينات التدقيق ، وتمرينات تغير الإدراك ، وتمرينات التصور الإبداعي إلى آخره " ، فلكل مشكلة تمرين يخففها أو يزيلها بالكلية ..

وفي معاناتك .. تذكر محمد " عليه الصلاة والسلام " .. كان يتيها ، أميا ، فقيرا ، وفقد زوجته وإبنة على حياة عينه ، وطرده من بلده ولفظه بعض آله ، لا تقنط من الإبتلاء .. فالمبتلين هم الأولى بنعم الله وعطاياه ، وما دمت مبتلا صابرا راضيا .. فإعلم أن الله يحب إن أعظم الهبات تولد من أكبر المحن ، فلا تبتسئ لكونك غارقا .. تتقاذفك أمواج المحن والكروب ، إنها تصقلك ، كن مطمئنا أن الله إجتباك دون غيرك .. لهدية كبرى ، أنت أهل لها ، ما كانت المحن لتقصدك لولا كونك مميزا .. قويا ، تمتلك شيئا ثميننا .. و ينتظر ما هو

أؤمن ، كن واثقا بالله وقدرته ، وجميل لطفه بك ، كلما أصابك كرب ..
فقط إفتح ذراعيك للمنح العظيمة

وأخيرا أذكرك أن قيما مثل الصبر، والعزيمة ، والإستمرار ، والإصرار ،
، والمثابرة .. هى السبيل الوحيد لتحقيق حلمك ، وتلك بعض
اللمحات السريعة .. التى قد تلهمك بعض ما ضاع منك فى الطريق .

- هذا والت ديزنى .. الذى رفضه ٣٠٢ بنك لكى يبنى مركز

إيبكوت ، وعندما سئل مدير مكتبه .. هل سيكتفى بهذا

العدد الهائل من البنوك .. التى رفضت تدعيمه وتمويله ماديا

، رد مبتسما أن والت ديزنى .. عنده قائمة بكافة البنوك فى

أنحاء العالم ، وقال هذا الرقم ليس إلا مجرد بداية ، وبالفعل

بعد مثابرة حقق هدفه مع الإصرار والعزيمة القوية ..

- وتوماس إديسون .. الذى فشل حوالى ألف مرة ، ومازال

يحاول ، حتى حقق حلمه .. وإخترع " الللمبة " .. التى

أضاءت العالم ..

- قرر أحد الناس أن يفتح مطعما .. فقام بطبع الدعوات بعدة

لغات ، وعين العديد من الموظفين ، وكان يبدو

- وأنه جاهز فعلا للإفتتاح .. دون أن يحصل على مبلغ المشروع

، ولا حتى المكان الذى سيبنى فيه المشروع .. لأنه نظر إلى

قصص الناجحين فى العالم ، وإعتقد أن هناك حلا .. لور كز

تفكيره على الحل ، وبالفعل تمكن من إفتتاح المطعم بنجاح



باهر..

- وجمال عبد الناصر .. الذى رفض العالم تمويل مشروع السد
العالى ، وظل مصرا ، وها هو السد العالى .. حقيقة قائمة
بذاتها ..

- والدكتور روبرت شولر .. عندما أراد بناء الكريستال
كاتيدرال فى نيويورك ، كانت تكلفة المشروع تتعدى ١٠٠
مليون دولار .. ولم يكن يملك منه شيئا ، عندما قيل له أن
هذا مستحيل .. رد أنه قطع مصطلح المستحيل من القاموس
.. منذ عشرون عاما ، وتحقق حلمه بالصبر ..

حکاووی قَطْر المَناسِی



حكاوى قطر المناشى

القطار هو المكان الأمثل .. الذى تستطيع فيه أن تجرى حديثا مطولا .. مع شخص لا تعرف عنه شيئا ، تنطلق بها تستحى أن تبوح به لأى أحد .. دون خجل ، دون أن تأبه .. إن كان الآخر أهل لثقتك ، أم أنه لا يستحق أن تقترب من وتحادثه ، فالآخر ببساطه ينتهج ذات النهج ، وتلقى بكل الأسرار التى بوح بها فى أقرب سلة مهملات .. عند محطة الوصول ، ولكم تحملت محطات القطار من أحاديث ، من جد وهزل .. وترهات وإرهاصات .. وسخافات وحقاقت وسخرية ... وأحاديث أخرى لا تعنى شىء ..

قطر المناشى .. من أشهر قطارات السكك الحديدية فى مصر ، تضاهى شهرته شهرة قطار الصعيد ، فهو ينزح من عمق من محافظة البحيرة .. إلى عمق محافظات الدلتا وصولا إلى القاهرة ، حاملا معه الطلاب والموظفين والبائعين الجائلين والمتسولين والمسافرين لأغراض أخرى ، ولن تعانى للوصول إليه .. تعثر عليه بسهولة على رصيف ١١ بمحطة رمسيس ..

وعن حكايا قطار المناشى ، فحدث ولا حرج ، فتلك العربات الحديدية المصفدة يشد بعضها بعضا .. تحمل بين طياتها كل متناقضات الحياه ، من ترف وإفتقار ، جهل وعلم ، ضياع ووصول ، أمل وترح إلى آخره ، ولكل من إستقل هذا القطار حكاية صغيرة .. قد يتذكرها أو تنسحب مع عجلات الزمن ، وكل حسب

فئته .. وغرضه من إمتطاء خط المناشى ..

أتذكر أنني في فترة ما وأثناء شهر رمضان .. كنت قد إعتدت ركوب قطار الساعة الخامسة نازحا من بلدتى الصغيرة إلى القاهرة ، إمبابة على وجه التحديد ، كنت أتناول إفطارى فى منتصف المشوار ، لأعود فى آخر قطار يهجع من رمسيس الساعة الثانية عشر مساء ، لأعود إلى بلدى فى ميعاد السحور ..

فى تلك الفترة .. كنت أسافر لأحد المطربين الشعبيين .. لأعرض عليه بعض أغان قد ألفتها مسبقا ، وكان هذا من جملة تحايلى على الفاقة والعود ، وأحد أفانينى لخلق طريق للوصول ، وأقر بأن الرجل كان حذقا .. إذ تمكن من تنويمى طوال الشهر الكريم ، وإخضاعى للذهاب إليه كل ليلة ، لنجلس على مقهى " بلدى " بإمبابة " بمنطقة المنيرة " طوال الليل ، بصحبة بعض من المرائين .. وآخرين يعملون معه بالأفراح ، كان الرجل كلما عرضت عليه أغنية ، أعرب عن حاجته لكلمات أخرى .. تعبر عن حالة معينة " كالفراق أو العشق أو الخيانة ... إلى آخره " ، وفى نهاية كل جلسة تتغير الحالة المطلوبة بالطبع ، لأعود إليه فى الليلة التالية بكلمات جديدة ، وتلقى سابقتها فى سلة المهملات ..

لم أكن بالجهل الفادح لأفهم أن الرجل كان يراوغنى ، بيد أنى كنت أواصل جلساتى معه .. على أمل أن يقبل عبثا بإحدى أغنياتى .. فيغنيها ويحولها إلى فيديو كليب ، فأتمكن من خلالها السعى لمطربين

آخرين ، كان يتوجب على تحمل سماجته وموهبته الضحلة الضئيلة ،
فصوته كان أشبه بصوت سائس السيارات بالمواقف والجراجات
العمومية ، تحملت كل هذا على أصل إلى ما أربو إليه ، إلا أن هذا لم
يحدث فلقد إنتهى الشهر الكريم دون جديد ..

أذكر أنه في إحدى المرات وأثناء وجودى بالقطار .. وعند ربع
مشواره تقريبا ، توقف لبرهات لحين مرور القطار المعاكس ، ورمقت
فتاه صغيرة السن تلج من أحد أبواب العربة ، ولفت ناظرى جمالها
الغض وجسدها البض ، كانت تحمل طفلة صغيرة لا تعدو العامين ،
إقتربت وجلست على المقعد المقابل لى ..

وظلت الفتاة تختلس النظر لى بشكل ملفت ، بالطبع كنت ألحظ هذا
جيذا ، وكنت بدورى ألقى إليها بعض رمقات متتهبة ، لم أكن أتصور
أنها أم لتلك الطفلة ، فقد بدا صغر سنها ، لاريب أنها لا تعدو الثامنة
عشر ..

وبغثة بعد مرور قرابة الربع ساعة .. مالت الفتاة بنصف جسدها
نحوى ، تحادثنى ..

- هى الساعة كام يا أستاذ ؟ .. شكلنا مش نلحق نفطر فى
البيت ..

قلت ..

- الساعة ستة .. هو أنتى نازلة فىن ؟ ..

فرمقتنى مليا ، ثم طأطأت رأسها تحتضن إبتتها ، وأطبق عليها صمت غريب ..

أغرقتني الإحراج لبرهة ، إلا أنى لم آبه ، أخرجت بعض أوراقى وإستغرقت فيها ، بيد أنى لاحظت أن الفتاة كانت تتحين فرصة أخرى للحديث ، وتلك المرة لم أنظر إليها .. بل إصطنعت أنى منهمك فى تحرى أوراقى ، وإسترعى إنتباهى عدم إستقرارها .. وكثرة حراكها بالمقعد ، كان يصلنى ظل رمقاتها ..

شعرت فى البداية أنها تريد أن نتعارف ، كعادة شباب القطار .. الكل يتعرف على الكل ، وبعضهم يتعمد ركوب القطار .. لعله يحظى برقم فتاة ليحدثها ليلا ، ولا تسألنى .. ما جدوى تعارف مقصود على هذا النحو .. بفتاة لا أعرفها ..

ولأنى لم أكن مقتنعا بهذا النهج من الإقتراب ، أقمت حقيبتى على كتفى .. وتأهبت لمغادرة المقعد ، إلا أنى فوجئت بالفتاة تمسك بمعصمى ، ثم حررته بغتة ، تقول ..

- لو سمحت ياأستاذ .. كنت عايزة منك خدمة ..

فجلست ، وأقعدت حقيبتى إلى جوارى ..

- أوامرى .. خدمة إيه ؟ ..

وخشيت أن تطلب مساعدة مالية ، فكنت كعادتى ، بالكاد تملأ جيبي كلفة الطريق ، قالت ..

- خدنى معاك مطرح ما إنت رايح .. وأنا هشتغلك خدمة



صعقتني قيلتها ، أدهشتني إلى حد الحملة وفغور الفاه ..

- خدامة؟! ..
- أنا هربانة من أهلى .. عايزين يجوزونى غصب عنى ..
- ودون إرادة .. أشرت إلى الطفلة القابعة على كتفها ..
- هى دى مش بنتك ؟ ..
- بنتى .. بس أبوها مات .. أنا أرملة ..
- ودار فى خلدى .. " فتاة بهذا السن .. وأرملة ! .. وتحمل طفلة على كتفها ! " ..
- طب وأهلك عايزين يجوزوكى غصب عنك ليه ؟ ..
- زهقوا منى .. عايزين يطفشونى من البيت بأى طريقة .. إن شالله يجوزونى عجوز كركوبة ..
- فحرت فى أمرى ..
- وإيه اللى أقدر أعملهولك؟! ..
- خدنى معاك .. أخدمكم فى البيت بلقمتى ..
- أنا مش عارف أقولك إيه والله؟! ..
- والله العظيم ما هسبيلك مشاكل .. أنا عايزة أربى بنتى وخلص ..
- المشكلة إنه مينفعش .. إحنا إثنين عزاب فى البيت .. ثم إنى مش مروح .. أنا رايح شغل ..
- هستناك فى المحطة لحد ماتخلص .. ومتخافش مش هنكلفك حاجة .. أى حته ممكن أنام فيها أنا وبنتى .. إنشالله عشة فراخ

.. أى مكان يسترنى وخلاص .

وغمرنى صمت ترح لبرهة .. لا أعرف بماذا أجيب .. أريد أن أساعدها بيد أنى لا أملك لها شيئاً ، فأقترحت عليها ..

- طب إيه رأيك أروح معاكى لأهلك وأفهمهم .. إنك مش عايزة تتجوزى وعايزة تربى بنتك ؟ ..

وما إن نطقت بكلمة " أهلها " .. حتى إنتصبت مذعورة ..

- أهلى؟! .. أهلى لأ .. بقولك هربانة منهم .. هى دى المساعدة

اللى هتساعدها لى ..

ثم جلست ، وتقدمت برأسها صوبى ..

- طب بقولك إيه ، أنا فهمت من كلامك إنك مش متجوز ،

إيه رأيك تكتب عليا وهعيش طول عمري خدامة تحت

رجليك ؟ .. ومش عايزة منك أى حاجة .. أنا هشتغل

وهصرف على بنتى ..

- برضه ماينفعش .. أنا أصلاً مش مستعد للجواز دلوقتى ..

ظروفي ما تسمحش .. ثم إنه ماينفعش تعرضى نفسك على

أى حد بالشكل كده .. إنت تعرفينى مينين ؟ .. يا بنت الناس

كده بتعرضى نفسك للخطر .. الدنيا مليانة ولاد حرام كتير

.. وإنتى صغيرة وشكلك طيبة وعلى نياتك ..

ثم راونى خاطر خبيث ، قلت " لن أتزوج طيلة عمري مادام حالى

بهذا السوء .. فما المانع إذن أن أتزوجها ؟ .. زيجة مجانية ..



لن تكلفني " لا أبيض ولا أسود " .. وبذلك سأكون بذلت لها
معروفا يكفيها ذئاب الطريق .. وأكسب ثوابا في إبتها اليتيمة "
لكني إستفقت لحالي سريعا ، ووأدت وسوسة هذا الشيطان اللعين
الذي يطن في عمقى ، فالفتاة كفاها ضياعا .. حتى أضيعها في طريقي
، فأنا نفسي تائه لا أعرف لي مرسى ..

نظرت إليها ، تتغضن أسارىرى وأقول جادا ..
- أنا شايف إن الحل الوحيد إنك ترجعى لأهلك قبل الليل ما
يليل .. وإصبرى ربنا فرجه قريب ..
وتلك المرة إنتصبت ، وترجلت إلى خارج المقعد .. ثم رمقتنى .
- متشكرين على مساعدتك .. ربنا مش هيضيعنا ..

ولمحتها تقف عند باب العربة ، تتمعن البيوت الواطئة على طول
شريط القطار ، الهائلة بأهلها ، وما إن توقف القطار حتى هبطت ،
وجلست على إحدى مقاعد الأنتظار الحجرية على الرصيف ، وإرتفع
صوت أذان المغرب ، وتلاقفته المآذن ، فرأيتها تخرج بضع تمرات من
حقيبتها البلاستيكة ، وبدأت تلوكها فى ترح شديد ، تنظر الركاب
الهابطين ، تتحرى بينهم عمن ينتشلها من شتاتها ..

وما هى إلا لحظات حتى تحرك القطار ، رأيت الرصيف وقد أفرغ
ملئه إلا منها ، بقيت وحدها تتطلع يمينا ويسارا ..
إختفت المحطة ، وأخر مشهد يملأ عيني رمقاتها الحائرة ، وإبنتها
الذى طن صراخها مع دبذبات القطار المدوية ، تمنيت لو رجعت بها
لأمى ، ترى ماذا كانت ستقول ؟ ، وللحظات قليلة ظل القرار
يتواتر ويتردد فى عمقى .. إلى أن خبا رويدا رويدا ، وأصبحت
حكايتها وكأنه حدثا عايشته منذ سنوات طوال ..

لم يكن ما حدث ليمر مرور الكرام ، تذكرته تارة أخرى عند عودتى ،
وخاصة عندما حدثت أمى به ، فأبنتنى بأنه كان ينبغى أن أجلبها

معى ، وسنجد لها مخرجا من مأزقها ، فتمنيت لو رأيته مرة أخرى ،
فلن أتركها أبدا ..

وكما كان القطار مليئاً بالحائرين التائهين ، تجده دوما مليئاً
بالمسكعين ، الذين قدموا خصيصا لهذا الغرض ، وللتحرش اللفظي
بفتيات المدارس والجامعة ، ففي كل مرة أستقل فيها القطار .. لا بد
وأن يطالعنى هذا المشهد ، لمجموعة من الفتيان يناوشون فتاة أو أكثر
، وما إن يبلغ الزبد الربى .. حتى يتدخل بعض الشباب المتحمسين "
الجدعان " ليفضوا تلك المهزلة ..

ولا أدري لماذا ينتظر الركاب " وأنا منهم " تلك المشاهد .. حتى
يتفاقم الأمر ويتهى بعراك حاد ؟ .. ربما صحبه إصابات بالغة ،
كنت دوما أسأل هذا السؤال ، لماذا يتحول القطار إلى ساحة لتصيد
الفتيات ؟ .. وكأنه صالة هو بشارع الهرم ، أين الرقابة ، لماذا يتمتع
" الكمسارية " فقط .. وهم يحملون الراكب غرامة " يطوقونه " ..
إذا ما نسى حجز تذكرة الركوب من المحطة ، وقد يصل الحال إلى
تسليمه إلى ناظر المحطة .. ومنه إلى قسم الشرطة ، ويتغاضون تماما
عن تلك المهازل ، كانت كلها محيرات .. أنا على يقين أنها تناوش
ألباب أغلب الركاب بين حين وآخر ..

وأذكر تلك الحادثة الشهيرة جيدا ، حينما تناول أحدهم على فتاة لم
تكمل السادسة عشر ، ظل يغازلها ويلقى بعبارات الإطراء .. التى
كانت فى بادئ الأمر بريئة إلى حد ما ، وما إن لاحظ أنه لا أحد

يكثرث ، حتى بدأ يقذفها بالعبارات البذيئة ويتحرش بها لفظيا ، إلى أن إلتهج الأمر وإمتدت يده إلى شعرها

وما ناله هذا الفتى لم ينله متسكع من قبل ، إذ كانت الفتاة تجلس على مبعدة من أمها بمقعدين تقريبا ، والتي كانت مستغرقة في ثبات عميق ، فأيقظها صراخ إبتتها وهي تناديا ، فحلقت الأم فوق المقاعد ، وقبضت على تلايب الفتى وظلت تقرعه على رأسه بحذائها .. حتى شجت رأسه وبكت الدم بكا ..

والأغرب من هذا كله ، أن تُرك طريقا بأرضية العربية ، دون أن يعنى به أحدا ، كان المارة والباعة يمرون فوق جسده دون إكتراث ، يلكزه هذا ، ويوخذه هذا ، ويركله هذا ، لم يجرؤ أحدهم على إقامته تحت مرأى والده الفتاه ..

وما إن هبطت المرأة بعد أن ركلته بعنف في ظهره وتبعتها الفتاه ، حتى قام أحد الركاب بإجلاسه على مقعد ، كان الفتى غاميا تماما .. فما ملك القدرة على الجلوس فأرقده ، وطلب أحدهم سيارة الإسعاف عند المحطة التالية ..

توقف القطار عند المحطة ، وحمله المسعفون ، يتسألون عما حدث له .. إلا أنهم لم يتلقوا إجابة شافية من أحدهم ، وهنا إنقطعت أخباره ، إلا أنى وفي طريق العودة .. فوجئت بأن الفتى بات حديث المقاعد كلها ، وصعقت عندما علمت بأنه قد لقي حتفه بالمشفى .. أصابنى مرج شديد ، لقد دفع الفتى حياته جراء رعونته وتسكعه ،



نسیل مرعی

قتل دون دية أو قصاص ، فالقاتلة إبتلعتها الشوارع والدور ، ما أسخفها ميتة رخيصة دون مقابل ، ميتة العراء أكثر صونا وحفظا للكرامة ..

ظلت قصته حديث المجالس في كل روحة وجيئة ، حتى تسربت إلى البيوت في الجوار من قرية إلى قرية ، ولكن الجميل في الأمر والمضحك في أن ، أن الرجال والفتيان ظلوا ولعدة شهور .. يتحاشون كل أنثى وكأنهن مصاصى دماء ، ينثون بأنفسهم ويتوارون حتى عن مساعدة إحداهن في حمل بعض الحاجيات .

وما هي إلا بضع شهور ، وعاد الحال أسخم مما كان ، المناوشة والتحرش والسهاجة والتطاول ، إلا أن ما حدث لم يتكرر ثانية ، الكل خائف ، فمازالت أصداء الحادثة تتردد ، الكل يتربص أول قاتل أو قاتلة ليحمل على غاربه وزر الجرمين معا ..

.....

كنت أتعجب دوما كيف يستطيع بعض الناس النوم في القطار ، كيف لا يوقظهم رقع العجلات الحديدية وصداحها المدوى على القضبان ، وكنت أتأملهم لساعات طويلة ، يأتيني " شخيرهم " وكأنه معزوفة لفرقة موسيقية تعمل

تحت بير السلم ، وأقول لنفسى " لماذا لا تجرب ؟! " ، وخاصة أنى أكون دوما في حاجة لقسط من النوم ولو لبضع دقائق ، فأنا شديد السهر ، " إما للتأليف في أجواء هادئة " لا تشوبها أصوات التلغاف

والأطفال الراكضين اللاهين خارج المنزل ، أو لإنجاز بعض من الرسومات الهندسية التي تتعوز لذات الظروف " .. بيد أنى أبدا ما إستطعت يوما .. النوم ولو لبرهة واحدة ..

كلما غفيت عيناي ، وأوصدت مصاريعها ، تفرغني أصوات البائعين بالقطار ، أو حديث إحداهن الغير آبه بالجيران عن الطيخ والمصاربف وما شابه ، ناهيك عن المتسكعين وآخرين من يظنون أنهم في نزهة بالقناطر الخيرية ، وربما أيقظني رقع قلم " الكمسارى " على حافة المقعد الخشبي ، ولا أدرى لماذا ينظر التذكرة عشرات المرات .. وكأنه مصاب بالزهايمر ، فينسى أنه رمقها منذ خمس دقائق أو أقل ..

وبعضهم لا يغفى على مهاده .. كما يغط في النوم العميق على مقاعد القطار ، وكأنه يجدها فرصة ذهبية للنوم ، حتى أنى بت أظن أنهم يستقلون القطار خصيصا لأجل النوم ، دون وجهة أو هدف ، وما كان يحيرنى أنه كيف لم تكسبنى تلك الأجواء موهبة النوم ، كمن يتشاءب عندما يرى آخر يتشاءب ، كيف؟! ..

.....

أذكر ذات مرة أننى كنت قادمة من القاهرة في قطار الثانية عشر مساء ، وفي هذا الميقات .. يكون القطار خاويا إلا من شراذم متناثرة في العربات ، حتى كأنى أسمع وسوسة " الكمسارية " .. وهم يمرون علينا يتشاءبون ، ويملاً النوم أعينهم ، وكأنهم يدعون في أعماقهم على الركاب والقطار والسائق .. وهيئة السكك الحديدية ..

" الله يلعنكم .. ملكوش بيوت تنخدموا فيها .. لازم يعنى سفر بالليل وتقرفونا معاكم .. يارب القطر يتقلب عشان نترحم من أشكالكم .. دى شغلانة تقصر العمر " ..

وياحبذا لو رأى أحدهم شابا يختلى بفتاة فى ظلمة القطار " ولا أقصد معنا سيئ فقد يكون أخ وأخته " ، تعلوا نعمة الدعاء فى أعماق أعماقه .
" إحضن ياحيلتها إحضن ، ضاقت بيك الدنيا .. ملقتش مخروبة تعط فيها غير القطر ، يارب تطلع جربانة ونخلص منكم ومن أشكالكم " وقد يصر أن يخلى بينها ، أو ينقلها إلى عربة مضيئة ، ومهما أقسم له الرجل أنها أخته أو زوجته .. لا يتراجع " الكمسارى " تظل " دماغه وألف جزمة " أن يفرق بينهما ، وأن يفسد مرأههما ، فلقد تربع إبليس فى رأسه .. وأفنعه أنها فتاة باغية وأنه شاب " بايظ " ، فطفق يملى عليه ما يقول ، وربما إنتهى بهما الحال فى قسم الشرطة .. إن تفاقم الأمر وناهض الرجل رغبة المحصل ..

فى تلك الليلة كنت أجلس فى إحدى العربات التالية لـ " الجرار " .. حتى لا أسير كثيرا على رصيف البلدة الطويل وقتما يتوقف القطار ، كنت قابعا على مقعد فى وسط العربة الخالية تماما ، كان منتصف الصيف والجو يضارع جهنم .. أو يكاد ، ضربتنى النسائم الباردة .. وملأت خواء أجفانى فغفيت ، شعرت وأن الخدر قد تسلل إلى عروق رأسى ومسالكه .. فلم أقوى على إفراج مقلتى ، وكانت تلك إحدى المرات النادرة جدا .. التى تمكن فيها النوم من التسرب خلسة

إلى أجباني فأرقدني كالميت ، وإذا بي أشعر بشيء حاد .. يلكرز كنتفى
عدة مرات وفي تسارع مكروب مستفز ..

أفقت منتفضا .. وسرى فى قلبى إرتعاب مفزع .. ورقاً الدم فى
وشائجى ، ليتبدى أمامى رجل طويل .. يرتدى معطف أسود حالك
يمتد إلى ركبتيه .. وتعلو رأسه قبعة " كقبعة العم سام " ، إرتعدت
أواصلى وإصططكت قدماى .. ما بقى إلا أن يبرز الرجل ناييه ليمص
دمى ، لا ريب وأنه دراكولا بعينه ، جاءنى خلسة .. يخترق الليل
البهيم متلصصا .. ليملاً عروقه الظمأى بدمى ، لا شك عندى أنه هو
، وإلا من سيكون ؟ ..

كانت تلك المرة الأولى التى يخالج قلبى فيها شعور مفزع للغاية كذاك
، إن النهج الذى ولج به الرجل إلى .. وهيبته .. لا تتم إلا عن كونه
أحد الكائنات الخرافية .. التى تسرى فى حلقة الليل تبحث عن
فريسة ، وما زاد من شعورى بالرهبة .. طوله السامق وكأنه جانب
قلعة عتيقة ..

إنخفض الرجل بجرمه الهائل .. وجلس أمامى مباشرة ، كانت ياقنا
معطفه ناهضتان وكأنهما حد سيف ، كانتا كبيرتين للغاية .. إنزوى
خلفهما الجزء الأسفل من وجه الرجل ، وإنكفأت قبعته الطويلة ..
لتوارى النصف العلوى المتبقى ، ومازلت نفسى تحدثنى بحديث
يخيف أشجع الرجال ، والرهبة تتلاعب بجأشى .. تقبضه وتبسطة
لتعود فتقبضه تارة أخرى .. لا أدرى ما هذا الذى قطع غفوتى ..

خلع الرجل قبعته ووضعها إلى جواره ، ثم أرخى ياقتي معطفه فتبدى وجهه .. وياليته ما فعل ، برزت أمامي أنف ممتلئة .. حادة طويلة ومحنية إلى الأسفل .. وكأنه أحد سحرة فرعون ، كانت أساريه غليظة للغاية ، حاجبان كثيفان .. وكأنهما أهداب " مقشاة " لأحد عمال البلدية ، تعلقو جفنان منتفخان .. وإنفراجه للعين ضيقة للغاية .. وكأنهما قد حفرتا بمخيط ، وشفاه سفلية " دائرية غليظة " .. تعلقها شفة محدودة متآكلة ، وما زاد من دمامته رأس صلعاء



أشبهه بالقمع .. تحوطه من الجانبين خصلات من شعر أبيض الثلجى
.. طويلة إلى منكبيه ..

ضربنى خوف شديد .. وأنا أرى الرجل صامتا لا يتكلم ، إلى أن نطق
أخيرا بنبرة مبحوحة ..

- إنت لوحدك ؟ ..

راعنى سؤاله ، وقلت " ماذا يريد منى الرجل ؟ " ، قلت بصوت
يوشك على الإختفاء ..

- أيوة ، هو فيه حاجة ؟ ..

- متخافش يابنى .. أنا قلت أدردش معاك لحد أما نوصل ..
الطريق طويل ..

وهنا تنفست الصعداء ، ليس الرجل بدراكولا ولا عفريت .. ولا
دياوله ، إنه محض رجل يشعر بالملل ، كدت " ألعن سلسفيل أبو اللى
جابوه " ، لولا أنى تمالكت نفسى .. وإسترددت مرأى وهو يقول ..
- إيه .. إنت خفت ؟ .. إنت جبان قوى ..

- هو فيه حد يدخل على حد الدخلة دى .. قلبى كان هيقف

فأفزع الرجل فاه .. ودوت ضحكاته فى العربة ممتزجة بالصفير
والأزيز والدبذبات الحديدية .. فبدا وكأنه مصاص دماء بالفعل ،
وما إن هداً قال ..

- هو إنت نازل فىن ؟ ..

- فى كفر داود ..

- طب كويس .. أصلى رايح مدينة السادات .. دى أول مرة أروحها ..
- طب تمام ..
- أعرفك بنفسى .. أنا الدكتور " ع م ي " .. أستاذ بكلية الإقتصاد والعلوم سياسية بجامعة قار يونس فى ليبيا .. وإنتدبونى عشان أدرس فى مصر .. فى جامعة المنوفية .. عندكم فى مدينة السادات .. وإنت على كدة لسة بتدرس ولا خلصت ؟ ..
- لا والله أنا واحد لسه مخضوض من شوية ..

فضحك ضحكته المجنونة .. وطفق الرجل يثرثر وثرثر إلى أن أصابنى بصداع شديد ، فقررت النزوح من مقعدى إلى مقعد آخر ، ففعلت ..

.....

وفى القطار تجد نوعا آخر من البشر ومن الحكايا .. وهم المسترزقين " البياعين " ، ولكل منهم حكاية لها العجب ، فمنهم من ضاقت به الدنيا .. فأصبح القطار داره ومأواه " تحت أعين المسئولين " ، ومنهم من أعياه البحث عن عمل .. إذ لفظته الشركات والمصانع وأماكن الرزق الأخرى .. بينما فتح القطار له ذراعيه لبيع كل شئى وأى شئى .. " شاي ، حاجة ساقعة ، مخبوزات سريعة ، خردوات ، ملابس أطفال ، تسالى .. حتى كتب اللهو ومجلات العرى تجدها " ،

ودون قصد .. تحول القطار إلى سوقا كبيرة .. تباع فيه الأشياء الصغيرة ..

ومنهم الهارب من أحكام جنائية .. قد تصل إلى حد الإعدام ، وقد مر على مجلسى حالة كتلك .. علمت أن عائلة كاملة من الصعيد " ما بين إخوة وأبناء عمومة .. بها يعدو العشرين فردا " .. قد نفروا من قطار الصعيد وأعين " الحكومة " .. إلى قطار المناشى المتجه إلى أطراف محافظة البحيرة ، وعلمت أيضا أن كثيرين منهم .. بيتون في العربات الخربة .. إما في محطة رمسيس " رغم التفتيش الدورى " ، أو يتوزعون في العربات المنتشرة في المحطات المختلفة خلال الطريق وهنا أذكر عندما تأخرت عن ميعاد آخر قطار .. يهجع من رمسيس " بعد الثانية عشر مساءا " ، فإضطررت للمبيت في إحدى العربات الخربة ، ولن أنسى أبدا ذاك العسكرى السمج .. الذى ظل يلاحقنى من عربة إلى عربة يستفزنى للمغادرة ، كلما هربت منه أبحث عن مرقد يأوينى .. وجدته فوق رأسى ، حتى بعدما قلت له أن آخر قطار قد فاتنى .. وما هى إلا ساعات قليلة وسأغادر المكان مستقلا قطار الرابعة صباحا ، إلا أن " دماغه وألف قبقاب " أن يزيحنى من حيز المحطة كلها ، ويبدوا أن كل العاملين بهيئة السكك الحديدية .. تحكمهم ذات العقلية ، والغريب فى الأمر .. أن الرجل إستفزنى من عربات المحطة .. بينما لم ينبس بكلمة وأنا أفترش الأرض بجوار القضبان " على مقربة من الرصيف ! " ، وكأنها فى حدود دولة أخرى

ولا يخلو القطار بالطبع من المسؤولين ، الذين يستخدمون كافة أفانين الكلام والأفعال .. ليستدروا عطف الركاب " الذين أغلبهم من المهمشين .. من تنطلي عليهم أضعف الحيل وأقلها حكاة " ، منهم من تراه أشبه بمجاذيب الأفلام والمسلسلات .. ذو شعر أشعث ، وذقن طويلة تقترب من الركبة ، وملابس مهلهلة ومرقعة .. ولا مانع من العصاة والمسابع ذات الحبات الغليظة ..

وقد ترى شابا في طور الثلاثين .. يرتدى جلبابا أبيض متسخ ، ويتوشح بشال .. يوارى نصف وجهه وذقنه المتوسطة الجرداء ، ويعرج بإحدى قدميه ، ويتوكأ على منكب فتاة صغيرة " لا تعدو العاشرة " .. ترتدى السقط البالي وحافية القدمين ، وتجده دوما يمد يده " بنصف ذراع في تلزج وسماجة عجيبة " بورقة صغيرة .. كتب عليها بالكمبيوتر .. أنه يعاني من فشل الكلى ، ويغسل مرتين في الأسبوع ، وهذا النوع نادرا ما يستجلب عطف أحدهم .. إلا أنه لا يكف عن السياحة وطلب العون ..

وهكذا .. تجد أشكالا وأنماطا متنوعة من المسافرين ، والطلاب ، والموظفين ، والبائعين ، والمسؤولين ، والمشردين ... إلى آخره ، مما يعطى القطار ثراء بشريا عجيبا ، وكأن جميع فصائل الشعب .. قد تجمعت هنا .. في بضع من عربات القطار ، كل يحمل على عاتقه .. حكاية تامة الشخصيات والأركان ، وربما مبتورة .. إقتصها السارد

عنوة .. فقد أعياه الحكى وأجهده التفكير ، فسقطت رأسه على حافة
النافذة المهشمة .. ليغفو بضع دقائق إلى حين يوافي القطار محطته .

* * *

تمت بحمد الله ...

الفهرس

- ٦ - إهداء
- ٨ - السر
- ٢٨ - شخبطة ع الحيط
- ٥٢ - أنتيكا
- ٧٨ - الحضور والغياب
- ٩٠ - ذو سلطان
- ١٠٨ - الغالى الذى لا ينال
- ١٣٠ - تساؤلات تتسع
- ١٥٤ - أحزان يوسف
- ١٧٨ - قرارات مفاجئة
- ٢٠٠ - الإكسير
- ٢٣٢ - شنيل
- ٢٥٠ - لا أعرف .. ولا أريد أن أتعلم
- ٢٨٢ - من وحي التنمية البشرية
- ٣٠٤ - حكاوى قطر المناشى

مُؤَيِّنَاتُ أُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيْعِ

مؤسّسة الأمانة الحزبية للنشر والتوزيع

أخزراه يوسف

وتلك المرة إتصبت ، وترجلت إلى خارج المقعد .. ثم رمقتى ..
— مشكرين على مساعدتك .. ربنا مش هيضيعنا ..
ولمحتها تقف عند باب العربة .. تمنع البيوت الواطئة على طول
شريط القطار ، الهائلة بأهلها ، وما إن توقف القطار حتى هبطت ،
وجلست على إحدى مقاعد الإنتظار الحجرية ، وارتفع صوت أذان
المغرب ، وتلاقفته المآذن ، فرأيتهما تخرج بضع تمرات من حقيبتها
البلاستيكية ، وبدأت تلوكها في ترح شديد ، تنظر الركاب الهابطين ،
تتحرى بينهم عن يتشلها من شاتها ..
وما هي إلا لحظات حتى تحرك القطار ، رمقت الرصيف وقد أفرغ
ملئه إلا منها ، بقيت وحدها تتطلع يمينا ويسارا ..
إخفت المحطة ، وآخر مشهد يملا عيني رمقاتها الحائرة ، وابنتها
الذى طن صراخها مع دبدبات القطار المدوية ، تمنيت لو رجعت بها
لأمى ، ترى ماذا كانت ستقول ، وللحظات قليلة ظل القرار يتواتر
ويتردد في عمقى .. إلى أن خبا رويدا رويدا ، وأصبحت حكايتهما
وكأنه حدثا عايشته منذ سنوات طوال ..